العابدة الخاشعة

رابعـــة العدويـــة

إمامة العَاشِقين والمَحزُونين

الناشر : **دار الرشاد**
١٤ شارع جواد حسنى - القاهرة
تليفون : ٣٩٣٤٦٠٥ - ٢٩٩٢٦١٥
رقم الإيداع : ٩٦٣٤/ ٩٥
الترقيم الدولى : 977-5324-19-X
طبع : **آمون**
العنوان ٤ عطفة فيروز - متفرع من إسماعيل أباظة
تليفون : ٣٥٤٤٣٥٦ - ٣٥٤٤٥١٧

الطبعة الأولى : ١٤١١هـ - ١٩٩١م
الطبعة الثانية : ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م
تصميم الغلاف : **محمد فايد**

العابدة الخاشعة

رابعة العدوية

إمامة العاشقين والمحزونين

دكتور عبد المنعم الحفني

دار الرشاد

إلى أخي وصديقي وأستاذي المفكر الكبير أنيس منصور
بعضَ هَدْيِّك وغَرْسِ تعليمِك

عبد المنعم الحفني

★★★

قلـــــوب العـــــــارفين لها عيـــــونٌ تــرى مــا لا يــراه النـــــاظـــرونـــا

وألسنــــــــةٌ بِسِرٍ قـــــد تَنَـــــاجَى تَغيبُ عـن الِكــــرام الكــــاتبينـــــا

وأجنحـــــــــــــــةٌ تطيرُ بغيرِ ريـش إلى ملكــــــوت رب العـــــــالمينــــــا

فتسقيهــــــا شراب الصــــــدق صرفــــاً وتشرب من كــــؤوس العــــارفينـــــا

★★★

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

★★★

مازال نجم إمامة العاشقين والمحزونين ، العابدة الخاشعة رابعة العدوية ــ مازال بازغًا ، وما زالت المؤلفات تتابع عنها ، والمساجد تقام باسمها ، تبركًا وتيمنًا ، ولقد نفذت الطبعة الأولى من هذا الكتاب وبسرعة عجيبة ، واقتضى الأمر طبعة ثانية ، وتأتى هذه الطبعة منقّحةً وعلى خير وجه إن شاء الله .

فالحمد لله على ما أعطانا من نعمة العقل والتمييز ، وفضّلنا على كثير من عباده بنعمة الشكر واليقين ، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى ، والله أدعو أن يتم علينا تقواه ، وأن نقول القول السديد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، يُصلِح أعمالنا ويغفر لنا ذنوبنا ، ويُنِلنا الفوز العظيم بطاعته ورسوله ، ويُعنّا على حمل الأمانة ، ويتوب علينا ، إنه بنا غفور رحيم .

عبد المنعم الحفنى

مقدمة الطبعة الأولى

ربِّ يَسّـــر

★★★★

. من الشخصيـات المحوريـة فى التصوف الإســلامى **رابعة العدوية** ، وهى صـاحبة فضل وفكر ومـدرسة ، والقراءة فى الشخصيات النبيلـة والعظيمة تُعدى بـالنبل والعظمة . والتصوف غـذاء روحى ، **ورابعة العدوية** روحانيـة وراهبة مـن راهبات الفكـر الصوفى الأصـيل ، وهـذا الزمن الذى نعيشه مـا أحوجنا فيـه إلى جرعات روحية تحيي فينـا موات الآمال ، وتتنزل بها علينا السكينة والطمأنينة ، وهذا زمان القلاقل والصراعات وقيل فيه إنه **عصر القلق** ، ويبدو أن طابع الشخصية العصرية صار هو الطابع **العُصابى** ، وما أكثر ما يحتاج شبابنا وشيوخنا ونساؤنا ورجالنا إلى منْ يذكّرنا باستمرار بالقيم الروحية ، ويوَعّينا بماضينا ، ويـؤمّلنا فى غـدٍ أكثر إشراقًـا ، ونحن لايمكن أن نكون خُلقنـا عبثًا أو طُـرِحْنا فى الوجود اطّراحاً من غير غاية يترسمها الخالق ولا هدف ولا علّة.

والإنسان مقـدور عليه أن يعيـش ، ويستشعر المسئوليـة ، ويقبل بـالواجبـات . وهو يحتاج للآخـرين ، ولكنه معهم فى شِقاق وعداء ، والآخرون بـالنسبة له هم **الجحيم** ، وإن كان يحاول بـاستمرار أن يجعل وجوده معهم فى وئام ، ويجاهد مع ذلك أن لا يفقـد نفسه وتتميع ذاته ، ويعمل على أن تكـون له استقلاليتـه . والآخرون يريدونـه تابعًا وأن يـزيّفوا وجوده . **ورابعة العدوية** وجودها أصيل لم يتزيف ، وفكـرها استقلالى ، وذاتها متوحدة ، وما أحرانا أن نضـع أعيننا على أمثـالها ، وأن تصافح آذاننا كلماتها ، ونتمثلها ونحن نصنع حياتنا . والقراءة فى **رابعة** وعنها نَسمْة نَسْتَروْحها ونحن نعـانى من هذا اللهيب المتّقد الذى تلفحنا به صُحُفنا اليومية والإذاعات من حولنا ، والذى تحترق به أفئدتنا ويوغِر منا القلوب بالحقد والضغينة ، والحديث عن **رابعة** وفلسفتها وشعرها يلذ للمتعبين والحيارى .

ومـا أجدرنـا أن نلتمس كتـابًا مـن الكـتب الحافـزة بين الحين والحين ، كلما ادلهمت أمورنـا ، واغتمّت لها نفوسنا واضطربت منـا الأفكار ، وقد اخترت أن اقـرأ كتـابًا **للدكتور عبد الرحمن بدوى** ـ وهو من أساطين مفكـرينا ـ عن **رابعة العدوية** ، باسم « **شهيدة العشق الإلهى** » ، فكأنى لم اقرأ هذا الكتاب من قبل ، وكأنى لم أعـرف هذا المفكر العملاق معرفتـى لأبى أو أكثر ، ولقـد تتلمذت عليـه وأخذت عنـه ، وأسلوب **الدكتور بدوى** جزل ومُشَوّق ، وانتقاؤه للألفاظ انتقاء العالِم باللغة وأسرارها ، فللمعانى ما يناسبها ويَقْوَى على حملها من الألفاظ التى تزيد من وضوحها ولألائها ، وهو يسوق الأمثال ويحلّق بالقارىء فى آفاق المعرفة ، ويختار الحكايات من مختلف الثقافات ، ولاتملك نفسك كقارىء إلا أنْ تعجب من مهارته وعلمه وأستاذيته.

وأنت إذ تجرى بعقلك على السطور ، تتابع أفكاره وتلاحق صوره ، تحب منه تشبيهه **للبصرة** حيث ولدت وعاشت وماتت **رابعة العدوية** ، بأنها **فينسيا العربية** ، ترفّ كالآل الذاخـر بالتهـاويل ، فى رؤى الساغبين الـلاغبين الضـاربين إليها مـن أعماق الفيافى فى قلب الجزيرة العربية ، حتى إذا بلغوها وأناخوا الإبل عند **المربد** ،دخلوا المسجد الجامع من باب البادية ، فبهرتهم دقة الأساطين وبراعة الفن ، وجلّوا بأبصارهم المغبرة بالرمال إلى النقوش المترفة ، فاستشعروا مسًا ممـا ينتظرهم على الجانب الشرقى ، حيث السفن الزاهية تنحدر من الشمال قادمة من بغداد فى نهر معقـل ، والجوارى المنشئات فى الخليج تمخر عباب نهر الأُبُلة متصاعدة فى وقار وقـد وفُرت بأثمن السلع المحَملة إليها من الهند والصين . وتلك هى **البصرة** فى العهد الـذى عاشـت فيه **رابعة** . كانـت نقلة بين البـادية والحضر ، والخشـونة الزاهدة الصلبة القاسية الإيمان ، والترف الناعم الهائم فى أوداء القداسة الشهوانية ، ومن ثم جاءت مزيجًا من هذين الطرفين المتباعدين فى تخطيطها ومساق الحياة فيها ، فكانت روحها مسرحاً لمأسـاة هذا الازدواج المتوتـر العنيف فى طبيعتها ، وبهذا الاستقطـاب طبعت نفوس ساكنيها ، ففى روح كلٍ تسكن طبيعتـان متعارضتان ، إحداهما تتلمس غـذاءها من قوت الحواس ، والأخرى تستشرف إلى قوت القلوب .

ولن تستطيع إحداهما القضاء على الأخرى بل سيظل التعـارض قويًا عنيفًا ، وفى عنفه

يقـوم ذلك التوتـر الحـى الـذى يجعل من حيـواتهم مصـدراً للتشـويق لايقل فى قيمتـه عن مذاهبهم ، فإلى جـانب الحياة اللاهية التى عمـرت بها القنوات والمتاجر ممـا كان خير إطار لقصص ألف ليلة وليلة ، كانت هناك الربُط التى تشيع فيهـا الزهادة والقداسـة ، وإلى جانب الأسواق الصـاخبة بمشاغل المادة وشئون الـدنيا كانت المساجـد والمكتبات العامة بمثـابة معابـد الفكر الرفيع ، ففى ساحـة السوق حيث ضجيج الأعمال وعقد الصفقـات واختلاط الأجناس وأسبـاب الترف ، كان يقـوم المسجد الجامع الثـانى ، فإذا تزود منْ بـالسوق من أفخم السلع أوى إلى المسجد فطاف على حلقاته ، فهنا حلقة النحويين واللغويين يحتدم فيها الجدل الصـارخ حول شـاردة من شـوارد اللغة ، قـذف بها فى جمعهم كـوفىّ جاء محَمـلاً بأسلحة أهل بلده ، وهناك مجلس **الحسن البصرى** تسوده رهبة ذلك الـزاهد الجليل وهو يلقى مواعظه الضاربة فى فياف الزهد ، فيستْدر الدمع من مآقى الحاضرين ، أو يستحيل إلى مجلس ذكر تتردد فيه الأذكار الصافية والأدعية النـاضرة ، أو تثار فيه مسائل من التوحيد سرعان مـاتشيع الحرارة فِى هذا الجو الـرقيق . فإذا ماجَنّ الليل وسكـن الأحياء وجُسْتَ فى المدينـة ، ترامـت إلى مسامعك أنغـام اللهـو العنيف فى نفس الـوقت الذى يقـرع أذنك فيـه تضرعات المتهجدين القانتين ، وهنا اللاهون يمخرون بزوارقهم الزاهية فى مياه تلك القنوات المتشابكة يعزفـون ويعربدون ، وهنـاك فى زاوية أخرى ترى العابـدين سادرين بين المقابر يستـهلمون الموت والقبر أفكاراً وموضوعـات للتأمل الحزين والعظمة البالغة والعزوف عن الدنيا . وهنا أمثال **إبن أبى عيينة** يقضون الليالى البيض فى أحضان الشـهوة الآثمة ، وهناك أمثال **رياح بن عمرو القيسى** ممن لم يكن يعرف غير البكـاء والتهجّد والتضرّع والصراخ من أعماق الهاوية إلى الله !

وبمثل هذه المقـدمة الشعـرية يستهل **الدكتور بدوى** بحثه ، ولـه دائماً مصطلحاتـه وألفاظه من مثل **التوتر الحى** ، **والذات الوجوديـة الزاخر باطنها بممكنات التفتح على المجهول** . وهو دائمًا فى كل كتاباته المبـدع ، وكان كتابه عن **رابعة** إبداعًا أيما إبداع ، ورسم صورة للبصرة لانملك ونحن نراه فيها يـؤكد على جانبى الصراع ، وعلى التناقض فى البصرة البلـد والنـاس ، إلا أن نخمن أن ذلك نفسـه هـو رأيـه أيضًـا فى **رابعة العدوية** وحياتها وجهادهـا النفسى والفكرى ، فهى عنـده الصوفيـة التى بدأت حياتها وقـد أوغلت فى الإثم

والحياة الحسية حتى التهب منهـا الجسد فتطهرت روحها فى عـذاباته ، **فهل كانت رابعة كذلك ؟ وهل كـانت فى مبتداهـا بائعـة هوى تهفو لأن تتـوب ، فلما كان أوان التـوبة أنابت وأصلحت وعـاشت متبتلة ، وصارت من أعـلام التصوف ، وصـاحبة مـدرسة فيه ، ورائدة فى مجال كانت فيه المعلمة لأفذاذ الرجال ؟ هل رابعة كذلك ؟ .**

أسئلة لابد أن تُحسَم ،لأنه لم يعـرف عن بائعات الهوى أن من الممكن أن يتبن ويبلغن فى توبتهن حد التصوف وهـذه الدرجة الرفيعة فيه ، حتى لتكون الواحـدة صاحبة مدرسة فكرية ! **وهل منهج الاحتمال والترجيح والتأويل المسرف الذى اتبعه الـدكتور بدوى هو المنهج السليم الذى يمكن الركون إليه ونحن نؤرخ لأمثال رابعة ؟** ولربما ما ألجأ **الدكتور بدوى** إلى هذا المنهـج قلة المادة التاريخيـة عن حياتها ، وتضـارب الأراء بشأنها ، ولربما أيضًا أن هذا المنهج نفسـه هو ما يناسب **الدكتور بدوى** ليطرح نظريته فى **رابعة** ، مدعمًا بها مذهبـه هو نفسه فى الفلسفة ، والملاحظ أن اختيـاره للشخصيات التى يؤرخ لها فلسفيًا هو اختيار ليس من فراغ ولكنه مقصود ، وذلك أنه من خلال هذه الشخصيات فإنه كان دائمًا يشرح فلسفتـه ويزيدهـا وضوحًا . ويبـدو أنه من اللازم قبل كل شىء أن نـزيد القارىء معـرفة **برابعة** ، بأن نـورد أقـوال المؤرخين فيهـا وفيما استحـدثتـه فى الفكـر الإسلامى ، مما يروى عنها من حكايات وأقوال ومأثورات ومحادثات مع كبار الصوفية من المشايـخ المشهود لهم بـالصلاح ، ومناقشـات مع أعيـان البصرة ومفكريها ، ممـا يجعلها شخصية أسطـورية يختلط فيها الخيال بـالواقع ، فهل يكون هذا الكتـاب الرائع **للدكتور بدوى** أيضًا كتابًا قد اختلط فيه الخيال بالواقع ؟ سنرى ..

عبد المنعم الحفنى

★★★

الفصل الأول

رابعة فى كتابات الشرق والغرب

- ١ -

فى الشرق

★★★

كان **الجاحظ** أول من كتب مؤرخًا **لرابعة** . **والجاحظ** (١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ) عاش فى البصرة فى زمن قريب من زمنها ، وله التصانيف الكثيرة ومنها **الحيوان والبيان ، والتبيين** ، وكان من أئمة الأدب ومن شيوخ المعتزلة ، وأطلق عليه بعضهم اسم معلم العقل والأدب ، ولربما سمع **الجاحظ برابعة** فى صغره ، ولربما رآها رأى العين ، ولاشك أنه سمع عنها ممن رأوها وعاينوها من المفكرين والأدباء ، وهو يذكرها فيقول : ومن النساء (يقصد من أهل البيان) **رابعة القيسية** ، ويقول فى موضع آخر : قيل **لرابعة القيسية** لو كلمنا رجال عشيرتك فاشتروا لك خادمًا يكفيك مؤونة بيتك ؟ فقالت : والله إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا ، فكيف أسألها من لا يملكها ! ويقول **الجاحظ** على لسان **سفيان الثورى** . وقلت **لرابعة القيسية** هل عملت عملاً قط ترين أنه يُقبَل منك ؟ فقالت : إن كان كل شىء فخوفى أن يُرّد علىّ . ويقول أيضًا عن نسبها وزهدها : ومن آل عتيك **بنو عدوة** ، ولهذا تسمى **العدوية** ، وأما كنيتها **فأم الخير بنت اسماعيل** وبذلك يحدد الجاحظ نسبها ، ويذكر سبب تسميتها بالقيسية مرة وبالعدوية أخرى ، ويؤكد اسم أبيها وهو إسماعيل .

★★★

وفى **طبقات ابن الملقن** يذكر أن هناك سَمِيّة **لرابعة** ، وربما يكون اسمها **رابعة** ، وهى **زوجة لأحمد بن أبى الحوارى** (١٤٨ ـ ٢٣٠ هـ) الصوفى الشامى ، واسم أبيها

إسماعيل أيضًا ، وكانت عابدة **كرابعة العدوية أم الخير بنت اسماعيل البصرية ، مولاة** آل عتيك ، وهى الصالحة المستورة من أعيان عصرها ، وفضلها مشهور ، وكانت **وفاتها سنة (١٣٥ هـ) ، ودفنت بظاهر القدس من شرقيّه ، على رأس جبل يسمى جبل الطور .**

★★★

ويذكرها **الزركلى** فى **أعلامه** فيقول : إنها **رابعة بنت اسماعيل العدوية** ، توفيت سنة (١٣٥ هـ) ، وهى **أم الخير مولاة آل عتيك** ، البصرية ، صالحة مشهورة من أهل البصرة ، ومولدها بها ، ولها أخبار فى العبادة والنُسك ، ولها شعر ،ومن كلامها : اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم . **وتوفيت بالقدس .**

★★★

وقال بن خلكان : وقبرها يزار ، وهى بظاهر القدس من شرقيه ، على رأس جبل يسمى الطور . ووفاتها سنة (١٣٥ هـ) كما فى **شذور العقود لابن الجوزى** . وقال غيره سنة ١٨٥ هـ كما فى **وفيات الأعيان** ـ الجزء الأول ص ١٨٢ ، وعند **الشريشى** الجزء الثانى ص ٢٣١ ، وفى **الدر المنثور** ص ٢٠٢ ، وفى مجلة **لغة العرب** أن للسيدة **مرجريت سميث** الإنجليزية كتابًا عن **رابعة العدوية** رجّحت فيه وفاتها سنة ١٨٥ هـ ، وقالت : إنها عاشت وتوفيت ودفنت بالبصرة .

★★★

وفى **كتاب الروض الفائق فى المواعظ والرقائق للشيخ الحريفيش** المتوفى سنة ٨٠١ هـ يقول فى المجلس السابع والعشرين . **فيما يجلو القلوب من القسوة بذكر أخبار النسوة** أن الله تعالى قال وهو أصدق القائلين ﴿ **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات** ﴾ ، وقال تعالى ﴿ **إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم**

والحافظات ، والـذاكرين الله كثيرًا والـذاكرات ، أعد الله لهم مغفـرة وأجرًا عظيمًا ﴾ ، فقَرَن الله سبحانه وتعالى ذكر النساء الصالحات بالرجال الصالحين . وللنساء أحوال وزهد وخير وصلاح كما فى الـرجال ، وفى النساء من لهن الأوراد والسيـاحات والكشف وغير ذلك من الخصوصيات التى خصهّن الله تعالى بها ، كمن مضين منهن فى الصدر الأول ، **كرابعة العدويـة ، وشعوانـة ، وريحانة ، وأم الخير** ، وغيرهن من النســاء المشهـورات وغير المشهورات . كما حُكِيَ عن رابعة العدوية ـ رحمها الله تعالى ـ أنها كانت إذا صلَّت العشاء ، قامت على سطح لها وشدّت عليهـا درعها وخمارها ثم قالت إلهى أنـارت النجوم ، ونامت العيون وغلّقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ' ثم تقبل على صلاتها فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت . إلهى هـذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعرى أقَبِلْتَ منى ليلتى فأهنأ ، أم رددتها علّى فأَعْزى ؟ فـوعزتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى ! وعزتك لو طردتنى عن بابك مابرحتُ عنه لِما وقع فى قلبى من محبتك . ثم أنشدت

يـا سرورى ومنيـتى وعمـادى	**وأنيسى وعُـدّتى ومـرادى**
أنت روح الفـؤاد أنت رجـائى	**أنت لى مـؤنسٌ وشـوقٌ كـزادى**
أنت لـولاك يـاحيـاتى وأُنسى	**مـاتشتتُ فى فسيح البـلاد**
كم بـدت مِنّـة وكم لك عنـدى	**من عطـاءٍ ونعمـةٍ وأيـادى**
حُبـك الآن بُغيتـى ونعيمـى	**وجـلاءٌ لعينِ قلبى الصـادى**
ليس لى عنـدك مـا حييت بـراحِ	**أنـت منـى مُمَكّـنٌ فى السـواد**
إنْ تكـنْ راضيًـا علىّ فـإنـى	**يـامُنى القـلب قـد بدا إسعـادى**

ثم يحكى **الحريفيش** عن قصـة لها مع **ذى النون المصرى** على لسان صـوفى يدعى **سعد بن عثمان** فيقول . إنـه كان فى تيـه بنى إسرائيل (أى سيناء) ، وإذا بشـخص قد أقبل ، فقلت يا أستاذ ! شـخص قد أتى . فقال لى انظر من هو ، فإنه لايضع أحـد قَدَمَه فى هذا المكان إلا صدّيق . فنظرتُ فإذا هى امـرأة ،فقلت إنها امرأة : فقال صِدِّيقة وربِّ الكعبة !

فابتدر إليهـا وسلّم عليها ، فقالت ما للـرجال ومخاطبة النساء ؟ فقـال أنا أخوك **ذو النون** ولست من أهل التُهَم ، فقالت : آيـة من كتاب الله عز وجل قولـه تعالى ﴿ **ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ﴾ . فقال لها صفى لى المحبة ، فقـالت : سبحان الله ! أنت عارف بها وتتكلم بلسان المعرفة وتسألنى عنها ؟ فقال لها : للسائل حق الجواب . فأنشدت تقول :

أحبـــــك حبين : حـــــبَّ الهوى ... وحبّـــــاً لأنك أهـل لــــذاكـــــا

فأمـــا الــــذى هـــو حبّ الهوى ... فـــذِكــرٌ شُغِلت بـــه عن ســـواكـــا

وأمـــا الــــذى أنت أهـلٌ لــــه ... فكشفُك الحُجـب حتـى أراكـــــا

فما الحمــــــــــدُ فى ذا ولاذاك لى ... ولكـن لك الحمــــد فى ذا وذاكـــــا

وتقول :

يـــاحبيب القلب مـــالى ســـواك ... فـــارحم اليـوم مـذنبًـا قـد أتـــاك

يـارجائى وراحتـــى وســـــرورى ... قــــد أَبَى القلبُ أن يجيـبَ ســـواكـــا

ويروى الشيخ **الحريفيش** مـا قيل من أنـه لما مـات زوج **رابعة العدوية** (كـذا !) استأذن **الحسن البصرى** فى الدخـول عليهـا هـو وأصحـابـه ، فأذنت لهم وأرخت سترًا وجلست وراءه ، فقال لها أصحـابه . إنـه قد مـات بعلك ولابد لك مـن زوج ، وقد انقضت مُدَّتك ، فاختارى مِن هؤلاء الزهّاد من شئت منهم . فقالت : نعم ، حباً وكرامة ! وسألت : من هو أعلمكم حتـى أزوجه نفسى ؟ قالـوا · الحسن البصرى . فقالت لـه · إن أجبتنى عن أربع مسائل فأنـا لك أهل ؟ فقال لها · إسـألى فأنا أجيبك إن وفقنى الله تعـالى . قالت . مـا يقول الفقيه العالم إذا أنا مُتُّ . هل خرجت من الدنيا مسلمة أم كافرة ؟ فقال · هذا غيب ، والغيب لا يعلمه إلا الله تعالى . قالت : فما يقـول إن وُضِعت فى القبر وسألنى منكر ونكير ، أفأقدر على جوابهما أم لا ؟ فقـال · وهذا أيضًـا غيب ! قالت . فإذا حُشِر الناس فى القيـامة وتطايـــرت الكتب ، فيُعطَى بعضُهم كتـابه بيمينـه ، ويعطى بعضهم كتـابه بشمالـه . أفأُعطَى كتـابى بيمينى أم بشمالى ؟ قال · وهذا أيضًا غيب ! قـالت . فإذا نودى فى الخلائق ، ففريق فى الجنة

وفريق فى العسير . فمن أى الفـريقين أكون ؟ قال لها : وهـذا أيضًا غيب . ولا يعلم الغيب إلا الله عز وجل ! فقـالت له : فإذا كان الأمر كـذلك ، وأنا فى قلق وكرب من هـذه الأربعة ، فكيف أحتاج إلى الزوج وأتفرغ له !!

وأنشدت :

راحتى يـا إخوتـــــى فـــى خلـوتى	وحبيبـــــى دائمًا فى حَضرتـــــى
لم أجـــد لى عن هـــواه عِـــوضًـــا	وهــــواه فى البرايـــــا مِحنتـى
حيثما كنت أشـــــاهِـــد حُسنَــــه	فهـــــو محرابـى إليــــه قبلتـى
إن أمـــــت وجـــدًا ومـــا ثّم رضـــا	واعَنَـــائى فى الـــورَى واشّقـــوَتى
يــــا طبيب القلـب ياكـــــل المنى	جُـــد بـــوصلٍ منك يَشفـى مُهجتى
ياســـــــرورى وحيــــــاتـى دائمًا	نشأتـى منك وأيضًــــــا نشـــوتى
قـــد هجـــرتُ الخلق جمعـــاً أرتجى	منك وصـــــلاً فهـــو أقصـى مُنيتى

★★★

وفى « إتحاف السادة المتقين فى شرح إحياء علـوم الدين للغزالى » يقول **الزبيدى** : إنها **رابـعة ابنة اسماعيل العـدوية البصرية** العابـدة رحمها الله تعـالى ، وكانـت إحدى المحبين وماتت سنـة ١٣٥ هـ ، وكان **الثورى** (يقصد سفيان) يقعـد بين يديها ويقول علّمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة ! وكـانت تقول له · نِعْمَ الرجل أنت ، لولا أنك تحب الدنيا ! وقد كان **الثورى** زاهدًا عالمًا : لكل إلا أنها كـانت تجعل إيثار كتب الحديث والإقبال على الناس من أبواب الدنيا . وقال لها **الثورى** يومًا ! لكل عَقْد شريطة ، ولكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قالت · ما عبدته خوفـًا من ناره ولا حبًا لجنته ، فأكون كالأجير السوء ، إن خاف عمل ، أو إذا أُعطى عمل ، بل عبدته حبًا له وشوقًا إليه ! وروى عنها **حماد بن زيد** أنها قالت. إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟ فكان هذا

جوابًا لأنه قال : سلينى حاجتك . وخطبها **عبد الواحد بن زيد** ، فحجبته أيامًا حتى سئُلت أن يدخل عليها ، فقالت له . ياشهوانى ! أطلب شهوانية مثلك ! أى شىء رأيت فّ من آلة الشهوة ! وخطبها **محمد بن سليمان الهاشمي** أمير البصرة على مائة ألف ، وقال : لى غلة عشرة آلاف فى كل شهر أجعلها لك . فكتبت إليه ما يسرّنى أنك لى عبد ، وأن كل مالك لى ، وأنك شغلتنى عن الله طرفة عين ! وقالت **رابعة** فى معنى **المحبة** أبياتًا تحتاج إلى شرح حملها عنها أهل البصرة وغيرهم ، منهم **سفيان الثورى** ، **وجعفر بن سليمان الضبعى** ، **وعبد الواحد بن زيد** ، **وحماد بن زيد** . وهى هذه :

أحبك حبين : حبَّ الهوى — وحباً لأنك أهل لذاكا
فأمّا الذى هو حبّ الهوى — فذِكْرٌ شُغِلتُ به عن سواكا
وأمّا الذى أنت أهلٌ له — فكشفك الحُجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولاذاك لى — ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وقد تكلم **صاحب القوت** على هذه الأبيات بكلام ساطع الأنوار ، يعرفه من رُزقه ، وينكره من حُرِمه ، ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وبحبه لما هو أهل له الحب، لجماله وجلاله الذى انكشف لها ، وهو أعلى الحبين ، فقد أشار بذلك إلى أن كلامها يدل على أن المحبة بهذا السبب أقوى الأسباب وأثبتها دواماً .

وأما **صاحب القوت** فقال . فأما قولها حب الهوى ، وقولها حب أنت أهل له ، وتفرقتها بين الحبين ، فإنه يحتاج إلى مزيد من تفاصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه، ويخبره من لم يشهده . وفى تسميته ونعت وصفه إنكار من ذوى العقول ممن لاذوق له منه ولا قدر له به ، ولكنا نجمل ذلك وندل عليه من عرفه . معنى حب الهوى أى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين ، لا من خبر وسمع تصديق من طريق النعم والإحسان ، فتختلف محبتى إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك علىّ ، ولكن محبتى عن طريق العيان فقربت منك ، وهربت إليك بك لما تفرعت لك كما قال المحب :

فَرّغتْ قلبها اشتغالاً بذكرى — وكذا كل فارغ مشغول

وعلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ **وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا** ﴾ أى ملآن بذكره حتى فاض فكادت أن تظهره فتقول هو ابنى ، فعبر عن الملء بالفراغ من ضده ، لولا أن أولينا عليه بربطنا فكظمت ، ولو لم تفعل لأظهرت ، ولو أظهرت لقتل . وأما الحب الثانى الذى هو أهل له تعنى حب التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذى الجلال . تقول ثم إنى مع ذلك لأستحق هذا الحب ولا أستاهل هل أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان ، لأن حبى لك لايوجب لك جزاء عليه ، بل يوجب علىّ مما لا أطيقه ولا أقوم بحقك فيه أبدًا ، إذا كنت قد أحببتك فلزمنى من خوف التقصير ، ووجب علىّ الحياء من قلة الوفاء ، والخوف لما تعرضت به من حبك ، إذ ليس كمثلك شىء كما قال المحب :

أصبحتُ صبّاً ولا أقول بمن ... خوفاً لمن لا يخاف من أحدِ

إذا تفكرتُ فى هواى له ... لمستُ رأسى هل طار عن جسدى

لولا أن الحب ينطق ، والشوق يقلق ، والوجد يحرق ، فالمحب لا يلام لغيبة النفس عنه وإلاّ نام ، تقول فتفضلتْ علىّ بفضل كرمك وما أنت له أهل مِن تفضلك ، فأريتنى وجهك عندك آخراً ، كما أريتينه اليوم عندك أولاً ، فلك علىّ ما تفضلتَ به فى ذاك عندى فى الآخرة ، ولا حمد لى فى ذا هاهنا ، ولا حمد لى فى ذاك هناك ، إذا كنتُ أنا وصلتُ إليها بك ، فأنت المحمود فيهما لأنك وصلتنى بهما . فهذا الذى فسّرناه هو وجد المحبين المحققين . وقد كانت تذكر الأنُس فى وَجْدها ، وترتفع إلى وصف معنى الخُلة فى قولها السائر

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى ... وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانسٌ ... وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى

ومن قولها النادر فى مقام الخُلّة ·

وتخللتَ مسلك الروح منى ... وبه سمى الخليل خليلاً

فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثى ... وإذا ما سكتُّ كنتَ الغليلاً

وقد أهّلَ لها ذلـك كل ما نقله عنهـا العلماء ووصفوهـا به ، فوصفنـا من نعت المحبين بعض ما يصلح من كلامهـا ، لأنا ظننا بقولها ذلك أن كان لها فى المحبـة قدم . ولا يسعنا أن نشرح فى كتابٍ حقيقة كشف مـا أجملناه ، ولولا أن نفصّل وصف ما ذكـرناه. ومن لم يكن من المحبين كذلك حتى لا يدل بمحبته ولا يقتضى الجزاء عليها من محبوبه ، ولا يوجب على حبيبه شيئًـا لأجل محبته ، فهو مخدوع بالمحبـة ومحجوب بالنظر إليهـا ، وإنما ذلك مقام الرجـاء الذى ضـده الخوف ليس من المحبة فى شىء ، ولا تصح المحبـة إلا بخوف المقت فى المحبة . وقال بعض العارفين ما عرفه من ظنَّ أنه عَـرَفَه ولا أَحبّه من تَوَهَّمَ أنه أحبَّه ـ وهذا كلام **صاحب القوت** .

وفى بيان جملـة من حكايـات المحبين وأقوالهم ومكاشفـاتهم يقول **الزبيدى** : وقالت **رابعة العدوية** من يدلنا على حبيبنـا . فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ولكن الـدُنيا قطعتنا عنه . ورابعة قدّس الله سرهـا كانت رأساً فى المعرفة والمحبة كما هـو مشهور من حالها ، ولا يخفى عليها مقام المعيـة ، وإنما قالت ما قالت وهى فى مقام الاستغراق الـذى هو من نتائج المحبة وغلب عليهـا الشوق إلى المشاهدة ، والمحب فى مقـام القرب قد يتطلب من يأخـذ بيده ويتعلق بالأذيـال ، فنبهتها الخادمـة على أن الوصـول إلى مقام المشـاهدة لا يكـون إلا بعد المفارقة من هذا العالم فتمتنع عنه القواطع ، فما أدق نظرها رحمها الله .

وقيل **لرابعة** كيف حبّك للرسـول ﷺ فقالت : والله إنى لأحبـه حبًا شـديدًا ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلـوقين . وفى ذلك يحكى أيضـاً عن **أبى سـعيد الخراز** قال : رأيت النبى ﷺ فى المنام فقلت : يـا رسول الله أعذرنـى ، فإن محبة الله شغلتنى عن محبتك . فقال : يا مبارك : من أحب الله فقد أحبنى .

وقيل نظرت رابعة إلى **رياح القيسى** وهو يقبّل صبيًا من قومـه ويضمّه إليه ، فقالت : أتحبه يـا رياح ؟ قال نعم . قالت : مـا كنت أحسب أن فى قلبك موضعًا فارغًـا لمحبة غيره ! فصاح رياح وسقط مغشيًا عليه .

وقال **ذو النون** بينما أسير على ساحل البحـر إذ أبصرت بجارية عليهـا أطمار شَعر ، وإذ هى ناحلة ذابلـة ، فدنوت منها لأسمع مـا تقول ، فرأيتها متصلة الأحـزان بالأشجان .

وعصفت الرياح ، واضطربت الأمواج ، وظهرت الحيتان ، فصرخت ثم سقطت إلى الأرض ، فلما أفاقت نجت ، ثم قالت : سيدى بك تقرّب المقربون فى الخلوات ، ولعظمتك سبّحت الحيتان ، والبحر الزخّار ، والقمر النوّار ، والنجم الزهّار ، وكل شىء عندك بمقدار ، لأنك الله العلىّ القهّار .

يا مؤنس الأبرار فى خلواتهم | يا خير من حلّت به النُزّال
من ذاق حبك لا يزال متيمًا | فرح الفؤاد متيماً بَلبْال
من ذاق حبك لا يُرى متبسمًا | من طول حزن فى الحشا إشعال

فقلت لها زيدينا من هذا . فقالت : إليك عنى ، ثم رفعت طرفها إلى السماء وقالت :

أحبك حبين : حب الهوى | وحباً لأنك أهل لذاكا
فأمّا الذى هو حب الهوى | فذِكرٌ شُغلتُ به عن سواكا
وأمّا الذى أنت أهلٌ له | فكشفُك الحُجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولاذاك لى | ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ثم شهقت فإذا هى فارقت الدنيا ، فبقيت أتعجب مما رأيت منها ، فإذا بنسوة قد أقبلن ، عليهن مدارع الشَعر ، فاحتملنّها فغيبنّها عن عينىّ ، فغسلنّها ، ثم أقبلنّ بها فى أكفانها فقلن لى . تقدّم فصَلّ عليها . فتقدمت وصلّيت عليها وهن خلفى ، ثم احتملنها ومضين .

★★★

وفى **رسالة القشيرى** أن **رابعة** خاطت شقًا فى قميصها فى ضوء مشعلة سلطان ، ففقدت قلبها زماناً حتى تذكرت فشقت قميصها فوجدت قلبها .

وقيل إن رجلاً قال **لرابعة** : إنى أكثرت من الذنوب والمعاصى ، فلو تبتُ هل يتوب علىّ ؟ فقالت : لا بل لو تاب عليك لتبت !

وسُئلت **رابعة** متى يكون العبد راضيًا ؟ فقالت . إذا سرّته المصيبة كما سرّته النعمة .

وفى باب **الغيرة** أن **رابعة** مرضت ، فقيل لها ما سبب عِلّتـك ؟ فقالت : نظرت بقلبى إلى الجنة فأدّبنى ، فله العتبى لا أعود !

وقيل كان **صالح المرّى** يقول كثيرًا : من أدمن قرع بابٍ يـوشك أن يُفتح له ، فقالت له **رابعة** . إلى متى تقول هذا ؟ ومتى أغُلِق هذا الباب حتى يُستفتح ! فقال صالح : شيخٌ جهيل وامرأة عَمِلَتْ !

وقيل قالت **رابعة** فى مناجاتها : إلهى ! أتحرق بالنـار قلبًا يحبك ! فهتف بها هاتف : ما كنا نفعل هكذا فلا تظنى بنا ظن السوء !

وقال بعضهم كنت أدعو **لرابعة العدوية** ، فرأيتها فى النوم تقـول : هداياك تأتينا على أطباق من نور ، مخمرة بمناديل من نور !

★★★

ومن « **تَعَرُّف الكلاباذى** » يقول : إن بعضهم ذكر المحبـة على وجهين : محبة الإقرار وهى للخـاص والعام ، ومحبة الـوجد مـن طريق الإصـابة ، فلا تكـون فيها رؤيـة للنفس والخَلْق ، ولا رؤية للأسباب والأحوال ، بل يكون مستغرقًا فى رؤية ما لله وما منه ، ولرابعة العدوية :

أحبـك حبين : حـبَّ الهوى	**وحبـاً لأنك أهـل لـذاكـا**
فأمـا الـذى هـو حب الهوى	**فـذِكـرٌ شُغِلتُ بـه عن سـواكـا**
وأمـا الـذى أنت أهـلٌ لـه	**فكشفُك الحُجب حتـى أراكـا**
فما الحمـد فى ذا ولاذاك لى	**ولكـن لك الحمـدُ فى ذا وذاكـا**

★★★

وفى كتاب « **قوت القلوب** » **لأبى طالب المكى** أن **رابعة العدوية** كانت إحدى المحبين ، وكان **الثورى** يقعد بين يـديها ويقول : علّمينا مما أفـادك الله من طرائف الحكمـة ! وكانت تقول . نِعْمَ الـرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا ! وقـد كان رحمه الله زاهدًا فى الـدنيا عالمًا ، إلا

أنها كانت تجعل إيثار كتب الحديث والإقبال على النـاس من أبواب الدنيا . وقال لها **الثورى** يومًا : لكل عبد شريطة ، ولكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقالت : ما عبدتُ الله خوفًا من الله ، فأكون له كالأمَة السوء ، إنْ خافتْ عَمِلت ، ولا حبًا للجنة فأكون كأمَة السوء ، إنْ أُعطيتْ عملتْ ، ولكنى عبدتُه حبًا له وشوقًا إليه . وروى عنها **حماد بن زيد** أنها قالت : إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملكها ،فكيف أسألها من لا يملكها ! وكـان هذا جوابًا لأنه قال لها اذكرى لى حوائجك حتـى أقضيها . وخطبها **عبد الواحد بن زيد** فقالت : يـاشهوانى ! أطلب شهوانية مثلك ! أى شىء رأيت فىّ من آلـة الشهوة ؟! وخطبها **محمد بن سليمان** أمير البصرة على مـائة ألف ، وقال : لى غلـة عشرة آلاف فى كل شهـر أدفعها إليك . فكتبت إليـه : مايسرنى أنك لى عبـد ، وأن كل ما تملكه لى ، وأنك شغلتنى عن الله طرفـة عين ! وقد قالت فى معنى المحبـة أبياتًـا تحتـاج إلى شرح ، حملها عنهـا أهل البصرة وغيرهم ، منهم **جعفر بن سليمان الضبعى** ، **وسفيان الثورى** ، **وحماد بن زيد** ،**وعبد الواحد بن زيد** .

أحبـــــك حبين : حـــــبَّ الهوى ... وحبـــــاً لأنك أهـل لـــــذاكـــــا

فأمـــــا الـــــذى هـــــو حب الهوى ... فـذِكـــرٌ شُغِلتُ بـــــه عن ســـواكـــا

وأمـــــا الـــــذى أنت أهـلٌ لــــــه ... فكشفُـك الحُجـب حتـى أراكـــــا

فما الحمــــــــــــدُ فى ذا ولاذاك لى ... ولكـن لك الحمـــــدُ فى ذا وذاكـــــا

فأما قولها حب الهوى ، وقولها حبّ أنت أهل له ، وتفريقها بين الحبين ، فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليـه من لا يعرفـه ،ويخبره من لم يشـهـده . وفى تسميته ونعت صفتـه إنكار من ذوى العقـول ممن لا ذوق له ولا قـدم له فيـه ، ولكنا نحمل ذلك ونـدل عـليه مَن عرفـه : ويعنى حب الهوى أنى رأيتك فأحببتك ، عن مشـاهدة عين اليقين لا عن خبر وسمع وتصـديق من طريق النعم والإحسـان ، فتختلف محبتى إذا تغيرت الأفعال لاختـلاف ذلك علىّ ، ولكن محبتى من طريق العيان ، فقـربت منك ،وهربت إليك ، واشتغلت بك ، وانقطعت عمّن سواك . وقد كانت لى قبل ذلك أهـواء فلما رأيتك اجتمعت كلها ، فصرت أنت كلية القلب وجملة المحبة ، فأنسيتنى ما ســواك . ثم إنى مع ذلك لا أستحق هذا الحب ، ولا أستاهل أن

أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان ، لأن حبى لك لا يوجب عليك جزاءً عليه ، بل يوجب علىّ كل شىء لك منى ، كل شىء مما لا أطيقه ولا أقوم بحقك فيه أبدًا ! إذ كنت قد أحببتك فلزمنى خوف التقصير ، ووجب علىّ الحياء من قلة الوفاء ، فتفضّلت علىّ بفضل كرمك وما أنت له أهلٌ من تفضلك ، فأريتنى وجهك عندك آخراً كما أريتنيه اليوم عندى أولاً ، فلك الحمد على ما تفضّلت به فى ذا عندى فى الدنيا ، ولك الحمد على ما تفضلت به فى ذاك عندك فى الآخرة ، ولا حمد لى فى ذا هاهنا ، ولا حمد لى فى ذاك هناك ، إذ كنتُ إنما وصلت إليهما بك ، فأنت المحمود فيهما لأنك وصلتنى بهما ! فهذا الذى فسّرناه هو وَجْد المحبين المحققين ، ظناً بقولها ذلك ، إذ كان لها فى المحبة قَدَم صِدق ، والله أعلم .

★★★

وفى **عوارف المعارف للسهرودى** يقول إن الفقير فى المدارة ربما يتعدّى حدّ الاعتدال فى وجوه المعيشة ، متطلبًا رضا الزوجة ، فهذا فتنة **عموم** حاله ، وفتنة **خصوص** حاله الإفراط فى المجالسة والمخالطة ، فتنطلق النفس عن قيد الاعتدال ، فيستولى على القلب بسبب ذلك السهو والغفلة ، ويستجلس مقار المهلة ، فيقل الوارد لقلة الأوراد ، ويتكدّر الحال لإهمال شروط الأعمال . وألطف من هذين الفتنتين فتنة أخرى تختص بأهل القرب والحضور ، وذلك أن للنفوس امتزاجًا ،وبرابطة الامتزاج تعتضد وتشتد وتتطرى طبيعتها الجامدة ، وتلتهب نارها الخامدة ، فدواء هذه الفتنة أن يكون للمتأهل عند المجالسة عينان باطنان ينظر بهما إلى مولاه ، وعينان ظاهران يستعملهما فى طريق هواه ، وقد قالت رابعة فى معنى هذا نظمًا :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدّثى وأبحتُ جسمى مَن أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانسٌ وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

★★★

وفى **طبقات الشعرانى** فصلٌ فى ذكر جماعة من عُبّاد النساء رضى الله عنهن ،منهن

رابعة العدوية رضى الله تعالى عنها ، وكانت كثيرة البكاء والحزن ، إذا سمعت ذكر النار غشى عليها زماناً ، وكانت تقول : مالى حاجة بالدنيا ! وكانت بعد أن بلغت **الثمانين** كأنها شِنّ بالٍ تكاد تسقط إذا مشت ، وكان كفنها لم يزل موضوعًا أمامها ، وكان بموضع سجودها . وكان موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها ، وسمعتْ رضى الله عنها **سفيانًا** يقول : واحزناه ! فقالت له : واقلة حزناه ! ولو كنت حزينًا ما هناك العيش ! ومناقبها كثيرة رضى الله عنها ومشهورة .

★★★★★

وفى مجموعة « **الرسائل والمسائل** » **لابن تيمية** : أن ما ذُكِر عن **رابعة** من قولها عن **البيت أنه الصنم المعبود فى الأرض** فهو كذب عليها ، ولو قال هذا من من قال لكان كافرًا يُستتاب ، فإن تاب وإلاّ قتل ، وهو كذب فإن البيت لا يعبده المسلمون ، ولكنهم يعبدون ربّ البيت، بالطواف به والصلاة إليه . وكذلك ما نقل من قولها « والله ما ولجه الله ولا خلا منه » ـ كلامٌ باطلٌ عليها . وعلى مذهب **الحلولية** لافرق بين ذاك البيت وغيره فى هذا المعنى ـ فلأى مزية يُطاف به ويُصلّى إليه وَيُحَج دون غيره من البيوت ؟ وقول القائل « ما ولجه الله » فيه كلام صحيح . وأما قوله « ما خلا منه » فإنه أراد أن ذاته حالّة فيه أو ما يشبه هذا المعنى ، فهو باطل ، وهو مناقض لقوله « ما ولج فيه » . وإن أراد به أن الاتحاد ملازمٌ له ولم يتجدد له ولوج ، ولم يزل غير حالٍ فيه ، فهذا مع أنه كفر وباطل ، يوجب ألاّ يكون للبيت مزية على غيره من البيوت ، إذ الموجودات كلها عندهم كذلك .

★★★

وفى **صفة الصفوة لابن الجوزى** : أن **رابعة** كانت كثيرة البكاء ، فقرأ رجل عندها آية من القرآن ، ذكر فيها النار ، فصاحت ثم سقطت . ودخل عليها أحدهم وهى جالسة على قطعة بورى خَلِق ، فتكلم بشىء ، فكان لدموعها وقعٌ على البورى مثل الوكف ، واضطربت وصاحت . وقيل إن أحدهم أتاها بأربعين دينارًا ، فقال لها تستعينين بها على بعض حوائجك ، فبكت ثم رفعت رأسها إلى السماء فقالت . هو يعلم أنى أستحى منه أنْ أسأله الدنيا وهو يملكها ، فكيف أنا أريد أن آخذها ممن لا يملكها ؟ وحدّث أحدهم أنه دخل على

رابعة وكانت عجوزًا كبيرة بنت ثمانين سنة ، كأنها الشنّ تكاد تسقط ، ورأى في بيتها كراخة بوارى وستر البيت جلّة وربما كان بوريًا ، وحُب ، وكوز ، ولبد هو فراشها وهو مصلاها . وكان لها مشجب من قصب عليه أكفانها . وكانت إذا ذكرت الموت انتفضت وأصابتها رعدة . وإذا مرت بقوم عرفوا فيها العبادة . وطلب منها رجل يومًا أنْ تدعو له ، فالتصقت بالحائط وقالت : ومن أنا يرحمك الله ! أطعْ ربَّك وادعه فإنه يجيب المضطر !

وقال أحدهم : دخلت على **رابعة** وهى ساجدة ، فلمّا أحسّت بمكانى رفعت رأسها ، فإذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها ، فسلمتُ ، فأقبلت علّى وقالت : يابنى ! لك حاجة ؟ فقلت : جئتك لأسلّم عليك . فبكت وقالت : سترك اللهم سترك !! ودعت بدعوات ثم قامت إلى الصلاة .

وقيل إن رياحًا القيسي ، وصالح بن عبد الجليل ، وكلابًا ، دخلوا على رابعة فتذكروا الدنيا ، فأقبلوا يذمونها، فقالت **رابعة** : إنى لأرى الدنيا بترابيعها في قلوبكم ! فقالوا : ومن أين توهمت علينا ؟ قالت : إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكتمتم فيه !

وقيل **لرابعة** : هل عملت عملاً ترين أنه يُقبَل منك ؟ قالت : إنْ كان فمخافتى أنْ يُرَدَّ علىّ !

ووصفها **سفيان الثورى** فقال : المؤدّبة التى لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها ! ولما دخل عليها مرة قال : اللهم إنى أسألك السلامة ! فبكت رابعة ! فسألها : ما يبكيك ؟ فقالت : أنت عرّضتنى للبكاء . فقال لها . وكيف ؟ قالت : أما علمت أن السلامة ترك ما فيها ، فكيف وأنت متلطخ بها ! وقالت له رابعة : إنما أنت أيام معدودة ، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل ، وأنت تعلم ، فاعملْ !

وكانت عبدة بنت أبى شوال - وهى من خيار إماء الله تعالى - تخدم **رابعة** ، فوصفتها قالت . كانت رابعة تصلّى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذاك وهى فزعة .

يانَفْسُ كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامى نــوْمةً لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور ! فكــان هذا دأبها دهرها حتى مــاتت ، فلما حضرتها الوفاة دعتنى فقالت : يــاعبدة لاتؤذنى بموتى أحدًا ، ولفينى فى جُبّتى هذه ! فلما ماتت كَفناها فى تلك الجبة وخمارِ صوف كانت تلبســه . ورأيتها بعــد ذلك بسنة أو نحوهــا فى منامى ، عليهــا حلة استبرق خضراء ، وخمار من سندس أخضر لم أر شيئًــا أحسن منه ، فقلت يــا رابعة : ما فعلت بــالجبة التى كفّناك فيها والخمار الصوف ؟ قالت . إنه والله نُــزِع عنى ، وأُبدِلتُ به هذا الذى ترينه علىّ ، وطُوِيت أكفانى وخُتِم عليها ، ورُفِعت فى عِلّيين لتكمل لى بها ثـوابها يوم القيامة . فقلت لها : ولهذا كنت تعملين أيــام الدنيــا ! فقالت : ومــا هذا عنــد مــا رأيت من كرامــة الله لأوليــائه ! وسألتُها عن **عبدة بنت أبــى كلاب** فقــالت · هيهات ! سبقتنــا واللــه إلى الدرجــات العُلَى ! وســألت : بِمَ ، وقــد كنت أنت عند الناس أكثــر منها ؟ قالت · إنها لم تكن تبــالى على أى حال أصبحتْ من الدنيا وأمست . وسألتها : فما فعل **أبو مالك** ـ يعنى **ضيغماً** ـ قالت . يزور الله عز وجل متى شاء . فقلت . فما فعل **بشر بن منصور** ، قالت : بخٍ بخٍ ! أُعطَى والله فوق ما كان يأمل ! وسألتها : مــرينى بأمر أتقرّبُ به إلى الله عز وجل ؟ فقــالت : عليك بكثرة ذِكره . أوْشَكَ أن تُغبَطى بذلك فى قبرك !

ويذكر **ابن الجوزى** عن **رابعة زوجة أحمد بن أبى الحوارى** : أن ذلك هو نسبها كما ذكره **أبو بكر بن أبى الدنيا** ، وأن **أبا عبد الرحمن السلمى** ذكر أن **رابعة العدوية** تشارك هذه فى اسمهــا واسم أبيها ، وعموم مــا يأتى فى الحديث عن زوجة أحمد أنها **رابعة** بالياء ، والعدويــة بصرية وهذه شاميــة ، ورابعة ـ بــالباء بنقطة من تحتها ـــ بصرية ، **ورابعة** ـ بنقطتين من تحتها ـ شاميــة ، والشامية يقول عنها **أحمد بن أبى الحوارى** إنها امرأته ، وكانت تقوم بالليل فانتقدها وقال : قد رأينا أبا سليمان وتعبّدنا معه ، فما رأينا من يقوم من أول الليل ! فقالت سبحان الله ! مثلك مــن يتكلم بهذا ! إنما أقوم إذا نوديت ! قال : وجلست آكل وتُذَكّــرُنى ،فقلت لها : دعينا يهنينا طعــامنا ! قالت : ليس أنــا وأنت ممن يتنغص عليه الطعام عند ذكر الآخرة ! ويقول **أحمد بن أبى الحوارى** كانت لرابعــة أحوالٌ شتى ، فمرة يغلب عليها الحب ، ومــرة يغلب عليها الأنس ، ومــرة يغلب عليها الخوف فسمعتهــا فى حال **الحب** تقول :

حبيبٌ ليس يعـــدلـــه حبيب ولا لســـــواه فى قلبى نصيب

حبيبٌ غــاب عن بصرى وشخصى ولكن فى فــؤادى مـــا يغيب

وسمعتها فى حال الأُنس تقول :

وقـــد جعلتُ فى الفـــؤاد محدثى وأبحتُ جسمى من أراد جلـــوسى

فـــالجسم منى للجليس مـــؤانس وحبيب قلبى فى الفـــؤاد أنيسى

وسمعتها فى حال **الخوف** تقول :

وزادى قليلٌ مـــا أراه مُبلّغى أللـــزاد أبكى أم لطـــول مســافتى !

أتحرِقُنى بـــالنـــار يـا غـــايـــة المنى فأين رجــــائى فيك أين مخافتى !

ويذكر **أحمد بن أبى الحوارى** أنه سمعها تقول : إنى لأضن باللقمة الطيبة أن أطعمها نفسى ، وإنى لأرى ذراعى قد سمن فأحـزن . وقد يسـألها أحمـــد : أصائمــة أنـــت اليوم ؟ فتقول : وما مثلى يفطر فى الدنيا ! ويقول : وربما نظرتُ إلى وجهها ورقبتها فيتحرك قلبى على رؤيتها ما لا يتحرك مع مذاكرتى أصحابنا من أثر العبادة ، فتقول لى : لست أحبك حب الأزواج وإنما أحبك حب الإخوان . وإنما رغبتُ فيك رغبةً فى خدمتك ، وإنما كنت أتمنى أن يأكل مالى مثلك ، ومثل إخوانك ويعلق بن أبى الحوارى : أنها كانت لها سبعة آلاف درهم فأنفقتهـا علىّ ، وكانت إذا طبخت قِـدرًا قالـت: كُلْها يـاسيدى فما نضجت إلا بـالتسبيح ! وتقول . لست أستحل أن أمنعك نفسى وغيرى ، فاذهب فتزوج . ويقـول : فتزوجتُ ثلاثًا ، وكانت تطعمنى اللحم وتقول إذهب بقـوّتك إلى أهلك ! وكنت إذا أردت جِـماعها نهارًا قالت : بالله لا تفطرنى اليوم ! وإذا أردتها بالليل قـالت : أسألك بالله لما وهبتنى لله الليلة ! وكانت **رابعة** تقول : مـا سمعت الأذان إلا ذكرتُ منـادى يوم القيـامة ، ولا رأيت الثلـج إلا ذكرت تطاير الصُحُف ، ولا رأيتُ جرادًا إلا ذكرت الحشر !

★★★

وفى كتاب **مصارع العشاق للسرّاج** : أن رابعة العدوية اعتلّت علّة قطعتها من التهجد وقيام الليل ، فمكثت تقـرأ جزءهـا إذا ارتفع النهار ، لما يُـذْكَر فيه أنـه يعدل بقيـام الليـل . وتقول : ثم رزقنى الله عز وجل العافيـة فاعتادتنى فترة فى عقب العلة ، وكنت قد سكنت إلى قراءة جـزئى بالنهار ، فانقطع عنى قيـام الليل ، فبينما أنا ذات ليلة راقـدة رأيت فى منامى كأنى رُفِعت إلى روضة خضراء ذات قصـور ونبت حسن ، فبينا أنا أجـول فيها أتعجب من حُسنها ، إذا أنـا بطائر أخضر وجـارية تطـارده ، كأنها تريـد أخذه ، فشغلنى حُسنهـا عن حُسنه ، فقلت : ما تريدين منه ؟ دعيه فوالله ما رأيت طائرًا قط أحسن منه ! ثم أخذتْ بيدى فدارتْ بى فى تلك الـروضة ، حتى انتهت بى إلى باب قصر فيهـا ، فاستفتحت ففُتِح لها ، ثم قالت : افتحوا لى باب المقة ، فُفتِح لها باب شاع منه شعاع استنار من ضوء نوره ما بين يدى وما خلفى ، ودخلتُ إلى بيت يحار فيـه البصر تلألؤاً وحُسناً ، مـا أعرف له فى الدنيـا شبيهًا أُشبهّه به فبينما نحـن نجول فيه إذ رفع لنا بـاب يُنفَذ منه إلى بستان ، فأهـوتْ نحـوه وأنا معها ، فتلقـانا فيـه وُصَفاء كأن وجـوههم اللؤلـؤ ، وبأيديهم المجـامر ، فقـالت لهم : أيـن تريدون ؟ . قالوا : نـريد فلانًا قُتل فى البحر شهيدًا . قالت : أفـلا تُجمروا هذه المرأة ؟ قالوا : قد كان لها فى ذلك حظٌ فتركته . فأرسلتْ يدها من يدى ثم أقبلت علىّ فقالت .

صـــلاتُكِ نـــورٌ والعبـــادة رقـــود ونـــومك ضـــد للصـــلاة عنيـــد
وعُمـــــرُك غُنم إن عقلت ومَهْلـــــة يسير ويفنـى دائماً ويبيــــــــــد

ثم غابت من بين عينىّ ، واستيقظت من تبـدّى الفجر ، فوالله ما ذكـرتها فتوهمتُها إلا طاش عقلى وأنكرت نفسى !

ويروى **السراج** أن **رابعة** نظرت يومًا إلى **رياح القيسى** يقبّل صبيًا من أهله ويضمه إليه ، فقالت : ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعًا لمحبة غيره ! فقال **رياح** وهو يمسح العرق من وجهه : رحمةٌ منه تعالى ذِكره ألقاها فى قلوب العباد للأطفال !

★★★

وفى كتاب **طبقات الأولياء لعبد الرءوف المناوى** : أن **رابعة العدوية** ، رأس العابدات ، ورئيسة الناسكات القانتات الخائفات الوجلات ، وكانت فى عصر **الحسن البصرى** ، وهى إحدى النساء اللائى تقدمن ومهرن فى الفضل والصلاح ، كأم أيوب الأنصارية ، وأم الدرداء ، ومعاذة العدوية ، وهى من بينهن المشهورة بعظيم النُسك ، ومزيد العبادة ، وكمال النزاهة والزهادة ، وكانت تصلى ألف ركعة فى اليوم والليلة ، فقيل لها ما تطلبين بهذا ؟ قالت : لا أريد به ثوابًا وإنما أفعله لكى يُسَرّ رسول الله يوم القيامة ، فيقول للأنبياء انظروا إلى امرأة من أمتى هذا عملها !

وكانت تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت فى مُصلاها قليلاً حتى يسفر الفجر ، ثم تثب وهى فزعة وتقول : يانفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لا قومة لها إلا لصرخةيوم النشور !

وكتب **محمد بن سليمان الهاشمى** ـ وكانت غلة مُلكِه كل يوم ثمانين ألف درهم ـ إلى كبراء أهل البصرة ، فى امرأة يتزوجها ، فأجمعوا على رابعة ، فكتبت إليه : أما بعد ، فإن الزهد فى الدنيا راحة البدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحَزَن ، فهىء مَزادَك، وقَدّم لمعادِك ، وكنْ وصىَّ نفسِك ، ولاُ تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تركتك ، وصُمْ الدهر ، واجعلْ فِطرك الموت ، وأما أنا أمثال ماخوّلك وأضعافه ، لم يسرنى أن أشتغل عن الله طرفة عين ، والسلام !

ومن **كراماتها** أن لصًا دخل حجرتها وهى نائمة ، فحمل الثياب وطلب الباب فلم يجده فوضعها فوجده ، فحملها فخفى عليه ، فأعاد ذلك مرارًا ، فهتف به هاتف : دع الثياب فإنا نحفظها ولاندعها لك وإن كانت نائمة ! وهذا تحقيق التمكين بقوله تعالى : ﴿ **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه** ﴾ .

وسئلت متى يكون العبد راضيًا فقالت : إذا سرّته المصيبة كما سرته النعمة ! وكانت شديدة الخوف جدًا ، فإذا سمعت ذِكْر النار أُغمى عليها ، وكانت تقول لو كانت الدنيا لرجل ما كان بها غنيًا ! وقيل كيف ؟ فقالت لأنها تفنى !

وقالـوا عن رابعة إنها مكثت أربعين عـامًا لاتـرفع رأسـها حياءً مـن الله ، وذمّ بعضـهم الدنيـا فقالت إن رسـول الله ﷺ قـال من أحب شيئًا أكثرَ من ذكـره ، وذكر كم لها دليل على بطالة قلوبكم إن كنتم غرقى فى غيرها لما ذكرتموها .

وقال **مالك بن دينار** : أتيتها فإذا هى تقول : كم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت تبعتها ! يا رب أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟ !

وقال لها **سفيان** . ما حقيقة إيمانك ؟ فقـالت : ما عبدته خوفًا من نـاره ولا حبًا لجنته ، فأكون كالأجير السوء ، وإنما عبدته حبًا وشوقًا إليه !

ومن مناجاتها : إلهى ! تحرق بالنار قلبًا يحبك ! فقيل لها لا تظنى بنا الظنون ! وكانت تنشد :

إنـى جعلتـك فى الفـــــؤاد محدّثـى ... وأبحتُ جسمـى مَن أراد جلـــــوسـى

فـــالجسـم منى للجليس مـــؤانسٌ ... وحبيـب قلبى فى الفـــــؤاد أنيسـى

وكانت كل ليلـة تتطيب وتأتى زوجها (كذا !) وتقـول ألك حاجة ، فإن كـان له قضى وطره ، فتطهرت ونصبت أقـدامها إلى الصباح . وكان كفنها لم يـزل عندها ، ويجدون محل سجودهـا كالماء المستنقع من كثرة البكـاء . وكانت تعيب على **سفيان** رغبته فى الـدنيا ، فلما سمعته مـرة يقول واحزناه طلبت إليـه أن لا يكذب ، وقالت · قل واقلة حـزناه ! واعتبرت أن ميل **سفيان** للحديث هو من رغـائب الدنيا عنده ، وسألته ما تعـدون السخاء فيكم ، فقال : أما عنـد أبناء الدنيـا فمن يجود بماله ، وعند أبنـاء الآخرة من يجود بنفسه . فصحّحتـــه وقالت · أخطأتم ! إن السخاء أن تعبده حباً لـه لا طلب جزاء ولا مكافأة ! وضرب رأسها ركن جدار فأدمـاه ، فلم تلتفت لذلك ، فقيل لها ما تحسـين بـالألم ؟ قالت : شُغْلى بموافقـة مراده فيما جرى شَغَلنى عن الإحســاس بما ترون . وسمعت قـارئًا يقرأ : ﴿ **إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون** ﴾ فقـالت : مساكين أهل الجنـة ! فى شغل هم وأزواجهم !! وعـاب عليها **ابن عربى** هذه المقالـة ، وقال . إنها ما عرفت ، وإنها لمسكينـة ! فإنما شُغلهم إنما هو بالله . قال : وهذا من مكر الله الخفى بالعارفين فى تجريح الغير ببادى الرأى والتعريض فى

حق نفوسهم . إنهم منزهون عن ذلك ! لكنه مع ذلك بالغ فى موضع آخر فى مدحها وقال : إنها فى رتبة الشيخ **عبد الله القادر الجيلانى** ، فقال : السائرون إلى الله بعزائم الأمور المشروعة على قسمين : طائفة ربطت همتها على أن الرسول إنما جاء منبهاً ومعلماً بالطريق الموصلة إلى جناب الحق ، فإذا أُعطى العلم بذلك زال من الطريق وخُلّى بينهم وبين الله ، فهؤلاء إذا سارعوا سابقوا إلى الخيرات ولم يروا أمامهم قَدَم أحد من المخلوقين ، لأنهم قد أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق . والطائفة الأخرى جعلوا من نفوسهم أنهم لا سبيل لهم إليه تعالى إلا والرسول ﷺ هو الحاجب ، فلا يشهدون أمرًا إلا وأقدام الرسول ﷺ بين أيديهم . ثم قال : والحالة الأولى هى حالة **عبد القادر** ، **وأبى السعود بن شبل** ، ورابعة العدوية ، ومن جرى مجراهم .

وماتت **رابعة** سنة **ثمانين ومائة** ، وقيل غير ذلك ، ومن رأى **المناوى** أن رابعة البصرية غير رابعة الشامية، وأن الأَوْلَى تسمية الثانية **رايعة** بمثناة تحتية فيفترقان ، وكانت الشامية لها أحوال شتى ، فمرة يغلب عليها الحب ، ومرة الأنس ، ومرة الخوف ، وكانت زوجًا **لابن أبى الحوارى** ، وكان إذا أراد جماعها نهارًا قالت : أسألك بالله لا تفطرنى اليوم ! وإذا أراد ليلاً قالت : أسألك بالله إلاّ ما وهبتنى لله الليلة !!

★★★

وفى كتاب **النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى يقول** : إن **رابعة** توفيت سنة ١٣٥ ، وهى **البصرية** الزاهدة العابدة ، وكانت مولاة **لآل عتيك** ، وكان **سفيان الثورى** وأقرانه يتأدبون معها ، وكانت تصلّى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر ، ثم تثب إلى الصلاة وتقول : يانفس ! كم تنامين ! وإلى كم لا تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا بصرخة !

★★★

ويذكر **ابن تغرى بردى** فى كلامه عن الذين توفوا سنة ١٨٠ ، ممن ذكر **الذهبى** وفاتهم فى هذه السنة ، أن منهم **رابعة** التى تقدّمت وفاتها فى قول غير الذهبى .

★★★

وفى كتاب **نفحات الأنس من حضرات القدس لعبد الرحمن جامى**، فى ذِكر العارفات الواصلات إلى مراتب الرجال **رابعة العدوية** رحمها الله، وكانت من أهل البصرة وكان يزورها **سفيان الثورى** رضى الله عنه ويسألها بعض المسائل، وكان من المولعين بوعظها ودعائها، وقد سألها يومًا عن خير ما يتقرب به العبد إلى الله، فأجابت: ألاّ يملكُ فى الدنيا والآخرة شيئًا سواه!

★★★

وفى كتاب **شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى** عن أخبار سنة ١٣٥ أن **رابعة بنت اسماعيل البصرية العدوية**، شهيرة الفضل، ماتت فيها، وقيل توفيت سنة **خمس وثمانين ومائة**، وقبرها على رأس جبل سمى **الطور** بظاهر بيت المقدس، وقيل رابعة أخرى غير العدوية.

★★★

وفى كتاب سير **السالكات المؤمنات الخيّرات لأبى بكر الحصنى**: أن **رابعة العدوية** منهن، وكانت عجوزًا كبيرة بنت ثمانين سنة، كأنها الشِنّ تكاد تسقط وتحتها بارية، وكانت إذا ذكر الموت انتفضت وأصابتها رعدة، وكانت إذا مرت بقوم عرفوا فيها العبادة، **ورابعة زوجة أحمد بن أبى الحوارى خادم أبى سليمان الدارانى** رضى الله عنهم بخلافها، فهذه شامية، **ورابعة العدوية بصرية**.

★★★

وفى سير **أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبى**: أنها البصرية الزاهدة العابدة الخاشعة **أم عمرو رابعة بنت إسماعيل**، ولاؤها للعتكيين، ولها سيرة فى جزءٍ **لابن الجوزى**، وقال عنها **أبو سعيد بن الأعرابى** أن الناس حملوا عنها حكمة كثيرة، وكذلك حكى **سفيان** ما يدل على بطلان ما قيل عنها وقد تمثلت بهذا البيت:

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدّثى ... وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فنسبها بعضهم إلى **الحلول** بنصف البيت ، وإلى **الإباحة** بتمامه . قلت فهذا غلو وجهل ، ولعل من نسبها إلى ذلك هو نفسه الإباحى الحلولى ليحتج بها على كفرة كاحتجاجهم بخبر « كنت سمعه الذى يسمع بـه ... » ، قيل عاشت **ثمانين** سنة ، وتوفيت سنة **ثمانين ومائة** ، وأما **رابعة الشامية** العابدة فأخرى مشهورة ، وهى أصغر من العدوية ، وقد تدخل حكايات هذه فى حكايات هذه .

★★★

وفى **شرح حال الأولياء للشيخ عز الدين بن عبد السلام** أن **رابعة** سئلت عن **المحبة** فقالت ليس للمحب وحبيبه بين ، وإنما هو نطقٌ عن شوق ، ووصفٌ عن ذْوق ، فمن ذاق عرف، ومن وصف فما اتصف ، كيف تصف شيئًا أنت فى حضرته غائب ، وبوجوده دائب . وشهوده ذاهب، وبصحوك منه سكران ، وبفراغك له ملآن ، وبسرورك له ولهان ' فالهيبة تخرس اللسان عن الإخبار ، والحيرة توقف الجبان عن الإظهار ، والغيرة تحجب الأبصار عن الأغيار ، والدهشة تعقل العقول عن الإقرار ، فما ثم إلا دهشة دائمة ، وحيرة لازمة ، وقلوب هائمة وأسرار كاتمة ، وأجساد من السُقم غير سالمة ، والمحبة بدولتها الصارمة فى القلوب حاكمة .

وارحمتاً للعاشقين ! قلوبهم فى تيه ميدان المحبة هائمه
قامت قيامة عشقهم فنفوسهم أبدًا على قدم التدلل قائمه
إما إلى جنات وصل دائماً أو نار صدٍ للقلوب ملازمه

وسئلت رابعة وهى مَنْ هى فى ميدان **المحبة** كيف سميت رابعة فأنشدت

كأسى وخمرى والنديم ثلاثة وأنا المشوقة فى المحبة : رابعه
كأس المسرة والنعيم يديرها ساقى المدام على المدى متتابعه
فإذا نظرت فلا أُرَى إلاّ له وإذا حضرت فلا أُرَى إلا معه
ياعاذلى إنى أحب جماله تالله ما أُذُنى لعذلك سامعه
لا عبرتى ترْقا ولا وصلى له يبقى ولا عينى القريحة هاجعه

وفى **شفاء السائل لتهذيب المسائل لعبد الرحمن بن خلدون** : يروى عن شطحة **لرابعة** قولها : « لو وضعت خمارى ما بقى بها أحد » ، ويفسر هذا الحال بأنها حال غيبة وسُكر ، يكون فيها الكلام بما لا يجوز الكلام فيه . كما نُقِل عن **أبى يزيد البسطامى** فى قوله : « سبحانى ما أعظم شانى » ، وقوله « جزت بحرًا وقف الأنبياء بساحله » .

★★★

وفى **تفسير المنار** عند شرحه للآية الكريمة : ﴿ **والذين آمنوا أشد حبًا لله** ﴾ (الجزء العاشر) يقول : وللصوفية الشرعيين فى حب الله منازل عالية ومقامات راسخة ومعارف واسعة فى حب كل شىء بحب الله . قالت رابعة العدوية .

أحبك حبين : حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا
فأمّا الذى هو حب الهوى ... فذِكرٌ شُغِلتُ به عن سواكا
وأمّا الذى أنت أهلٌ له ... فكشفُك الحُجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولاذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

والذى نفهمه من هذا الشعر أن الحب الأول هو **حب العبودية** ، وهو حيرة شاغلة عن كل ما عداها ، والثانى **حب المعرفة** ، وغايتها رفع الحُجُب الكثيرة المانعة من كمالها إلى التكمل بكرامة الرؤية فى الآخرة .

★★★

وفى **إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى** : أن **رابعة** سئلت. كيف رغبتك فى الجنة ؟ فقالت · الجار ثم الدار ! فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها ، بل عن كل شىء ، سواء حتى عن أنفسهم ، مثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفى هَمّه بالنظر إلى وجهه والفكر ، فإنه فى حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه فى بدنه ، ويُعبَّر عن هذه الحالة بأنه **فنى** عن نفسه ، ومعناه أنه صار مستغرقًا بغيره ، وصارت همومه هما واحداً وهو محبوبه ، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه ، لا

لنفسه ولا غير نفســه . وهذه الحالة هى التى تـوصّل فى الآخرة إلى **قرة عين** لا يُتصــوَّر أن تخطر فى هذا العالم على قلب بشر .

★★★

وفى **روض الرياحين عن مناقب الصالحين لعبد الله بن أسعد اليافعى** : يروى أن بعضهم خطر له أن يزور رابعة العدوية رضى اللــه عنها · وأنظر أصادقة هى فى دعواها أم كـاذبة ، فبينـا أنا كـذلك وإذا بفقراء قـد أقبلوا ، وجـوههم كالأقمار ، وروائحتهم كـالمسك ، فسلمـوا علىّ وسلمت عليهم ، وسألتهم من أين أقبلتم ؟ فقالـوا : ياسيـدى حديثنـا عجيب! فقلت لهم : ما هو ؟ فقالوا : نحن من أبناء التجار المولين ، وكنّا عند **رابعة العدوية** رضى الله عنها ، فقلت · وما سبب ذهابكم إليها ؟ فقالوا كنا من الملتهين بالأكل والشرب فى بلدنا ، فنُقِل لنا حُسن **رابعة العدوية** وحُسن صوتها . فقلنا لابد أن نـذهب إليها ونسمع غناءها وننظر حسنها ،فخـرجنا من بلدنا إلى أن وصلنا إلى بلـدها ، فوصفوا لنا بيتهـا ، وذكروا لنا أنها قد تـابت ، فقال أحـدنا : إن كـان قد فاتنـا حُسن صـوتها وغنـائها فما يفـوتنا حُسن جمالها ! فغيّرنا حُلّتنا ، ولبسنا لبس الفقراء ، وأتينا بـابها فطرقنا الباب ، فلم نشعر إلا وقد خرجت إلينا وتمرغت بين أقدامنا وقالت · لقد سعدت بزيارتكم لى . فقلت لها : وكيف ذلك ؟ فقالت : عندنا امـرأة عمياء منذ أربعين سنة فلما طرقتم الباب قـالتْ : إلهى وسيدى بحرمة هؤلاء الأقدام الذين طرقوا الباب ، ألا ما رددت علىّ بصرى ؟ فرّد الله عليها بصرها فى الوقت ، فعند ذلك نظر بعضنا إلى بعض وقلنا ترون إلى لطف الله بنا لم يفضح سريرتنا . وقال الذى أشار علينا بلبس الفقراء . والله لا عُدْتُ أقلع هذا اللباس من علىّ ، وأنا تائب إلى الله عز وجل على يدّى رابعة . فقلنا له : ونحن رافقناك على المعصيــة ، ونحن نوافقك على الطاعة والتوبة ، فتبنا كلنا على يديها ، وخرجنا من أموالنا جميعًا ، وصرنا فقراء كما ترى .

★★★

وفى **روضة التعريف بالحب الشريف لابن الخطيب** يقول : إن **رابعة** حين سئلت من أنت ؟ قالت · كنت أضرب الدف والطبل فما سمع غيرى ·

بـــاللــــــه يـــــا ريـح الصبـــا مُـــــــرّى على تلـك الـــــــربـــــا
وبلغـــى رســــــــــالتـــى بنصـهـــــــــا أهــل قبـــــــا
واحـــــــربـــــا وهل يــــــرد فـــــــائتــــــا واحـــــــربـــــا

★★★

وفى حلية الأولياء للأصبهانى : أن ذا النون المصرى فى تيـــه بنى إسرائيل (يعنى سيناء) مع سعيد بن عثمان وإذا بشـخص قد أقبل فقال سعيـد : أستاذ ! شـخص قادم . فقال ذو النون : أنظروا فإنه لا يضـع قدمه فى هذا المكان إلا صدّيق . فنظرت فإذا امرأة فقلت : إنها امرأة . فقـــال . صِدّيقة وربّ الكعبـة . فابتدر إليهـا وسلّم عليها ، فـردّت الســـلام ثم قالت : كلمة بـروحـها للرجل ومخاطبة النساء ؟ فقـال لها . إنى أخوك ذو النون ولست من أهل التهم . فقالت : مـرحبًا حّياك اللــه بالسلام . فقــال لها : ما حملك على الدخـول إلى هذا الموضع ؟ فقالت · آية فى كتــاب الله تعالى : ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهـاجروا فيها ﴾ فكلما دخلت إلى موضـع يُعْصَى فيه لم يهننى القرار فيه بقلب قـد أبهلته شدة محبته ، وهام بالشوق إلى رؤيته . فقال لها : صفى لى ! فقالت · يـا سبحان الله ! أنت عارف تتكلم بلسان المعرفة وتسـألنى ؟ فقال · يحق للسائل الجواب . فقــالت · نعم . المحبة عندى لها أول وآخر ، فأولها لـهج القلب بذكر المحبوب ، والحزن الدائم ، والتشوق اللازم ، فإذا صـاروا إلى أعلاها شغلهم وجدان الخلوات عن كثير من أعمال الطاعات ، ثم أخذت فى الزفير والشـهيق وأنشـأت تقول ·

أحبـــــك حبين : حـــــــب الهوى وحبــــــاً لأنك أهــل لـــــذاكـــــا
فأمّـــــا الــــذى هـــو حب الهوى فـــذِكـــرٌ شُغِلتُ بــــه عن ســـواكـــا
وأمّــــا الـــــذى أنت أهـلٌ لـــــه فكشفُـك الحُجـب حتـى أراكـــــا
فما الحمــــــــــــد فى ذا ولاذاك لى ولكـن لك الحمـــــد فى ذا وذاكـــــا

★★★

وفى **تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار** : أن **رابعة العدوية** كأنها مريم ثانية ، صافية صفية ، مستورة مخدورة ، والهة بالعشق والشوق ، ومتحرقة إلى القرب ، وقد فنيت فى الوصال فصارت مقبولة من الرجال ، ومعدودة فى صفهم ، كما قال الأنبياء إن الله لا ينظر إلى صوركم . فليست العبرة بالصورة بل بالنية ، كما قال عليه السلام يحشر الناس على نياتهم ، فإذا كنا نأخذ عن **عائشة** الصدّيقة رضى الله عنها ثلث الدين ، فمن الجائز أن نتلقى عن إحدى خادماتها وهى رابعة العدوية . فالمرأة التى تسلك الطريق إلى الله كالرجل لا يمكن أن ننظر إليها كامرأة ، وقد قيل إننا يوم القيامة إذا دعينا يا رجل فأول المتقدمين سيكون مريم عليها السلام . ورابعة كان الحسن البصرى إذا لم يرها فى المجلس حاضرة تركه ، ومعنى ذلك أن المرأة كالرجل فى التأله ، ولا تفريق فى التصوف بين المرأة والرجل ، وفى توحيد الله ماذا يتبقى من الأنا والأنت ، وكما قال أبو على الفارمذى رضى الله عنه فإن النبوة عين العزة والرفعة ، فليس فيها سمو ولا انحطاط ، والولاية كذلك . وكانت رابعة فريدة فى تعاملها مع الله ، وفى معرفتها ، وهى من كبار صوفية زمانها ، وحجة عند معاصريها ، وفى الليلة التى ولدت لم يكن من شىء فى بيت أهلها ، فأبوها فقير ، ولم يكن فى البيت قطرة سمن يدهنوا بها موضع خلاصها ، ولا ما يستنيروا به ، ولا قطعة قماش يلفون بها الوليدة ، وكانت للأب ثلاث بنات ، فسميت رابعة ، لأنها رابعتهن . وسألته زوجته أن يذهب إلى الجيران فى طلب نقطة زيت لإضاءة المصباح ، ولكنه كان قد عاهد نفسه ألا يسأل الناس شيئًا ، ولو طَلَبَ لأعطوه ومع ذلك ذهب إلى الجارة ودق الباب ، وعاد يقول إنهم لم يفتحوا له ، وبكت امرأته ، ونام الرجل فرأى الرسول ﷺ فى منامه يقول له أن لا يحزن ، فهذه البنت الوليدة هى سيدة ، وأن سبعين ألفا من أمته ليرجون شفاعتها ، وأمره أن يذهب فى الغد إلى أمير البصرة **عيسى زاذان** ، ويكتب له ورقة يقول له فيها إنه يصلى مائة صلاة فى اليوم وأربعمائة صلاة يوم الجمعة ، إلا أنه نسى الله فى الجمعة الفائتة وعليه أن يكفر عن ذلك بأربعمائة دينار من ماله الحلال يدفعها لكاتب هذه الورقة ، وعندما استيقظ أبو رابعة كتب الرسالة وأعطاها للحاجب يوصلها للأمير ، وقرأها الأمير فأمر بأن يُصَرف لكاتب الرسالة الأربعمائة دينار بالإضافة إلى ألف أخرى يقسمونها على الصوفية وأمر الحاجب أن يحضر له من أعطاه الورقة ليراه ، ولكنه استدرك وقال بل إنه هو الذى سيذهب إليه بنفسه ، لعل الله يغفر له ، وسأل الرجل أن يطلب منه أى شىء وكل ما يلزمه .

وكبرت رابعـة ، وتـوفت الأم ثم الأب وحـدثت مجاعـة فى البصرة فتمـزق شمل الأسرة وتفـرقت أخواتها ، وخـرجت رابعـة تهيم على وجهها ، حتى رآهـا من سـولت له نفسـه أن يأسرهـا ويبيعها بستـة دراهم إلى شخص أخـذها إلى بيتـه خـادمة ، وأثقل عليهـا العمل ، وخرجت يومًا تقضى مصلحة ، فتبعهـا رجل فخافت وهربت ، وضلت الطريق فارتمت على الأرض تبكى وتنـاجى ربها أنها يتيمة وأسيرة ، وأنها تـائهـة ، فهل كان ذلك لأن اللـه غير راض عنهـا وهتف بها هـاتف من أعماقهـا لا تحزنى لأنـه فى يوم الحسـاب فإن المقـربين سينظرون إليك ويحسدونك على ما أنت فيه ، وأثلج صدرها أن تسمع ذلك . فسعت إلى بيت سيدها وصارت تصوم وتخدم سيدها وتصلى لربها وتقوم الليل ، وفى ليلة استيقظ سيدها يقضى حاجة فنظر حيـث رابعة فوجدها ساجدة ، وسمعهـا تقول يا رب ! لكم يتمنى قلبى طاعتك وأن أبذل عمرى متعبدة لك ، ولو كان أمرى بيدى لما توقفت عن هذه العبادة ، ولكن أمرى بيد سيـدى ! ورآها سيدها وكأن هـالة من النور تحيط برأسهـا وهى ساجدة تصلى وتضرع إلى الله وقد ملأ النور البيت كله فتعجب وعاد مهمومًا إلى حجرته يفكر فى أمر رابعة حتى طلع النهـار فنادى عليهـا وتحدث إليها وأعتقهـا وسألها أن تبقى فى بيتـه لو شـاءت وسيكون الجميع فى خـدمتها ، وأن تنطلق حرة إذا رغبت ومتى شـاءت ، وودعت رابعة أهل البيت ورحلت وانقطعت للعبادة كما كانت ترجـو . وقيل إن رابعة كانت تصلى كل يوم وليلة ألف ركعة وأنها كانت من المواظبين على حضور مجالس **الحسن البصرى** ، وقيل فى رواية أخـرى أنها كـانت تعزف على النـاى وظلت على ذلك لفترة ، ثم تـابت وبنت لنفسهـا خلـوة انقطعت فيها للعبـادة . ويروى عنها أنها ذهبت للحج وكان لها حمار يحمل متـاعها فنفق ، وتطوع من كـانوا معها من القافلـة أن يحملوا المتاع على دوابهم ، ولكن رابعـة قالت إنها لما نوت الحج لم يكن اعتمادهـا عليهم بل على الله ، فـرحلوا وتركـوها ، فقـالت تناجى ربها : أهكذا يفعل الملوك بالمستضعفين من عبيدهم ؟ وهل من الممكن أن يسمح الله تعالى بأن ينفق حمارها ويتركهـا الجميع وحيدة فى الصحـراء ، وما كـادت تنتهى من كلامهـا حتى نهض الحمار حيًا يسعى فوضعت عليـه متاعها وسارت فى طريقها لتلحق بـالقافلة . وقيل إنها فى حجة أخـرى كانت وحـدها فى الصحراء وقـد أصابها الإعيـاء فتوجهت بنظـرها إلى السماء وقالت : يا رب أنـا لبنة والكعبة حجر ! وما أردت من حجتى أن أرى الكعبـة وإنما لأشاهد

وجهك ! فهتف بها هاتف أن ما تطلبه لمستحيل وقد سبقها إلى ذلك موسى ،، فلما تجلى الله للجبل جعله دكًا وخرّ موسى صعقًا ، وقيل أيضًا أن رابعة فى مرة أخرى انتوت الحج وهّمت به ، فرأت الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء فقالت رابعة لا أريد الكعبة ولكن رب الكعبة ! أما الكعبة فماذا أفعل بها : ورفضت النظر إليها !

وكان **إبراهيم بن أدهم** قد قضى أربعين سنة فى طريقه إلى الكعبة لأنه كان يصلى ركعتين كلما خطى خطوة . وكان يقول غيرى يسافر على قدميه وأنا أسافر على رأسى ! وبعد أربعين سنة عندما بلغ الكعبة لم يجدها فى مكانها فبكى ، وظن أن العمى قد لحقه فلم ير الكعبة فى مكانها ، وإذا بهاتف يهتف به أنه لم يصب بالعمى كما ظن ، وإنما الكعبة قد انتقلت إلى رابعة لملاقاتها ، وتأثر إبراهيم ، ثم رأى الكعبة تعود إلى مكانها ، ورأى رابعة قادمة مستندة إلى عصاها ، فقال لها . يا رابعة ! ما هذه الضجة التى صنعتيها لنفسك ! فالكل يقول إن الكعبة ذهبت للقاء رابعة ! وأجابته . وما هذه الضجة التى صنعتها لنفسك والكل يقول إبراهيم أمضى أربعين سنة حتى بلغ الكعبة ، لأن إبراهيم يتوقف كل خطوة ليصلى ركعتين ! فقال إبراهيم · نعم أمضيتُ أربعين سنة أشق طريقى فى تلك الصحراء ! وعلّقت رابعة · نعم يا إبراهيم ! أنت جئتَ بالصلاة وأنا جئت بالفقر ! وبكت . ولما زارت الكعبة عادت أدراجها إلى البصرة ، وخطر لها أن حجها ربما لم يكن صحيحًا ، فصاحت : يا رب ! وعدت بجزائين لشيئين ، للقيام بالحج ، والصبر على المصائب فإن لم يكن حجى مقبولاً عندك فما أكبر مصيبة ذلك عندى ! لكن ما جزائى على هذه المصيبة ؟

وفى السنة التى بعدها قالت : إذا كانت الكعبة قد أقبلت إلىّ فى العام الماضى فأنا التى سوف أقبل عليها هذا العام . وروى الشيخ **أبو على الفارمذى** أن رابعة فى موسم الحج قصدت إلى ناحية الصحراء وهى لا تستطيع المشى ، فما كان منها إلا أن رقدت على جانبها وأخذت تتقلب وتقطع المسافة على هذا الحال إلى أن بلغت الكعبة، وقيل بلغتها بعد سبعة أعوام . فلما بلغتها هتف بها هاتف من أعماقها أن يا رابعة ! ما الذى تقصدين إليه ؟ إن كنت تريدين الله فسيتجلى لك وعدئذ تذوبين كما يذوب الماء ! فقالت : يا رب ! وهل أقوى على ذلك وليست لى الطاقة لبلوغ هذه المرتبة وإنما لا أطلب إلا ذرة من الفقر الروحى ! فهتف بها

الهاتف يا رابعـة ! الفقر رجـاء الأولياء الـذين يخافون الله ، وقـد يحدث ولم يبق عليهم إلا شعرة ليبلغوا إلينا أن يفسد أمرهم ولا يصلون ، أما أنت فلازلت محجوبة بسبعين حجاب، فطالما لم تخرجي منها ولم تضعى قدمك بعد على الطريق إلينا فإنك لن تستطيعى الكلام فى الفقر . يـا رابعة ! انظرى إلى أعلى ! ونظـرت رابعة فرأت بحـرًا من الدم ، وقال الصـوت : يا رابعة ! إن هذا البحر من دموع الدم المسفوحة من عيون من أحبونا وسعوا إلينا ، ومنذ المقام الأول انتهى أمرهم حتى لم يعد منهم أثر لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ! وصاحت رابعة : يا رب ! أطلعنى على بعض مـا ينالـه هؤلاء العشـاق لك من السعادة ! ومـا أن انتهت من كلماتها إلا وجاءهـا الحيض ، وزالت عنها الطهارة ، ومـع ذلك هتف بها الهاتف : إن المرتبة الأولى التى يبلغها العشاق هى لأمثال من تقلب على أضلاعـه سبع سنوات كى يزور بيتًا من الحجارة ، ولما اقترب من البيت حيل بينه والوصول لشىء من نفسـه ! وكادت رابعة تيأس ونـادت : يا رب ! أنت لا تتركنى لحالى فى بيتى ولا تريـد أن تقبلنى فى بيتك ! فإما أن أعود أدراجى إلى البصرة حيث بيتى ، وإمـا أن تقبلنى فى بيتك ! ولقد بحثـتُ عنك قبل أن أدخله، ولكن يبـدو أنى لا أستحق دخوله فلم تأذنْ لى بمشاهدتك ، فلتأذن لى إذن بالانصراف ! وعادت رابعة إلى البصرة من غير أن تحج وأقامت فى خلوتها منقطعة للعبادة ولم تفكر مرة أخرى فى السفر إلى الكعبة .

ويروى أنها كـانت يومـاً فى بيتها وجـاءها صـالحان يزورانها ولم يكن لـديها سوى رغيفين همّت بأن تقـدمهما لهما ، إلا أن سـائلاً طـرق البـاب فأعطتـه الـرغيفين ، وتملّك الصالحين العجب ، وإذا بخادمة تطرق الباب وتقدم لرابعة صُرّة تفتحها لها وتقول تفضلى مع تحيات سيدتى ، وأخـرجت رابعة منها أرغفة أحصتها فوجـدتها ثمانية عشر ، فأعادتها للخادمـة وطلبت منهـا أن تقول لسيدتها أنها أخطـأت العدّ ، وذهبـت الخادمـة وعادت بالأرغفة ، فأحصتها رابعة ووجدتها عشرين ، وسألها الصالحان عن القصة ، فذكرت لهما أنها لـمّـا أعطت السائل رغيفين قالت: يـا رب ! أنت قلت الحسنة بعشرة أمثـالها ، وأنا من أجلك أعطيت الـرغيفين فاعطنى عشرة عن كل واحـد ! فلما حضرت الخادمة بـالثمانية عشر رغيفًا قالت: إما أن أحدهم أنقص العدد رغيفين ، وإما أن هذه الأرغفة ليست لى ، ورددُتها ، فلما عادت الخادمة بالعشرين عرفت أنها لى .

وحدث فى إحـدى الليالى وكـانت رابعة فى تهجـدها أن دخلت قصبـة فى عينيها دون أن تحس بها ، فقد كانت مستغـرقة فى تعبّدها بحكم إخـلاصها لله ومحبتها الشديـدة له وقد استحكمت فى قلبها . ويحكى عنها أيضاً أن لصاً دخل بيتها وسرق بعض ملابسـها ، وسعى إلى الباب يريد الخروج فلم يجده ، فوضع الملابس فوجـد الباب ، فأخذهم فَضّلَ عنه الباب ، وفعل ذلك سبع مرات ، فكلما أخذ الملابس ضلّ الباب ، فإذا أعادها وجده ، وسمع من يقول له : أيها اللص ! لا فائدة من محاولة الخروج بالملابس ، فرابعة قد أوكلت أمرها إلى الله فلا نسمح لأحد بالدخول إليها حتى إبليس نفسه ! وأنت تـريد سرقتها ونحن موكلون بالسـهر عليها فى نومها !

ويروى عنهـا أيضًا أن خادمتهـا كانت تطبخ طعـامها بالـزيت ولم يكن لديها بصل ، فاستأذنتها أن تسـأل جارتهم بعض البصل ، ولكن رابعة قالت لها أنها قد عاهدت الله أن لا تسأل أحداً شيئًا غيره منذ أربعين سنة ، فإذا لم يكن هنـاك بصل فلا لزوم له . وما كادت تنتهى من كلامها إلا وطائر يحمل بصلاً فى منقـاره ، عبارة عن قطع صغيرة يلقيها تباعًا فى المقلاة ، ولم تغتر رابعة بما رأت ، ولم تتناول من هذا الطعـام واكتفت بالخبز ، وقالت : ربما كان ما رأيته من خداع الشيطان .

ويروى عنها أيضًا أنها صعدت جبـلاً فأقبلت الغزلان تطوف بها ولا تستشعر الخوف منها ، وجاء **الحسن البصرى** فما أن رأته الغزلان حتـى فرت هاربة ، فقـال لها : يا رابعة ! أرى أن الغزلان فـرّت لما رأتنى ولم تفر منك أنت . فسألتـه رابعة عما تنـاول من طعام قبل حضوره فقال : إنه تناول طعام بالزيت ، فقالت رابعة : وكيف تريد منها إذن أن لا تفر منك وأنت تأكل من دهنها !

وفى رواية أخرى **لفريد الدين العطار** أن **الحسن البصرى** خرج إلى رابعة فى الصحراء وقد أحـاط بها سرب من الحيوان من الغزلان وغيرهـا ، فما كادت تـرى الحسن مقبلاً حتى فرّت من حولها ،فلما شاهد الحسن ذلك وفهمه استشعر الغيرة مما بلغته رابعة فسألها عن سبب فـرارها وعما إذا كانـت لم تره أهلاً لها مثلهـا . واستفسرت رابعة منـه عما أكل قبل قدومه فقال كان عندى بصل قديم وقليل من الدهن ، فأردت أن أتقّوى ببعض ذلك وهو ما

أكلتـه قبل قـدومى . وعنـدئذ صـاحت رابعـة أكلت من دهن هـذا القطيع المسكين فكيف لا تريدها أن تفـر منك ؟ ! لو كنت إنسانًا خفيف الزاد كالنملـة لما نال منك الدود فى قبرك . ولو كنت لا تأكل فى اليـوم إلا ثمرة واحدة لسلم جسمك فى القبر من الـدود فهل تريـد أن تكون طعـام الدود ؟ إن الثمـرة الواحـدة أفضل لك من أن تجعل نفسك هدف الـدود ليسمن على حسابك . ولكنك صاحب مطبخ ومرحاض ، وتـريد أن تملأ معدتك ، وما أرى إلا أنك تنوى أن تعين الدود فى طعـامه وشرابه ! وإن لم تتخلص من ذلك فلن يكون مـآلك إلا الجحيم بعد الجحيم ، بذهـابك من المطبخ إلى المرحاض . أنت لا تصبر على الطعام وتتصـور أنك بالأكل ربحـان ! ورغم مــا قيل لك من أن تطهـر روحك فـأنـت مُصر على تسمين جسـدك ! فلتكن لباطنك عليك حـرمة ، فما أرى إلا أن تعبدك فى الظاهـر فقط . لقد قال رجل أضـاء الروح فى نفسه إذا أكلت لقمة فاجلس واضرب جسدك !

ويروى أيضًا أن **الحسن البصرى** رآهـا يومًـا جالسـة على شاطىء الفـرات ، فنشر سجادته على الماء وطلب إليها أن تعبر إليه ليصليا . وتعجبت منه رابعة وقالت · شطارة أهل الدنيا تـريد أن تظهرها لأهل الآخـرة ! لو كنت تريد أن تظهر بشـىء فأظهر ما لا يستطيع النـاس فعله ! ثم ألقـت سجادتها فى الهواء وطلبت إليـه الصعـود إليها حيـث الأمان أكثـر والعيون لا ترى عجيب فعلها ! وأردفت تريد التخفيف عليه : يا سيدى ! ما فعلته أنت يفعله السمك ! وما فعلتـه أنا يفعله الـذباب ! والمهم أن نبلغ درجة أعلى من هـاتين الدرجتين اللتين بلغناهما أنا وأنت !

ويروى عن **الحسن البصرى** أنه قال أنـه بقى ليلة ويوماً فى ضيافة رابعـة يتناقشان وقـد أنستهما حرارة النقـاش أنهما رجل وامـرأة ، ولما انتهيا شَعُـر الحسن أنـه لم يكن فى نقاشه إلا فقيرًا بينما كانت هى غنية بإخلاصها .

وفى مرة أخرى توجه **الحسن البصرى** وبعض أصحابه إلى رابعة وكـان الوقت ليلاً ، فاحتاجـوا إلى مصباح وعندئذ وضعت رابعة إصبعها فى فمهـا ثم أخرجته فظل يضىء لهم مثل النور حتى مطلـع الفجر . وإن تشكك أحد فى هـذه الكرامـة فليعلم أن يد **موسى** عليه السلام كـانت تضىء بالنـور . وإن قيل إن **موسى** عليه السلام كـان نبيًا ورابعـة ليست

كـذلك ، فالجواب أن من يقـوم بأوامـر الله على لسـان أنبيـائه إنما يشارك فى قـدرتهم على تحقيق المعجزات وإذا كانت للأنبياء معجزات فللأولياء كرامات ، وهى حقيقة أكدها رسول الله ﷺ حين قال : « من رد دانقًا من الحرام فقد نال درجة النبوة » .

ويروى أن رابعة أرسلت يوماً إلى **الحسن البصرى** ثلاثة أشياء : قطعة شمع ، وإبرة ، وشعـرة ، وطلبت إليه أن يشتعل كـالشمعة فيضـىء للناس ، وأن يبـدأ بالتجـرد ثم يعمل كالإبـرة ، فإن فعل ذلك فإن مآلة أن يصير نحيـلاً كالشعرة . وتلك نصيحتهـا له إن أراد ألا يذهب جهده سدى .

ولما سـألها **الحسن البصرى** أن تتزوجه ردّت عليه بـأن الزواج ضرورى لمن يكون له الخيار فى أمـر نفسه ، وهى لا خيار لها فى نفسهـا ، فهى لربها ، وفى ظل أوامـره ، ولا قيمة لشخصها . وسـألها الحسن كيف بلغت هذه الدرجة فأجابت بفنائى بالكلية . وطلب إليها أن تخبره بشىء مما ألهمتـه ، فحكت أنها ذهبت إلى السوق تبيع الحبال فباعتهـا بمثقالين من ذهب لتحصل على الطعام ، فجعلت قطعـة فى كل يد لأنها لو أمسكت بهما معًا فى يـد واحدة فربما تطمع وتضل الطريق القويم . وقال لها **الحسن** أيضاً . لو أنى كنت فى الجنة بعيدًا من وجه اللـه مقدار نَفَس لبكيت إلى درجـة تُشفق علىّ الآخرين . وردت رابعـة بأن من يهمل فى الدنيا أو يسبح بحمد الله وهو يبكى ، فذلك هو نفسه ما سيكون عليه حاله فى الآخرة .

وسُئلت رابعة لماذا لا تتزوجين ؟ فقالت . إنها مهمومـة بثلاثة أشياء ، وأن من يخلصها من همومها تتـزوجه . أولها . هل إذا مت أأستطيع أن أتقدم بإيمانى طاهـرًا ؟ والثانى . هل سأُعطَى كتابى بيمينى يوم القيامة ؟ والثالث : إذا كنت يوم البعث وسيق أصحاب الميمنة إلى الجنة ، وأصحاب المشأمة إلى النار ، فمن أى الفريقين سأكون ؟ ورد عليها الجميع لا نعرف جوابًا لما تسألين عنه . فقـالت · والأمر كذلك ، وأنا مهمومة بما ذكـرت، فكيف تريدونى أن أتزوج وأتفرغ للزوج ؟

وسُئلت رابعـة من أين أنت ؟ فقالت مـن العالم الآخـر ! وإلى أين تذهبين ؟ فقـالت : إلى العالم الآخر ! ومـاذا تفعلين فى هذه الدنيا ؟ فقـالت : أعبث بها .!وكيف تعبثين بها ؟ فقالت : آكل خبزها وأعمل عمل الآخرة !

وقيل لها كذلك أنها بـارعة فى الكلام فهلاً عملتْ حـارسة لرباط ؟ فأجـابت : إنها فعلاً حارسة رباط ، فهى لا تترك شيئًا من خارجها يدخل إلى داخلها ، ولا شيئًا من داخلها يخرج إلى خـارجها . ويسألـونها فهل تحبين اللـه ؟ فقـالت : نعم أحبه حقًـا وصـدقًـا . فقالـوا : والشيطـان هل تكرهينـه ؟ فـردّت أن حبـها للـه قد منعهـا عن أن يشتغل قلبهـا بكراهيـة الشيطان .

ويروون أن رابعة رأت الرسول عليه الصلاة والسلام فى المنام يسلّم عليها ، وسألها يا رابعة هل تحبيننى ؟ فأجابته مستفهمة وهل هناك من لا يحبك ؟ وقالت إنما حبى لله قد ملأ قلبى فليس منه مكان لأن أحب غيره أو أكرهه !

وقالـوا لها : هل ترين من تتعبدين لـه ؟ فأجابت : لو لم أكن أراه لما عبدتـه . ويروون عنها أنها كـانت تبكى باستمرار وفَسرت ذلك بخـوفها من أن يقال لها فى آخـر الأمر أنها لا تستحق أن تمَثُلُ فى الحَضْرة الإلهية . وسألوها : فهل تقبل توبة التائب ؟ قالت : إن الله إن لم يَمُنّ عليه بالتوبـة فلن يتوب ، فإذا تاب عليه فمعنى ذلك أن توبتـه مقبولة . ومن أقوالها أن المقـامات فى الطـريق إلى اللـه يعسر التمييز بينهـا بيقظـة القلب ، فإذا استيقظ القلب رأيت بعيونـه الطريق ، واستطعت أن تصل إلى مـا تنشد من مقـامات . وقالـت : من فوائد العلم الروحانى أنه يصرف قلبك عن المخلوق إلى الخالق ، لأن المعرفة هى المعرفة بالله .

ويروى عنها أنها رأت رجلاً قد عصب رأسه فسألته عن ذلك ، فردّ عليها بأنها توجعه . فسألته عن عمره فقـال : عمرى ثلاثون سنة ، فسألته : وخلال ذلك هل كنـت غالبًا مريض أو مُعافى ؟ فقـال مُعافى . فقالت : فهل كنت تعصب رأسك وأنت معـافى علامة نعمة العـافية عليك حتى تشكو الله تعالى الآن بسبب وجع يوم وتعصب رأسك هكذا ؟!

وقيل إن رابعة كانت تعتزل الناس فى الصيف وتلزم بيتها لا تفارقه ، وعاتبتها خادمتها وطلبت إليها أن تخرج لتشهد قـدرة الله فى خلقه ، فأجابتها بـلا أدخلى أنت واشهدى القدرة نفسها . إن عملى أن أشاهد هذه القدرة .

وقيل إن رابعــة صامت فى إحــدى المرات سبع ليالى وسبعــة أيام على التــوالى ، فلم تكن تأكل شيئاً ولا تنــام فى الليل ، وانقطعت للعبادة وفى الليلــة الثامنــة وقد شق عليهــا قالت فى نفسها إلى متى هذا العذاب ! فسمعت لتوها صــوت الباب ، فلما فتحت ناولها أحدهم طعاماً فى صحن فأخذته ووضعته لتوقد المصباح ، فجاء قط وأكل ما فى الصحن ، وتبينت رابعة ما حدث ، فقالت أفطر على حبة ماء ، وذهبت لتحصيل الماء ، فانطفأ المصباح وسقطت جرة الماء من يدها ، فصرخت يا رب ! ماذا تريد بهذه المسكينة ! فسمعت هاتفاً يقول لها : يا رابعة ! لو شئت أعطيناك الــدنيا ، ولكن فى المقــابل ينبغى أن تنزعى من قلبك حبك للــه ، لأن الحب لله وللدنيــا لا يجتمعان ! وتقــول رابعة : فعنــدما سمعت ذلك نــزعت عن قلبى كل حبٍ للــدنيا وللدنيــويات ، ومضت لى الآن ثــلاثون سنــة لم أصل فيها للــه دون أن أردد على نفسى أن صلاتى هــذه هى آخر صلاة لى ، ولم أتوقــف للحظة طوال ذلك أن أدعو اللــه أن يغرقنى فى حبه ، فلا يشتغل قلبى بحب آخر خلاف حبه .

وفى رواية ثانية **لفريد الدين العطار** : أن رابعة رغم أنها كانت صاحبة مقام وواصلة ، فقــد كــانت طوال الأسبــوع لا تنقطع عن الصيــام والصــلاة ، حتى إذا اشتــد بها الضعف وخذلتها ساقها واشتدت بها أوجاع جسدها ، اضطرت إلى تناول شىء من الطعام والشراب وفى إحدى المرات وكــانت آلامها مضاعفــة وفى قلبها حسرات ، أوقدت المصباح فجــاءت قطة وقلبت الطعام ، فــذهبت رابعة تشرب من الكوز فــوقع من يدها ، فنــاحت من قلبها واشتعل كبدها الظمآن ، واحترّت واستشعرت كأن الدنيا مشبوبة بالنار ، ومادت بها الأرض ودارت رأسها وصــاحت. يا رب ! ما هــذا ! وماذا يُراد بى ؟ وجــاءها الجواب لو شئت يــا رابعة أن يأتيك الرزق معلومًا لكان لك ذلك ، إلا أنه فى المقابل لن تستشعرى الحزن الذى اختزنتيه فى قلبك كل هذه السنين ، ففكرى لأن الاشتغــال بى وبالدنيا لا يجتمعــان فى صدر واحد ، فإن تعلقت بى فاتركى التعلق بالدنيا بــالكلية ، ولن يكون عشقك لى خالصاً حتى تتخلصى من إقبالك على الدنيا، ولن تأتيك محبتى دون مقابل!

وكانت رابعــة كثيرة البكاء والنواح ومــا من سبب لذلك من ألم أو وجع . وسألــوها عن ذلك فقالت : إن علّتها التى تتــوجع منها ما من دواء لها سوى مشاهدة اللــه تعالى . وأن ما يعينها على احتمال عِلّتها إنما هو رجاؤها فى أن يتحقق لها ذلك فى الآخرة .

وكان زوارها من الصالحين كثيرين ، وسألت مرة بعضهم عن سبب عبادته الله فقال أحدهم · إننا نعبده خوفًا من النار . وقال آخر : بل نعبده خوفًا من النار وطمعًا فى الجنة . وقالت رابعة : ما أسوأ أن يعبد العابد الله رجاء الجنة أو مخافة النار ! وتساءلت: إذا لم تكن هناك جنة ولا نار ، أفما كان الله يستحق العبادة ؟ وسألوها : فلماذا تعبدين أنت الله ؟ فقالت . إنما أعبده لذاته. أفلا يكفينى إنعامه علىّ بأنه أمرنى أن أعبده ؟

وذهب بعض الصالحين لزيارتها ، وشقّ عليهم أن يروها فى ثياب بالية ، فعاتبوها بدعوى أن ما عليها إلا أن تطلب العون وسيقدمون لها ما تريد ، فقالت . إنها لتخجل أن تسأل الناس من متاع الدنيا لأنهم لا يملكونها ، وإنما هى عارية فى أيديهم ! واستحسنوا ما هداها الله إليه من جواب وسألوها : كيف تحققت لك هذه المرتبة الرفيعة وهى المرأة ولم يسبق أن بلغت امرأة مثل ذلك من قبلها ؟ فكان جوابها أنها لم تغتر لذلك ، ولم تتكبر ، ولم تدع الألوهية ، وذلك شأن النساء العابدات عمومًا .

ومرضت رابعة يومًا فسألوها عن ذلك فقالت كنت فى الفجر ، فاشتقت أن أرى الجنة ، فأصابنى الله المحنة لأتبين من أنا فلا تشتط بى الأشواق . ويروى الحسن البصرى عنها أنه ذهب يعودها يومًا فرأى قبل أن يدخل إليها تاجرًا وقد جلس يبكى ، فلما سأله عما يبكيه قال إنه جاء ليعطى رابعة هذا الكيس من الذهب ولكنه يخشى أن ترده عليه ، ورجاه أن يتوسط له عندها فى ذلك . ودخل الحسن عليها وقال لها مقالته ، فما كاد ينتهى منها إلا ونظرت إليه بجنب عينيها وذكّرته بأن الله الذى يرزق من يسبّه ، ألا يرزق من يحبه ؟ وقالت له إنه منذ أن عرفت الله لم تتوجه إلا له ، فكيف لها أن تقبل مالاً من رجل لا تعلم إن كان هو حصّله من طريق الحلال أم الحرام ؟ وروت له أنها فى يوم من الأيام وضعت فى مصباحها بعضاً من الزيت من بيت السلطان ، ورَفَت على ضوئه أمزاق ثيابها ، فاغتّمت وأظلمت أيامها ، ولم يتّور الله عليها إلا عندما أعادت الأمزاق إلى ثيابها التى رَفَتْها فى نورٍ غير نور الله . وطلبت من الحسن أن يذهب إلى التاجر ويعتذر له عن قبول المال .

وانهار بيتها واشتراه منها أحد التجار بألف درهم ذهب ، وببيت كانت حوائطه تزينها التصاوير ، فظلت تتأملها لفترة وقد استغرقتها أعاجيبها ، فلم تتمالك إلا أن هتفت بالتاجر

تعيد له دراهمه والبيت ، معتذرة بأن قلبها قـد يتعلق بما فيه فلا تستطيع من بعد أن تشغل نفسها بعمل الآخرة فهى قـد نذرت نفسها لعبادة اللـه ، وكل ما ترجوه هـو أن تتفرغ تماماً لذلك .

وزارها **عبد الواحد بن زيد وسفيان الثورى** يومًا ، فأصابهما الحزن لما وجداها فيه من أوجاع ، وطلب إليها سفيان أن تدعـو ربها يخفف عنها ، فسألته يا سفيان : فمن رزقنى بهذه الأوجاع ؟ فأجـاب بأنه اللـه . فقالت : فإذا كانت هـذه هى مشيئته فكيف أتـوجع إليه وأشكو ضد إرادته ! وسألها سفيان مرة عما يتمنـاه قلبها ، فأجابته متسائلة : كيف تسنى لك وأنت عارف أن تسـأل عن ذلك ! يعلم الله عنى أنى أتمنى البلح منـذ اثنتى عشرة سنة ، وهو فاكهة ليست نادرة بالبصرة ، ومع ذلك لم أطعمه حتى اليوم ، لأنى لست إلا واحدة من عباد الله ، ولا أتصرف كما يتمنى قلبى لأنى لو أردت ولم يرد الله فما جدوى ذلك ؟ وسألها سفيان أن تحدثه عما تراه فيه ما دام هو لا يستطيع أن يحدثها عن نفسها ، فقالت له . أنت على ما يـرام لولا أنك تميل لهذه الدنيـا . وعندئذ بكى سفيـان وتمنّى لو يرضى عنـه ربه ، فأنّبته رابعة لتمنّيه أن يَرضَى عنه الله دون أن يفعل ما يرضى عنه به .

ويُروىَ أن **مالك بن دينار** ذهب إلى رابعة زائرًا ، فشاهدهـا تشرب من جرة مكسورة ، وفراشها مبسـوط على الأرض ، وقد اتخذت لها وسادة من اللّبِن ، فقـال لها محسورًا أن له معارف أغنياء، ويمكنـه أن يسألهم شيئًا لها ، فعاتبته لما قـال ، وذكّرته بأن اللـه هو الذى يرزقهـا ويرزقهم . أمَن يـرزق الأغنياء لا يرزق الفقـراء ؟ وإذا كانت هـذه إرادته فى فليس بوسعى إلا أن أرضى بما حكم .

وقيل إن **مالك بن دينـار والحسن البصرى وشقيق البلخى** ذهبوا لزيـارة رابعة ، فكان حديثهم حول الإخلاص ، فقال الحسن إن من لم يصبر على ضرب مولاه ليس بصادق فى دعواه ، فاستدركت رابعة عليه وقـالت. هذا غرور . وقال شقيق البلخى. إن مَن لم يشكر على ضرب مولاه هو الذى ليس صادقًا . واستـدركته رابعة وقالت . هناك من هو أفضل من ذلك . فقال مالك : إن من لم يتلذذ بضرب مولاه هـو غير صادق . وهتفت رابعة : هناك أيضًا من هـو أفضل من ذلك . فسألـوهـا عن ذلك فقـالت : ليس بصـادق فى دعـواه من لم ينس

الضرب فى مشاهدة مولاه ، مثل نسوة مصر اللائى لم يلحظن أيديهن تقطع عندما رأين وجه يوسف !

وزارها أحد العلماء وأخذ يتحدث عن شرور الدنيا ، فقالت له رابعة إنه لابد يحبها لأن من يحب شيئًا يكثر من ذكره ، ومن يريد لو يشترى ثيابًا فإنه لابد أن يكثر من الحديث فى الثياب ، وأنهلو تجرد حقًا من كل ما يتصل بالدنيا لم يكن ليهتم منها لخيراتها أو شرورها .

وقيل إن **الحسن البصرى** ذهب إليهايومًا عند صلاة الظهر ، فتحدثا عن المعرفة بالله ، وكانت قد وضعت على النار قِدرًا فيه شىء من اللحم ، واستحسنت رابعة الحديث على أن تلتفت لطهو اللحم ، ولم توال النفخ فى النار ، وجاءت صلاة المغرب ثم صلاة العشاء ، ولمَّا فرغا منها ذهبت رابعة تحضر ماء وخبزًا جافًا ، وأفرغت ما فى القدر فكان اللحم قد طهى بقدرة الله . ويقول الحسن : فأكلت وكان للأكل طعم لم أتذوق مثله .

ويحكى **سفيان الثورى** أنه كان عند رابعة ذات ليلة فصلت حتى انبلج الفجر ، وصلى هو كذلك ، وفى الصباح وجدها تدعوه لصيام اليوم شكرًا لله على ما هيأ لهما من الصلوات تلك الليلة . ويحكى سفيان أنها كانت تنادى ربها ملهوفة أنه لو بعث بها إلى النار لأذاعت سرًا يباعد بينها وبين النار بألف عام . وكانت تقول يا رب ! كل ما كتبته لى من خير فى الدنيا فاعطِه لأعدائك ، وكل ما كتبته لى فى الجنة فامنحه لأصدقائك ! لإنى لم أطلب إلا وجهك ! وكانت تقول : يا رب ! لو كنت أعبدك مخافة النار فاحرقنى بها ! ولو كنت أطمع فى الجنة فلتحرمنى منها ! وإن كنت لا أعبدك إلا لوجهك فلا تحرمنى مشاهدته !

ويروى أنها قالت يا رب لو أرسلتنى إلى النار يوم القيامة فسأصرخ مولولة يا رب ! يا من أحببته كل هذا الحب ! هل ذلك ما تعامل به أحباءك ؟ ! ويروى أن هاتفًا هتف بها لاتظنى هذا الظن السوء بالله يا رابعة ، لأنه أعدّ لك بين المؤمنين مقاماً تستطيعين فيه أن تبوحى بأسراره . وكانت رابعة إذا صلّت سألت الله أن يصرف عنها الوساوس ، وأن يتقبل صلاتها مع ذلك إن خالطتها الوساوس .

وعندمـا قاربت الموت جلس حولها بعض الصـالحين ، فطلبت منهم أن يتركـوها لحالها ليفسحوا المكـان لرسـل الله ، فلما خـرجوا سمعوهـا تتلو الشهـادة ، فلما لفظت أنفـاسها تجمعوا حولها وغسّلوها وصلّوا عليهـا ودفنوها . ورؤيت في المنام فسئلت عن جوابها لمنكر ونكير ، فقالت إنهم أتيـاها وسألاهـا مَنْ ربك ، فطلبت إليهما أنَ يعودا أدراجهما إلى حضرة الله تعـالى وينقلا عنها أنها لم تنس اللـه مرة حتى يبعث إليهـا بمنكر ونكير ويسألانها عن ذلك .

وزار **محمد بن أسلم الطوسى** ، **ونعمى الطرطوسى** قبر رابعة ، فسألاهـا عنده أين هى الآن وهى التى تباهى بأنها لم تنحن للدنيا ولا لـلآخرة ، وهتف هاتف من قبرها بأن ما هى فيـه خير ، وأنها لم تفعل إلا ما كـان ينبغى أن تفعلـه ، وأن الطريق الـذى اتخذته هـو الطريق الصحيح ، والله وحده أعلم .

★★★

وفى **دائرة المعارف للبستـانى** أن رابعـة هى **أم الخير بنت اسماعيل العـدويـة** ، البصرية مـولاة آل عتيك ، الصالحة المشهورة بـالعبادة والتقوى وكثرة الصـلاة والصوم ، وكانت من أعيان أهل عصرها فى ذلك ، قيل كانت تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعـة خفيفة حتى يسفر الفجر فتنهض فزعة وتقـول : يا نفس ! كم تنامين وإلى كم تقومين ، يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا بصرخة يوم النشور ! وكان هذا دأبها حتى ماتت وكانت تقـول فى مناجاتها : إلهى ! أتحرق بالنـار قلبًا يحبك ! قيل فسمعت مرة هاتفًا يقول : ما كنا لنفعل ذلك ! وكانت كثيرة البكاء والحزن ، وإذا سمعت ذكر النار غشى عليها زماناً . وكانت تـرد كل ما يعطيها الناس وتقول : مالى بالدنيـا حاجة ! وكان كفنها لم يزل مـوضوعًا أمامهـا ، وموضع سجودهـا كهيئة مستنقع لما يجرى من دموعهـا ، وكانت تقول . ما ظهر من أعمالى فلا أعده شيئًا . وتقول : اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم ! وكانت وفاتها سنة ١٨٥ هـ ، وقيل غير ذلـك ، وعمرها فوق الثمانين ، وقبرها فى رأس جبل طور شرقىّ القدس ويزار . ذكرها **بن خلكان والشعرانى** وغيرهما من الأئمة وأوردوا لها عدة مناقب ، وفى بعض الـروايات أنها تابت على يد **ذى النون المصرى** وذلك أنها كانت فى

سفينة مع جماعة يشربون الخمر ، فاتفق ركوب **ذى النون** تلك السفينة لغرض له فى بحر النيل ، فطلبت إليه رابعة على سبيل التهكم أن يسمعهم شيئاً من غنائه كما أسمعوه ، فأنشد :

أحسن من قينةٍ ومزمار	**فى عشق نغِمه القارى**
يا حسنه والجليد سمعُه	**بطيب صوتٍ ودمعه جارى**
وخده فى التراب منعفرٌ	**وقلبه فى محبة البارى**
يقول ياسيدى وياسندى	**أشغلنى عنك ثقل أوزارى**

وكانت بذلك توبة رابعة على يده . ولكن يظهر أن هذه القصة موضوعة لبعد العهد بين ذى النون ورابعة كما يُعرَف مِّن تاريخ وفاتها .

★★★

وفى **دائرة معارف القرن العشرين** أن رابعة هى أم الخير بنت اسماعيل العدوية البصرية التقية المشهورة ، كانت من أكابر أهل عصرها . قال عندها **سفيان الثورى** · واحزناه ! فقالت : لا تكذب بل واقلة حزناه ، ولو كنت محزونا لم يتهيأ لك أن تتنفس ، وأورد لها السهروردى فى كتاب عوارف المعارف قولها :

وقد جعلتُ فى الفؤاد محدّثى	**وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى**
فالجسم منى للجليس مؤانسٌ	**وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى**

وتوفيت سنة ١٣٥ هـ وقيل سنة ١٨٥ هـ .

★★★

وفى **دائرة المعارف الحديثة** · أن رابعة صوفية من القرن الثانى الهجرى ، وهى **أم الخير بنت اسماعيل العدوية** ، نسبة إلى قبيلة **بنى عدى** ، ولدت بالبصرة حوالى عام ٩٥

هـ ـــ ٧١٣ م ، وكانت جارية وأُعتقت ثم انقطعت إلى العبـادة بعد مرض بَرَأت منـه ، فكانت تلبس الصـــوف الخشن وتصلى وتبتهل الليل كلـــه ، ومن معـاصريها بـــالبصرة **سـفيان الثورى ، ومالك بن دينار** ، وتوفيت فى سن **الأربعين** .

★★★

وفى **دائرة المعارف الإسلامية** أنها : ولية متصـوفة بصرية مشهـورة ، وهى مولاة آل عتيك وهم قبيـــلة من قيس بن عـــدى تعرف أيضًا **بالقيســـية** ، ولدت عـــام ٩٥ هـ (٧١٣ / ٧١٤ م) ، أو عام ٩٩ هـ ، وتوفيت بالبصرةودفنت فيها عام ١٨٥ هـ (٨٠١ م) . وقد سُجّلت لها أبيات من الشعـر قليلة ، وذكرها معظم كتّاب الصوفيـة وأصحاب طبقات الأولياء . ولقد ولدت فى بيت فقير وأُسرت وهى بعد طفلة ، ثم بيعت ، بيد أن صلاحها أكسبها حـريتها ، وانصرفت إلى الإنقطـاع عن الدنيـا وصـدفت عن الزواج ، وأقـامت أول أمرهـا فى البـادية ، ثـم انتقلت إلى البصرة حيث جمعت حـولها كثيراً من المريدين والأصحـاب الـذين وفدوا عليها لحضور مجلسها وذكرها لله والاستماع إلى أقوالها ، وكان من بينهم **مالك بن دينار** ، والزاهد **رياح القيسى** والمحدّث **سفيان الثورى** ، والمتصـوف **شقيق البلخى** . وكانت حيـاتها عكوفًا على الزهد وانقطـاعاً عن أسباب الحياة الـدنيا . وروى أنها لما سئلت لماذا لا تطلب من أصدقائها العون أجابت · إنى لأستحى الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها ؟ وقالت لصــديق آخر : إن الله تعالى هو الذى يـرزقنى ويرزقهم (أى الأغنياء) . أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء ؟ فإذا كانت هذه مشيئته فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا ! ونُسبـت إلى رابعة كرامات شأنها فى ذلك شأن غيرهـا من أولياء المسلمين ، فقد كان الطعام يأتيهـا بوسائل خارقـة فتُقرِى به ضيوفهـا وتسد رمقها ، ونفق بعير لها وهى تقوم بفـريضة الحج فرُدتْ لـه الحياة ليقوم بخـدمتها ، ولم تكن فى حاجـة إلى مصباح لأن النور كـان يشع من حولها ، وقـد روى أنه لمّا حضرتها الوفـاة قالت لأصحـابها . انهضوا واخرجوا ودعوا الطـريق مفتوحة لرسل الله تعالى ! ـ فنهضــوا جميعًـا وخرجوا فلما أغلقوا الباب سمعـوا رابعة وهى تقـول الشهادة فأجـابها صوت · ﴿ **يا أيتهـا النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى إدخلى جنتى** ﴾ (سورة الفجر الآيات ٢٧ ـ ٣٠) . ورؤيت رابعة فى المنام فسئلت بماذا أجابـت منكرًا ونكيرًا ، فقالت . أتانى منكر

ونكير فسألانى من ربك فأجبت . أيها الملكان ! إذهبا وقولا لحضرة الله تعالى أنت تأمر بسؤالى أنا المرأة العجوز بين هذا العدد من عبيدك ، أنا التى لم أعرف غيرك ؟ أفنسيتك مرة حتى تبعث إلىّ بمنكر ونكير يسألاننى ؟

ومن بين دعواتها دعاء اعتادت أن ترردده بالليل من فوق سقف لها . إلهى ! أنارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلّقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ،وهذا مقامى بين يديك ! ـ ومن دعواتها أيضًا . إلهى ! إذا كنت أعبدك خوفًا من نارك فاحرقنى بنار جهنم ، وإذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك ! ـ وقالت فى التوبة ـ وهى أول مقامات الصوفية ـ مجيبةً من سألها : هل لو تبتُ يتوبُ علىّ ؟ فقالت لا ! بل لو تاب عليك لتبت ! ـ وكان من رأيها أن **الشكر** يكون على رؤية المنّان لا عن منته . ولما طُلب إليها فى يوم من أيام الربيع أن تخرج لتتأمل اثار قدرة الله قالت لخادمتها : بل ادخلى أنت وتعالى تأملى القدرة فى نفسها ، وأضافت « إن مهمتى أنا أن أتأمل القدرة ! ـ ولما قيل لرابعة ما تقولين فى **الجنة** قالت الجار ثم الدار ! ـ وقد علّق **الغزالى** على ذلك بقوله : كل من لم يعرف الله فى الدنيا فلا يراه فى الآخرة ، وكل من لم يجد لذة المعرفة فى الدنيا فلا يجد لذة النظر فى الآخرة ،إذ ليس يُستَأنف لأحد فى الآخرة ما لم يصحبه فى الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع (الإحياء الجزء الرابع ص ٢٦٩) ، ويظهرنا على انقطاعها عن الدنيا قولها لمن سألها من أين أتيت ؟ قالت : من العالم الاخر . وإلى أين تذهبين ؟ قالت : إلى العالم الآخر ! وماذا تفعلين فى هذه الدنيا ؟ قالت : أعبث بها ! وكيف تعبثين بها ؟ قالت : آكل خبزها وأعمل عمل الآخرة ! ـ وقال أحدهم ساخرًا : إنك بارعة فى الكلام أفلا تصلحين لحراسة رباط ؟ فقالت : إنى حارسة رباط فعلاً ، لأنى لم أدَعَ شيئًا يخرج مما فى داخلى ، ولا أدع شيئًا يدخل مما هو خارج ، وأنا لا أحفل بما يدخل أو يخرج ، فأنا مشغولة بقلبى لا بمجرد الطين ! ـ ولما سئلت : وكيف بلغت هذا المقام من الولاية ؟ أجابت : بقولى ـ اللهّم إنى أعوذ بك من كل ما يشغلنى عنك ، ومن كل حائل يحول بينى وبينك !

واشتهرت رابعة بأقوالها فى **المحبة والأنس بالله** ، وهو شُغل محبة الشاغل ، وكل محب صادق يبحث عن القرب من محبوبه . ومما أنشدت فى ذلك هذين البيتين :

وإنـى جعلتك فى الفـــــؤاد محدّثـى وأبحت جسمـى من أراد جلــــوسـى

فـــالجسـم منى للجليس مــــؤانسٌ وحبيـبُ قلبى فى الفــــؤاد أنيسـى

وأظهرت رابعة الحاجة إلى هذا الحب الشامل والعبادة العاكفة بوضعها النار فى يد والماء فى اليـد الأخـرى ، ثم أنشأت تقول · سأشعـل النار فى الجنـة ،وأسكب الماء فى النــار ، حتى ينجاب الغشاء عن طريق السالكين إلى الله ، ويتبين مقصودهم ،ويشاهدون الله لا يحدوهم أمل ولا يفزعهم خوف. أفئن لم يكن جنة ولا نار لم يعبد الله أحـد ولم يطيعـــه أحـد ! (**الأفلاكى : مناقب العارفين**) . ولما سئلت : كيف حبك للرســول ؟ قالت إنى واللــه أحبه حبًا شديدًا ، ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلـوقين ! ـ وقالت أيضًا : إن حبى لله لم يترك فى قلبى مكانًا لمحبة مـا سوى الله ! ـ وقالت عن عبادتها لله والباعث عليهـا : ما عبدته خوفًا من النار ، ولا حبًـا فى الجنة فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حباً لـه وشوقاً إليه ! ـ وأبياتها عن الحبيْـن يبحث ـ أولهما عن هواه فحسب ، ويبحث ثانيهما عن ذات الله وجلاله ـ مشهورة يتردد ذكرها :

أحبـــك حبين : حـــب الهوى وحبـــاً لأنك أهـل لـــذاكــــا

فأمّـــا الـــذى هـــو حب الهوى فـذِكـرٌ شُغِلتُ بــه عن ســواكـــا

وأمّـــا الـــذى أنت أهـلٌ لـــه فكشفُـك الحُجـب حتـى أراكـــا

فما الحمـــــــــد فى ذا ولاذاك لى ولكـن لك الحمـــد فى ذا وذاكــا

ويعلق **الغزالى** على ذلك مـرة أخـرى بقـولـه : ولعلهـا أرادت بحب الهوى حب اللـه ، لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، **وبحبه** لما هو أهل له الحب ، لجماله وجلاله الذى انكشف لها ، وهـو أعلى الحبين وأقواهما (**الإحياء** الجزء الرابع ص ٢٦٧) . وكـانت رابعةـ . كالصوفيـة جميعًا ـ تنشد الوصل ، وقالت فى بعض أبيـاتها إن أملها هو الوصل ، وهو غاية منيتها . وقالت أيضًا إنها انقطعت عن الوجود وانسلخت من نفسها واتصلت بالله وأصبحت كلها له !

ونخلص من هذا إلى أن رابعــة تختلف عن متقدمى الصوفيــة الذين كانــوا مجرد زهّاد ونسّـاك ، وذلك أنها كانت صوفية بحق ، يدفعهـا حب قوى دقّاق ، وكانت واعية أن حياتها اتصلت بالله ، كما كـانت من أوائل الصوفية الذيـن قالوا **بالحب الخالص** الذى لا تقيده رغبة سوى حب ذات الله وحده ، وكانت من أوائلهم أيضًا فى الجمـــع بين **الحب والكشف** (**المصادر** . أهمها **العطار** تذكرة الأولياء ، **وتاج الدين الحصنى** سير الصالحات ، **وذهنى** مشاهير النساء ، **وابن خلكان** وفيات الأعيـان ، **والمناوى** الكواكب الـدرية ، **والشعرانى** الطبقـات الكبرى ، ونفحات الأنس . وأهم المراجع فى أقـوالها **الغزالى** الإحياء الجزء الـرابع ، **والكلاباذى** كتاب التعّرف ، **والقشيرى** الرسالة ، **والمكى** قوت القلوب ، والكتـاب الواف فى حياتها وبيان مصـادرها **لمرجريت سميث** « رابعة الصوفيـة وأصحابها من الصالحين فى الإسلام Margaret Smith : Rabbia the Mystic and Her Fellow - Saints in Islam » .

★★★

وفى **وفيات الأعيان لابن خلكان** أنها : **أم الخير بنت اسماعيل العدوية البصرية** ، مـولاة آل عتيك ، الصـالحة المشهورة ، وكـانت من أعيـان عصرهـا وأخبارهـا فى الصـلاح والعبادة مشهورة . وذكر **أبو القاسم القشيرى** فى **الرسالة** أنها كانت تقول فى مناجاتها : إلهى ! أتحرق بالنار قلبًا يحبك ؟ ـ فهتف بها مرة هاتف · ما كنا نفعل هذا فلا تظنى بنا ظن السوء ! ـ وقال عنـدها يومًا **سفيان الثورى** : واحزنـاه ! فقالت . لا تكـذب ! بل قل واقلة حزناه لو كنت محزونًا لم يتهيأ لك أن تتنفس ! ـ وقال بعضهم : كنت أدعو لرابعة العدوية فرأيتهـا فى المنام تقـول : هداياك تأتينـا على أطباق من نـور ، مخمرةٍ بمنـاديل من نور ! ـ وكانت تقول : مـا ظهر من أعمالى فلا أعده شيئًـا ! ـ ومن وصاياهـا . اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم ! ـ وقالت لأبيهـا : يا أبتِ ! لست أجعلك فى حلّ من حرام تطعمنيه ! فقـال لها : أرأيت إن لم أجـد إلا حرامًـا ؟ قـالت : نصبر فى الدنيـا على الجوع خيرٌ من أن نصبر فى الآخرة على النار ،! ـــ وكانت إذا جن عليها الليل قامت إلى سطـح لها ثم نادت . إلهى ! هدأت الأصوات وسكنت الحركات وخلا كل حبيب بحبيبـه ، وقد خلوت بك أيها المحبوب ، فاجعل خلوتى منك فى هذه الليلة عتقى من النار !

ولقى **سفيان الثورى** رابعة ـ وكانت زرية الحال ـ فقال لها : يا أم عمرو! ـ أرى حالا رثة فلـو أتيت جارك فلاناً لغيرّ مـا أرى . فقالت له : يـا سفيان ! وما ترى من سـوء حالى ؟ ألستُ على الإسلام ، وهو العـز الذى لاذل معه ، والغنى الذى لا فقـر معه ، والأنس الذى لا وحشة معـه ! والله إنى لأستحي أن أسأل الدنيا من يملكهـا ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟ فقام سفيان وهـو يقول . ما سمعت مثل هذا الكلام . وقالت رابعـة لسفيان : إنما أنت أيامٌ معدودة ، فإذا ذهب يومٌ ذَهَب بعضُك ، ويوشك إذا ذَهَب البعض أن يذهب الكل ، وأنت تعلم فاعمل !

وكان أبو **سفيان الهاشمى** له بالبصرة كل يوم غلة ثمانين ألف درهم ، فبعث إلى علماء البصرة يستشيرهم فى امرأة يتزوجها ، فأجمعوا على رابعة العدوية ، فكتب إليها . أما بعد ... فإنّ ملكى من غلة الـدنيا في كل يوم ثمانـون ألف درهم ، وليس يمضى إلا قليل حتى أتمها مـائة ألف إن شـاء اللـه ، وأنا أخطبك لنفسى ، وقـد بذلت لك من الصـداق مائة ألف، وأنـا مصيّر إليك من بعد أمثـالها فأجيبينى . فكتبت إليه : أمـا بعد ... فإن الزهـد في الدنيـا راحة القلب والبدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحَزَن ، فإذا أتاك كتابى فهىء زادك وقدّم لمعادك ، وكن وصى نفسـك ولا تجعل وصيتك إلى غيرك ، وصم دهـرك واجعل الموت فطـرك ، فما يسرنى أن الله خوّلنى أضعاف ما خوّلك ، فيشغلنى بك عنه طَرفة عين والسلام !

وقالت امـرأة لرابعة إنى أحبك فى اللـه ، فقالت لها · أطيعى من أحببتنى لـه ' ، وكانت رابعة تقول · اللهم قد وهبت لك من ظلمنى فاستـوهبني ممن ظلمته ! ـ وقال رجل لرابعة : إنى أحبك فى الله ، فقـالت : فلا تعصِ الذى أحببتنى لـه ' ـ وأورد لها **الشيخ شهاب الدين السهروردى** فى كتابه **عوارف المعارف** ·

وقـــد جعلتُك فى الفـــؤاد محدّثى　　　وأبحتُ جسمـى من أراد جلــوسـى

فـــالجسـم منى للجليس مـــؤانسٌ　　　وحبيـبُ قلبى فى الفـــؤاد أنيسـى

وكانت وفاتها فى سنـة خمس وثلاثين ومائة ، ذكره **ابن الجوزى** فى **شذور العقود** ،

وقال غيره سنة خمس وثمانين ومائة ، رحمها الله تعالى ، وقبرهـا يزار ، وهو بظاهر القدس من شرقيّه على رأس جبل يسمى الطور .

وذكر **ابن الجوزى** فى كتاب **صفة الصفوة** فى ترجمة رابعة المذكورة ، بإسناد له متصل إلى **عبدة بنت أبى شوال** - قال **ابن الجوزى** : وكانت من خيار إماء الله تعالى يقصد عبدة بنت أبى شوال ، وكانت تخدم رابعة ، قالت : كانت رابعة تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذاك وهى فزعة : يا نفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور ! - وكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت ! ولما حضرتها الوفاة دعتنى وقالت : يا عبدة ! لا تؤْذنى بموتى أحدًا ، وكفنينى فى جُبتى هذه - وهى جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون - قالت : فكفناها فى تلك الجبة ، وفى خمارِ صوفٍ كانت تلبسه . ثم رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها فى منامى ، وعليها حُلة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئًا قط أحسن منه ، فقلت : يا رابعة ! ما فعلت بالجبة التى كّفنّاك فيها والخمار الصوف ؟ قالت : إنهما والله نزعا عنى ، وأُبدلت بهما ما ترينه علىّ ، فطويتْ أكفانى وخُتم عليها ، ورفُعت فى علّيين ليُكَمل لى بها ثوابها يوم القيامة ! فقلت لها : لهذا كنت تعملين أيام الدنيا ! فقالت : وما هذا عندما رأيت من كرامة الله عز وجل لأوليائه ! فقلت لها · فما فعلت عبدة بنت أبى كلاب ؟ فقالت هيهات هيهات ! سبقتنا والله إلى الدرجات العلا ! فقلت : وبم ؟ قد كنت عند الناس أكبر منها ؟ قالت : إنها لم تكن تبالى على أى حال أصبحت من الدنيا وأمست . فقلت لها : فما فعل **أبو مالك** (أعنى ضيغماً) ، قالت : يزور الله عز وجل متى يشاء . قلت : فما فعل **بشر بن منصور** : قالت : بخٍ بخٍ ! أعطَى والله فوق ما كان يؤمل . قلت : فمرينى بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل . قالت : عليك بكثرة ذكره ، يوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك ! رحمها الله !

★★★★★

وفى البداية والنهاية لابن كثير : هى رابعة بنت إسماعيل مولاة آل عتيك ، العدوية البصرية ، العابدة المشهورة ذكرها أبو نعيم فى الحلية ، وابن الجوزى فى صفة الصفوة ، والشيخ شهاب الدين السهروردى فى المعارف ، والقشيرى فى الرسالة ، وأثنى عليها أكثر الناس ، وتكلم فيها أبو داود السجستانى ، واتهمها بالزندقة ، فلعله بلغه عنها أمر . وأنشد لها السهروردى فى المعارف :

وقد جعلتُ فى الفؤاد محدّثى وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانسٌ وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى

وقد ذكروا لها أحوالاً وأعمالاً صالحة ، وصيامَ نهار وقيامْ ليل ، ورؤيت لها منامات صالحة ، فالله أعلم ، وتوفيت بالقدس الشريف ، وقبرها شرقّيه بالطور ، والله أعلم .

★★★

وفى الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى للدكتور محمد مصطفى حلمى : أن المتأمل فيما أثر عن ذى النون من أقوال منثورة وأبيات منظومة ، يلاحظ أنه يصطنع لفظتى الحب والمحبة اصطناعاً صريحًا ، سواء فى التعبير عن حب الله للإنسان ، أو حب الإنسان لله ، وذلك على نحو ما فعلت رابعة العدوية . ولا يقف التشابه بينهما عند هذا الحد من المشاركة اللفظية فحسب ، وإنما تجاوز اللفظ إلى الفكرة الكبرى والغاية العليا التى وجهت الحب الإلهى عند كل منهما ، فكما كانت غاية رابعة العدوية القصوى هى أن ينكشف عن عين قلبها كل غين ، وأن لا يكون بينها وبين الله أى بين ، وبحيث يتهيأ لها من مطالعة جمال الربوبية ما يصرفها عن كل ما سوى الله ، فكذلك كانت غاية ذى النون إذ اتخذ من الله معقد رغبته ومنتهى مراده ومنيته ، كما يدل على ذلك مناجاته ربه فى هذه الأبيات :

أموت وما ماتت إليك صبابتى ولا رويت من صدق حبك أوطارى
مناى المنى كل المنى أنت لى منى وأنت الغنى كل الغنى عند إقصارى
وأنت مدى سؤلى وغاية رغبتى وموضع شكواى ومكنون إضمارى

وفى **الحياة الروحية فى الإسـلام لطه عبد الباقى سرور** : أن الزهد كان هو السمة الأولى التى تميزت بها القلة المستمسكة بالعروة الـوثقى ، وكان رأس هؤلاء الرجال فى القرن الأول هـو الحسن البصرى ، ولكن الزهـد بذاتـه مجردًا هو انطـواء على النفس وانكماش فى ساحات الحياة ، وأما الحياة الروحية الكـاملة فانطلاق وانفساح وقوة وإشراق . إنطلاق فى آفاق المعرفة ، وانفسـاح فى حياة القلب ، وقوة تـدفع إلى خالد العمل ، وإشراقة إيمانية عامرة بالفيض والإلهام ، وفنـاء فى المثل الأعلى . ولمُ تحدث كلمة بعـد كلمة التوحيـد دويًا كـالذى أحدثته كلمة **محبة الله** التى هتفت بها رابعـة ففتحت آفاق المعـارف الصـوفية ، وفجّـرت ينابيعهـا ، ورابعة أبرزتها وأجلّتها وأدارت حـولها حياتها ، وأقامت رسالتهـا ، والمحبة هى رسالة التصـوف وقامت عليها أكبر رسالـة روحية عرفها العالم وجعلتهـا رابعة سر الحياة وطابعها وهدفها الأعلى ، ومن محبة الله تنبثق محبة كل ما فى الوجود ، وعلّمت رابعة الناس أن الحياة محبة للناس جميعًا ولكون بكل ما فيه لأنه من صنع الله ، وعلمتهم أن عبادة الله أساسها الحب وبـذلك أقامت صلة العبد بربه على أقـوم نهج تعبدى : نهج الشوق والأنس والرضا فـالحب الإلهى هو المصدر الحقيقى الـذى استمدت منه الموجودات وجـودها وهو بذلـك حقيقة كـونية روحيـة ، ورابعة هى صـاحبة مـدرسة الحب الإلهى ومـؤسستها فى الإسلام وكل مَنْ قفا اثارها على نهجها لم يأت بجديد حتى بن الفارض شيخ العشاق وإمام المحبين فى عالم الأشواق والمواجيد لم يزد مع سموه فى الحب الإلهى شيئًا عما قالته رابعة .

★★★

ويقول **الشيخ مصطفى عبد الرازق عن رابعة** : إنها السابقة إلى وضـع قواعد الحب والحزن فى هيكل التصوف ، وهى التى تركت فى اثاره كثيرًا من نفثـات صادقة بالتعبير عن محبتها وعن حزنها ، وإن الـذى فاض به بعد ذلك الأدب الصوفى من شعـر ونثر لهو نفحة من نفحات السيدة رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين فى الإسلام .

★★★

وفى **كتاب رابعـة العدوية لمحمد زكى عبـد الرحمن** أن رابعـة كانت لها سميـات ، **فرابعة القيسية** كانت معاصرة لها فى البصرة ، **ورابعة بنت اسماعيل** عابدة من العابدات

الصالحات (١٤٥ هـ) ، أقامت بمصر سبع سنوات ، وكان يتردد عليها الإمام الشافعى ، وكان يصلى التراويح فى رمضان فى مسجدها ؛ **ورابعة البغدادية** (٥١٨ هـ) عابدة من عابدات الشام ، وتوفيت ودفنت بدمشق ، ويسميها نساء دمشق السيدة رابعة ؛ **ورابعة البدوية** ، وقبرها فى ضواحى القدس الشريف ، وقيل اسمها **رايعة** بالياء . ويقول بعض كتّاب السير من خصومها أن رابعة بعد تحررها من الرق احترفت مهنة العزف على الناى مدة ، ثم رجعت واعتزلت عن الناى فى خلوتها للتفرغ للعبادة . وحاشا أن يكون العزف على الناى اندفع برابعة فى طريق الغناء والشهوات مع ما كانت عليه من جمال باهر ، ويعلم كل من اتصل بحلقات الذكر فى ساحات التصوف أن العزف على الناى وسيلة من وسائل الترنم بذكر الله وتسبيحه ، وللآن الطبل والدف والناى لها تأثير كبير فى حلقات الذكر فى كل مكان . وكانت رابعة شاعرةً مجيدة ، ومما نسب لها فى حبها الإلهى من البحر الكامل :

كأسى وخمرى والنديم ثلاثة ... وأنا المشوقة فى المحبة : رابعه

كأس المسرة والنعيم يديرها ... ساقى المدام على المدى متتابعه

فإذا نظرت فلا أُرَى إلاّ له ... وإذا حضرت فلا أُرَنى كلا معه

يا عاذلى إنى أحب جماله ... تالله ما أُذْنى لعذلك سامعه

كم بت فى حرقى وفرط تعلقى ... أجرى عيوناً من عيونى الدامعه

لا عبرتى تُرقأ ولا وصلى له ... يبقى ولاعينى القريحة هاجعه

★★★

وفى **كتاب رابعة العدوية لسميح عاطف الزين** : أنه قد برز من أوائل الصوفية الذين اعتنقوا مذهب العشق الإلهى ثلاثة لهم صيت ذائع فى عالم التصوف ، وهم رابعة العدوية ، **وأبو يزيد البسطامى** ، **وأبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج** . على أن رابعة العدوية اعتُبرت من بين هؤلاء **رائدة العشق الإلهى** ، ووُصِفت بأنها **شهيدة العشق الإلهى** . وإذا

كان قد نشأ للصوفيين من بعد رابعة فِرَق عديدة متنوعة فى الأفكار والطرق ، فإن أيًا من المتقدمين أو المتأخرين منهم لم يبلغ ما بلغته رابعة فى العشق الإلهى ، حتى أن **ابن الفارض** المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، الملقب بشيخ العشاق وإمام المحبين فى عالم الأشواق والمواجيد ، لم يزد فى الحب الإلهى شيئًا عما قالته رابعة العدوية . ومن قبله ببضعة قرون **ذو النون** المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ ، أستاذ من تحدّث عن الحب والمعرفة فى التصوف ، إنما كان يردد ما ادعته رابعة فى مواجيدها ، ولهذا تقول عنه دائرة المعارف الإسلامية· والمتأمل فى كلمة بروحها أُثِر عن **ذى النون** من أقوال منثورة وقصائد منظومة ، يلاحظ أنه يصطنع لفظتى **الحب والمحبة** اصطناعًا صريحًا ، سواء فى تعبيره عن إقبال الله على العبد أو إقبال العبد على الله ، وأنه باستعماله لفظة الحب بنوع خاص إنما يشارك رابعة العدوية التى تعد أول من استعمل هذه اللفظة استعمالاً صريحًا فيما كانت تناجى به ربها ، أو كانت تتحدث به عن علاقتها بـه وإقبالها عليه وإيثيارها له . ومن هنا يتبين أن رابعة العدوية هى **رائدة العشق الإلهى** عند صوفية المسلمين بالحقيقة والأساس .

وأياً كان الاتجاه الذى اعتمده الرواة أو الباحثون ، وأياً كانت دوافعهم فيما رووا أو كتبوا عن رابعة ، فإن التاريخ يحفظ لنا ولاشك ذكرى امرأة صوفية أوجدت فى تصوفها مذهبًا خاصًا كانت لـه آثاره التى راحت تتفاعل مع الزمن حتى بقى إلى وقتنا لحاضر ، وهو المذهب القائم على العشق الإلهى ، الذى يتنافى مع عقيدتنا الإسلامية ، ويخالف مخالفة صريحة الكتاب والسنّة . وما يمكن اعتباره تطرفاً عند رابعة هو ما ادّعت من عشق لله تعالى ، ثم مخاطبتها للعزة الإلهية كأنه جلّ وعلا إنسانٌ يجوز لنا أن نتعامل معه وفقًا لتصوراتنا ومشاعرنا ، فهنا خطأ رابعة الذى أوقعت فيه نفسها ، وقادها لأن ترى فى الله سبحانه وتعالى معشوقها وفق المفهوم البشرى ، تناجيه بغرام العشاق المشبوب .

وينتقد **سميح الزين** فى رابعة بخلاف ذلك موقفها من الحج ، والكرامات المنسوبة إليها فيه ، وتجرأها على مخاطبة الله تعالى ، معاتبةً بكلمات مثل أكذا يفعل الملوك بعبيدهم الضعفاء ، وقولها وما أريده هو أن أشاهد وجهك الكريم ، وذهاب الكعبة للقاء رابعة . وقولها عن الكعبة أنها ليست سوى صنم معبود فى الأرض إنكارٌ لكعبة المسلمين التى جعلها

الله تعالى قياماً لهم . وتفسير البعض ذلك بأنه تحقيق للخُلة بينها وبين الله سبحانه ، والخُلة هى المودة ، وكذا المحبة ، فأما أن يراد بالحب حبة القلب ، وبالخلة التخلل ، فحاشا لله ، ورابعة تعاملت مع الله تعالى باعتبار التصوف َتخّلل نفسها ، والصوفى إذا بلغ مرتبة الخلة بينه وبين الله سبحانه سقطت عنه التكاليف ، واستباح لنفسه ما لا يبيحه الله تعالى لغيره من الناس . وفى حالة الخلة يكون العبد الخليل بنظر الصوفيين بمثابة الله ، أو على الأقل يستحل لنفسه من أموره ما لا يمكن لغيره أن يستحله ، فإذا كان كل شىء فى الدنيا ملكاً لله ، فلخليله الصوفى أن يستحل ما يشاء من هذا المُلك ... وإن رابعة لتستخدم الخلة بمعنى استهلاك وجودها فى وجود الله سبحانه ، وفى ذلك تقول . « قد تخللتَ مسلك الروح منى » ، وتقول عن الله تعالى « إنى جعلتك فى الفؤاد » ، وهو الذى لا يحتويه سبحانه مكان ولا يحده حدّ . وإن قولها أنا ذاهبة إلى السماء كى أُلقى بالنار فى الجنة وأصب الماء فى الجحيم ، فلا تبقى هذه ولا تلك ، ويظهر المقصود فينظر العباد إلى الله دون رجاء ومن غير خوف ،ويعبدونه على هذا النحو بلا طمع فى جزاء أو خوف من عقاب ، ذلك أنه لو لم يكن ثمة رجاء فى الجنة وخوف من الجحيم أفكانوا يعبدونه ويطيعونه — هذه الرواية تعبر عن التخيلات والأوهام التى ملأت عقل رابعة وقلبها حتى تمثّلت فى نفسها القدرة على التصرف فى الجنة والنار كما تريد . وإيمان رابعة كما تصوره هذه الرواية واعتقادها فى البعث والحساب يخالفان الشريعة والسنة . وإن عبادة لا تقوم على الخوف من نار الله والطمع فى الجنة ، لهى عبادة جوفاء ، لأنه ينتهى معها الثواب والعقاب ، ويتساوى الناس فى مصير واحد فى دار الآخرة . والمتتبع لسيرة رابعة يجد أنها ذهبت إلى أبعد من ذلك بكثير عندما اعتبرت شوقها إلى الجنة إنما يشكّل خطيئة تقترفها فى قولها « عُرِضت علّى الجنة فملت بقلبى فأحسست أن مولاى غار علّى فعاتبنى ، وهذا يعنى أنها صارت تعد الميل بقلبها إلى الجنة بمثابة إثم اقترفته . وإن تجرأها على الله تعالى ومعاتبته على خلقه النار لتأديب العاصين منتهى الشطط والزلل حيث تقول يا رب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ! ؟

★★★

وفى **كتاب رابعة العدوية بين الغناء والبكاء للدكتورة سعاد على عبد الرازق** : أن رابعة تعد بحق علماً من أعلام الحياة الروحية فى الإسلام ، ويرتبط اسمها بالنظرية الروحانية ، ونظرية الحب الإلهى ، ونظرية الخُلّة ، ونظرية الحَجّ بالهِمّة . وقد تكلم كبار الصوفية عن مذاهبها وأيدوا عباراتها ، ومن هؤلاء **أبو طالب المكى ، والقشيرى، والغزالى ، والسهروردى** ، وصورها لنا مؤرخو التصوف تقف موقف المعلّم الروحى لمجموعة من أشهر عُبّاد الإسلام وفقهائهم ومحدّثيهم ، من أمثال عبد الواحد بن زيد ، وعُتبة بن أبّان بن صمعة ، ورياح القيسى ، وسفيان الثورى . وعلى هذا النحو وتلك الصورة كان تأثير رابعة فى مدارس التصوف من بعد .

ورغم كل التساؤلات حول الأصل الجنسى لرابعة العدوية فإن الذى أجزم به مستندة إلى النصوص أن رابعة كانت مغنية قبل أن تسلك طريق الهجرة إلى الله ، وأنها كانت تغنى على أنغام النـاى وقرع الدفوف والطبول ، وسنرى **لسان الدين الخطيب** عالم الأندلس الكبير ، وصاحب كتاب **روضة التعريف بالحب الشريف** ، الذى أرّخ فيه لنظريات الحب الإلهى ، يقول : يا رابعة من أنت ؟ قالت : كنت أضرب الدف بالطبل فما سمع غيرى :

بالله يا ريح الصبا　　مُرّى على تلك الربا
وبلّغى رسالتى　　بنصّها أهلَ قبا
واحربا وهل يرد　　فائتنا واحربا

★★★

ورابعة كما وصفها **الهجويرى** بداية التصوف ونهايته لأن مقامات التصوف وأحواله وألحانه ومواجيده وكشوفه وإلهاماته لا تزال على ما رسمته وكما عبرت عنه وتذوقته .

★★★

رابعة فى كتابات الشرق والغرب

ـ ٢ ـ

فى الغرب

★★★

رابعة فى الموسوعة الصوفية لجون فيرجسون : هى شاعرة ومتصوفة توفيت عام ٨٠١ م ، ولم يعرف شىء عن ميلادها وعائلتها ، إلا أنها كانت تسكن البصرة ، وكانت لا ترى سوى الله فكل ما عداه باطل ، وشكت مرضًا فسرته تفسيرًا غريبًا ، فزعمت أنها لم تجد له سببًا سوى أنها عُرِضت عليها الجنة ، فمالت بقلبها إليها ، فأحسب أن مولاى غار علىّ فعاتبنى ، فله العتبى . واعتذرت عن الزواج لأنه إذا كان الزواج ضروريًا لمن له الخيار فإنها فى نفسها لا خيار لها ،لأنها لربها وفى ظل أوامره . وبالنسبة لرابعة فإن طريق الوصول إلى الله بطُهر المحبة . وكانت هى التى أدخلت فكرة الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى ، وتعبر عن ذلك فى أبيات قوية تقول فيها :

أحبك حبين : حب الهوى — وحبًا لأنك أهل لذاكا
فأمّا الذى هو حبّ الهوى — فذِكْرٌ شُغِلتُ به عن سواكا
وأمّا الذى أنت أهلٌ له — فكشفُك الحُجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولاذاك لى — ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

There are two ways of love
My selfish way , and yours above
My selfish love is when I find
I yearn to grasp you in my mind .
Pure love is when you took
The veil from my devoted look .
I can not glory in either phase
Two ways of love - in both be yours the praise !

وكانت رابعة تقول إن حبها لله لم يترك فى قلبها مكـانًا لتكره ، حتى ولو كان هذا الذى ستكرهه هو إبليس . ومن الرؤى التى رأتها شجرة هائلة عليها ثمار ذهبية رائعة ، وقيل لها إن الشجرة شجـرتها ، وإن الثمار هى تسابيحهـا لله ، ولكن بعض الثمار كـانت ملقاه على الأرض ، وسألت أفما كان الأولى أن تكون بالشجـرة ؟ فقيل لها بلى ! كانت بالشجرة ولكنك أثناء تسبيحك فى إحدى المرات ، وكنت قد عجنت عجينً للخبـز ، توقفت لتسألى نفسك ما إذا كان العجين قد خمر ، فسقطـت هذه الثمار ، لأن العبد الذى يتمنى أن ينال القُـرب من الله ينبغى أن لا يفكر ، ولا أن يسأل عن شىء فى الـدنيا ولا فى الآخرة سوى اللـه . وكانت رابعة فى دعائها تشبـه إبراهيم بن أدهم . ومن مأثورات هذا الدعـاء قولها : إلهى ! إذا كنت أعبدك مخافة النـار فأحرقنى بنارها ، أو طمعًـا فى الجنة فحرّمهـا علىّ ! وإذا كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك !

★★★

وفى **دائرة المعارف البريطانية** . أن رابعة العدوية يرجع لها فضل إدخال عنصر الحب فى التصوف الإسلامى ، فلم يعد مجرد زهـد . وهى امرأة من البصرة ، وكانت أول من صاغ فكرة الحب لله حبًـا لا مصلحة فيه للمحب ، ولا يصدر عن خـوف من النار ولا عن طمع فى الجنة . وبعـد رابعة تعـددت المدارس الصوفيـة وكثرت فى العـالم الإسلامى ، ويـرجع ذلك نسبيًا إلى تأثير الاتصال بالرهبان المسيحيين وتبادل الأفكار معهم .

★★★

وفى كتاب **رابعة العدوية الصوفيـة وصحابها من الصوفية لمرجريت سميث** تذكر « **أنى مارى شميل** » فى مقدمة طبعة ١٩٨٤ : أن رابعة العدوية كانت فيما يبدو أول من أكد على مفهـوم الحب الإلهى ، بمعنى الحب من أجل الحب ، وليس خوفًـا من النار أو طمعًـا فى الجنة ، وذلك هو إسهام رابعة التاريخى ، وصار حبها المتأجج الذى استشعرته لله ، والذى صرفها عن كل شىء مخلوق ، وهو حجر الزاويـة فى التصوف الإسلامى ولذلك صار اسم رابعة مـن الأهمية بمكان فى هـذا التصوف . وقـد أورد العطار سيرتها بشكل رومـانسى ، بينما ذهب غيره من كتّاب السيرة إلى إيراد فصول من حيـاتها جعلت اسمها مرادفًا للمحبة

ذاتها . ونُسِجت القصص حول حياة رابعة ، وعيد فيها وزيد ، وكتب عنها الفيلسوف المصرى **الدكتور عبد الرحمن بدوى** ، وأطلق عليها اسم **شهيدة العشق الإلهى** ، وأخرجت عنها السينما المصرية فيلما كان ناجحًا واستمر عرضه لفترة . وكان اسم رابعة العدوية قد بدأ يتردد فى أوروبا بعد أن نبّه إليها أحد المفكرين الفرنسيين ويدعى جوانفيل ، وكان من مستشارى الملك لويس الرابع عشر ، وقد ذكرها من كتّاب فرنسا منْ يدعى **كامى** سنة ١٦٤٤ م ، وأشاد بذكرها الكاتب النمسوى **ماكس ميل** ، وكان اسمها معروفاً فى بريطانيا كما يبدو من قصائد **ريتشارد مونكتون** التى اعطاها عنوان « أقوال من رابعة » ، وأراد أن يعظمها فأعطاها اسم **ابنة السماء Daughter of God** .

وتقول **مرجريت سميث** فى الكتاب: إن رابعة بلاشك أعظم متصوفات الإسلام ، وكان لها أكبر إسهام يمكن أن تشارك به امرأة متصوفة فى التصوف . وترجع **مرجريت سميث** مولدها احتمالاً إلى سنة ٩٥ أو سنة ٩٩ هـ ، وتقول إنها رغم كونها من أشرف بيوتات البصرة إلا أنها ولدت فقيرة فقرًا مدقعًا وأنها تشبه المتصوفات المسيحيات فى نبذها للزواج ، وتفضيلها أن تكون عروس السماء ، وقد فعلت ذلك مع الأمراء الذين تقدموا لخطبتها ، كما فعلته مع اخوانها من الصوفية ، فالأمر لديها سواء . وماتت رابعة يقينًا سنة ١٨٥ هـ ، وكان دفنها بالبصرة .

★★★

الفصل الثانى

رابعة بين الأسطورة والحقيقة

ما قدمنـاه من كتابات عن رابعة يـرسم صورة لها يختلط فيها الخيال بـالواقع أو أنه يبدو كذلك ، فالروايات عنها كثيرة ، وأغلبها روايات متوافقة ، وأقلها روايات متعارضة .

والخلاف حول رابعة بين المؤرخين حول وفـاتها ونسبها والكرامات التى أُلصقت بها ، ولم يكن هناك خلاف بالمرة حول مذهبها فى التصوف وأقوالها فيه . ونخلص من كل ما قيل فيها أن رابعة **عربية** صميمة ، وكانت تتحدث **العربية** وتفكر بها ، ولها أسلـوبها الخاص والمتميز ، ولها ألفـاظها التى تتكـرر معها ، ومعراجهـا الفكرى متسق وفى صـعود يتدرج معها ، وليس فى أفكارها طفـرات أو مراوحات بين أقصى اليمين وأقصى اليسار ، ونستطيع فى سهولة ويسر أن نؤكد عن يقين أن هذه الأقوال جاءت على لسان رابعة وأن نستبعد أقوالاً أخرى نُسِبت لها .

وكانت رابعة العـدوية بصرية تأثرت بـالثقافة الواسعـة التى كانت للبصرة فى زمانها ، والبصرة مدينة عربية إسلامية دماً وروحاً ، أسسها **عتبة بن غـزوان** عام ١٦ هـ ، أو عام ١٧ هـ ، بأمر من الخليفـة عمر ، وتقول **دائرة المعارف الإسلامية** أنه كان فى المكان الذى شيدت فيه المدينة معسكر ضُـرِب هناك منـذ سنة ١٤ هـ ، وقصدوا من بناء هذه المدينة أن تكون مركزًا للجيش العـربى ، ـ ولذلك اختير مكانها فى بقعة بالقـرب من النهر عند أطراف السهل والوادى الخصب القريب من المشارب والمراعى ، وسميت المدينة بالبصرة أى **الحجر الأبيض** ، لأن الأرض التى شيدت عليها من الحجر الأبيض .

وكانت البصرة مهد الخلافـات القبلية بين العرب ، وفى أواخر عهد معاويـة هاجر الأزد إليهـا وتحالفوا فيهـا مع ربيعـة على تميم وقيس ، وكـان على الولاة دائماً أن يحافظـوا على

النظام فيها . وقد ازدحمت البصرة بالسكان واختلط بالعرب فيها عدد كبير من الموالى ، حتى لقد قدّروا عدد سكانها سنة ٥٠ هـ بنحو ثلثمائة ألف نسمة .

وكانت دسائس الخوارج من الأسباب التى زادت من المنازعات القبلية ، وكانت من عوامل الإخلال بالأمن بها وكانت — مثلها فى ذلك مثل الكوفة - مرتعاً للحروب الأهلية ، وميداناً للفتن ، وربما لذلك عانت كثيراً من المجاعات ، وتفاوتت أقدار الناس فيها بين الفقر المدقع والغنى الفاحش . ولم يكن غريباً أن نجد بين سكانها مثل والد رابعة الذى لم يكن فى بيته قطرة من زيت يوقد بها السراج ، أو يمسح بها على ابنته رابعة عند ميلادها ، ولا قطعة القماش التى يدثرها بها ، أو مثل **محمد بن سليمان الهاشمى** الذى تقدم لخطبة رابعة ، وكان قد ولى البصرة منذ سنة ١٤٥ هـ حتى سنة ١٧٢ هـ ، وكان من أوسع الناس ثراء ، حتى بلغت غَلّة ملكه ثمانين ألف درهم فى اليوم ، وقال إنها عما قريب تبلغ مائتى ألف درهم .

وبلغت مدينة البصرة أوج ازدهارها زمن رابعة فقد كانت هى وضاحيتها الأُبُلّة مركز تجارة العرب البحرية التى انتشرت حتى بلغت بلاد الصين ، وتفرعت القناتان الكبيرتان اللتان تربطان المدينة بالنهر - وهما نهر الأبلة ونهر المعقل - إلى جملة مجارٍ مائية تجرى فى شوارع البصرة وحدائقها ، وذلك حقاً هو ما جعل **الدكتور بدوى** يقول عنها ڤينسيا العربية .

وتطور حى المدينة القائم عند الباب الغربى حيث تنيخ القوافل على المربد حتى حى الأعمال بالمدينة ، ولكم يتشابه وصف **الدكتور بدوى** ووصف مؤلف **دائرة المعارف الإسلامية** ، والأخير يقول إن قصص ألف ليلة وليلة تعطينا صورة عن الحياة المرحة التى كانت عليها الأسواق فى المدينة وقنواتها ، وقد ازدهرت الحياة العقلية فيها نتيجة لتقدمها الاقتصادى ، فكانت المكتبات العامة والمساجد أسمى ما يتوق إليه الأهالى فى حياتهم ، وظهر فيها وفى الكوفة النحو العربى ، وكان أحرار الفكر يعقدون اجتماعاتهم فيها وذلك ما جعل **ماسينيون** يقول عنها إن البصرة هى البوتقة الحقيقية التى اتخذت فيها . الثقافة الإسلامية شكلها ، وبين القرنين الأول والرابع تبلورت الثقافة وأخذت شكلها العربى

الإسلامى ، وظهر النحويون والشعراء والمؤرخون ، وأشرق سنا علوم الدين ، ووطد الحسن البصرى ومريدوه دعائم التصوف .

ولو كانت رابعة قد عاشت فى مدينة أخرى غير البصرة فربما ما كانت تبرز كداعية صوفية وصاحبة مذهب فى التصوف ، فرابعة والبصرة مرتبطان ، وثقافة رابعة عربية إسلامية قح ، وهى وريثة الثقافة العربية الإسلامية المزدهرة فى البصرة ، وفى مساجدها ووسط حلقات الدرس فيها كان تلقيها للغة والدين وأصول التصوف . ولقد كان محيط رابعة الثقافى مثاليا فقد اجتمع فيه الكبار من أمثال **سفيان الثورى** ـ وهو كما قيل فيه عالم الأمة وعابدها ، وعبد الواحد بن زيد الذى يعتبره الإمام ابن تيمية أول الصوفية على الحقيقة ، **ورياح القيسى** وهو المتألّه وصاحب المجد والفخر ، القانت معه فى السر والجهر كما يقول العطار .

وتلعب **الوراثة والبيئة** بالإضافة إلى **الاستعداد الشخصى** دوراً حاسماً فى تشكيل شخصية رابعة وفكرها ، ويحكى **ابن خلكان** عن رابعة وكانت بعد طفلة لم تجرّب اليتم ولا التشرد والأسْر ، أنها قالت لأبيها : يا أبى ! لست أجعلك فى حلٍّ من حرام تطعمينه ! فقال لها الأب والذى كان جيرانه يطلقون عليه اسم العابد : أرأيت إن لم أجد إلا حراماً ؟ فأجابت رابعة : نصبر فى الدنيا على الجوع خير من أن نصبر فى الاخرة على النار ! ـ فأى منطق لهذه الطفلة فى سنها ! وأية ثقافة يمكن أن تكون لها ! وأية تربية تلقتها منذ نعومة أظفارها ! وما هى تلك القيم التى نُشّأت عليها لتقول مثل مقالتها ! وكما يقال فالأطراف فى تماس ، وهذه البنت الصغيرة التى كانت متعبدة منذ طفولتها الباكرة هى نفسها المرأة الناضجة التى حكت عنها خادمتها **عبدة** أنها كانت تصلى الليل ، فإذا طلع الفجر وثبت فزعة من مرقدها تقول : يا نفس ! كم تنامين وإلى كم تقومين وقد أوشكت أن تنامى نومة لا تقومى منها إلا بصرخة يوم النشور !! ـ وكان ذلك دأبها حتى ماتت ، وكانت تقول **لسفيان الثورى** : يا سفيان ! أما علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها ؟ ـ وقالوا لها من أين أتيت ؟ فكان جوابها من العالم الآخر . وإلى أين تذهبين ؟ قالت : إلى العالم الآخر ! وماذا تفعلين فى هذه الدنيا ؟ قالت : آكل خبزها وأعمل عمل الآخرة ! ـ وكأنى بها التصوف وقد تجسّد !

وما كـان من الممكن أن يحكى أحد عن أبيها أو عن حياتها الأولى معـه إلا أن يكون على صلة وثيقة بها وبأسرتها فى طفولتها ، فإذا كان المؤرخون قد أجمعوا على أنها مولاة آل عتيك **فما كانت رابعة فى صغـرها مولاة أحد** ، وما كان أبـوها كذلك وهو على هـذه الدرجة من الفقر والتوكل والتبطّل ، وإنما **رابعة كانت حرة** حتى قيض لها أن تؤسر وتبـاع كما يقول **العطار** بستة دراهم ، ومـن المؤكد يقينًا أنها بيعت لآل عتيك وأُطلق عليهـا من ثم **العدوية والقيسية** ، حيث كان بنـو عدوة من البطون القيسية التى سكنت البصرة وأسستهـا ، وما كانت صحبتها **لرياح القيسى** إلا لأنه من هذه القبيلة ، فهو بمثابة الأهل والسكن لها .

ومـا كان من الممكن أن تكـون رابعة من أصـول فارسيـة أو مسيحية كما يقـول الدكتور بدوى ، لأنها لم يحدث أن أشارت ولـو مجرد إشارة بكلمة فارسيـة ، وكان الأولى بالعطار أن يـذكر أنها فارسية لـو كانت حقًا كذلـك ، فمؤرخو التصوف من الفـرس كانوا يتيهون بانتساب الصوفية لجنسهم . وقد تحدث **الدكتور بدوى** عن **اللاشعور** عند رابعة ، وأغلب الظن أنه يقصد به **اللاشعور الجمعى** الذى من رأيه أنه يحيلها إلى مقولات المسيحية عند حديثها عن المحبة الإلهية ، وأقـول إن هذا اللاشعور الجمعى أو الأجناسى الذى يمكن أن تستقى منه ثقافة رابعة وتختلف به عن أقرانها القـائلين بالمحبة الإلهية كعبد الواحد بن زيد ، لم يحدث أن ظهر من كلماتها المشبـوبة بالعاطفة والمتقدة بـالانفعالات أنها مسيحية الأصل أو تـربّت على مسيحيين أو أصدرت فى أفكـارهـا عن تعليم مسيحى ، وما كـان من الممكن وهذه تنشئـة رابعة أن يفلت زمـامها بعـد عتقها فتغرق فى بحـر الشهوات كـدعوى الدكتور بدوى فيها !!

ويقول **الدكتور بدوى** : فنحن نفترض أن رابعة لّما أُعتقت ، اندفعت بفضل الحرية التى وُهبتها إلى المشاركة فى حياة الدنيا ، ومثل هذه الفترة من حياتها مثل تلك الفترة التى أمضتها القديسـة تريزا الآبليـة منذ أن غادرت ديـر التجسّد من آبلة إلى سنـة ١٥٥٥ م حيث بدأت حيـاتها الثانيـة ، فـانطلقت رابعـة تسعى لرزقهـا فلم تجد غير حـرفـة العزف على النـاى والإطراب ، وهذا يجعلنا أن نفترض أنها كانت على حظ مـن الجمال ولعل هذا ما يفسر لنا ما روى من أخبار لعلهـا أسطوريـة عن تقدم الكثيرين لـلاقتران بها ، ودعاهـا إلى اتخاذ هذه المهنة خاصـة أنها كانت ذات مزاج فنى يمتاز بحكم طبيعتها الروحيـة العالية ، فلم تجد فى

غير الفن للظهور فى الدنيا والمشاركة فى الحياة . والمشاهد عامة فى حياة النسوة اللائى وهبن قدراً من سمو الروح أنهن يحترفن الفن إذا ما قُضى عليهن بتلمس أسباب الرزق بوسائلهن الخاصة ، ويحتمل كذلك أنها إبّان هذه الحياة الفنية بما تقتضيه من ملابسات قد اندفعت فى طريق الشهوات إلى مدى بعيد ، فهذه المهنة فى ذلك العصر كان من غير الممكن أن تستقل بنفسها ولا أن تكون بمنجاة عن ألوان الإغراء بأنواع الأحابيل التى تُنْصَب لمثيلاتها فى هذا المضمار، ويخيل إلينا أنها قطعت شوطًا طويلاً فى طريق الإثم ، وغرقت فى بحر الشهوات ، واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة ، لأنها تابت من بعد ذلك ، فهذه التوبة نفسها هى أصدق دليل لدينا على اندفاعها إلى أبعد حد فى طريق الشهوة ، والأطراف فى تماس كما يقولون ، والاعتدال لا يمكن مطلقًا أن يؤدى إلى التحول الحاسم ، فهذه الانقلابات الروحية الكبرى إنما تقع دائماً نتيجةً لعنف وإفراط ومبالغة فى الطرف الأول المنقلب عنه ، فعنف إيمان **القديس بولس** كان نتيجة لعنف إنكاره للمسيحية ، وعنف الحياة التقية لدى **القديس أوغسطين** كان لازماً طبيعياً لعنف الحياة الشهوانية الحسّية التى حَيّها قبل تحوله إلى الإيمان ، والاعتدال من شأن الضعفاء والتافهين ، أما التطرف فمن شيمة الممتازين الذين يبدعون ويخلقون التاريخ ، وما كان يمكن لرابعة أن تتطرف فى إيمانها وحبها لله إلا إذا كانت قد تطرّفت من قبل فى فجورها وحبها للدنيا ، ومن أعماق الشهوة العنيفة تنبثق الشرارة المقدسة للطهارة ، ومن عمائق الإنكار والتجديف تنطلق الموجة التى تنشر الإيمان فى الدنيا بأسرها ، ولهذا فإنى أدعو إلى التطرف المطلق كل من يريد أن يكون خالقاً للقيم .

هذا هو رأى **الدكتور بدوى** — وهو يصدر عن مذهب فى التأريخ للسيّر يقوم على الفروض والاحتمالات ، وذلك قد يكون صحيحاً إلا أنه بشروطه كما يقول **توينبى** ، فلابد أن تأتى الفروض والاحتمالات من مقدمات صحيحة ، ولابد أن تكون هناك إرهاصات لما سيقْدُمُ من سلوكيات مستقبلة عند الشخصية المؤرخ لها .

ولا أرى إلا أن **الدكتور بدوى** اعتسف الفروض والنتائج ، وكان حاله كما قال **سارتر** عن الشيوعيين فى فرنسا ، أنهم يجبرون الأحداث على الدخول فى فروضهم الفلسفية ، فما لا يتوافق معها ذهبوا إلى إنقاصه من هنا وهناك ، أو الزيادة فيه ، ليناسب قوالب فروضهم ، وتكون النتيجة أن الحدَث يشوّه ، وذلك نفسه ما اعتقد أن **الدكتور بدوى** قد فعله مع رابعة العدوية ومع كثير من الشخصيات الفلسفية التى تناولها بالتأريخ والتحليل .

والدكتور بدوى يصدر فى أحكامه عن أفكار مسبقة ، ويختار من الشخصيات ما يظن أن مذهبه الفلسفى ينسجم عليها عند التطبيق . وكتاب « **رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى** » لم يكن سوى تطبيق من هذه التطبيقات الفلسفية الكثيرة التى يلجأ إليها لإثبات صحة مذهبه الفلسفى ، ولسوف نطرح هذا المذهب وتطبيقه فى حالة رابعة لنرى إلى أى حد قد غالى **الدكتور بدوى** فيما قصد إليه .

★★★

الفصل الثالث

فلسفة الوجود الفردى متحققة
فى الصوفية
و فى رابعة العدوية بالذات

★★★

إن فهم كتاب رابعة **للدكتور بدوى** لن يكون إلا بفهم **المذهب الوجودى** الذى يعتنقه **الدكتور** ، وهو مذهب يسير فيه كما يقول هو نفسه فى اتجاه الفيلسوف الألمانى الوجودى **مارتن هايدجر** .

ويميل الدكتور إلى الثقافة الأوروبية بنوع خاص ، واهتماماته الفكرية العربية والإسلامية يطبعها هذا الميل ، وكما يقول عن نفسه فإنه تتلمذ كطالب فى كلية الآداب على أوروبيين من أمثال **لالاند** ، **وباول كرواس** . وهو مصرى من مواليد قرية **شرباص** سنة ١٩١٧ ، وكتاباته يهتم بها كثيراً المستشرقون خاصة ، وكان حصوله على الماچستير عن **مشكلة الموت فى الفلسفة الوجودية** ، وعلى الدكتوراه برسالة عن **الزمان الوجودى** ، وله أكثر من مائة وعشرين كتابًا أغلبها فى موضوعات تدخل ضمن دائرة **الاستشراق** ، وخاصة ما يتصل منها بالتصوف .

ومن رأى الدكتور بدوى : أن **الوجود** مطلق ومعين ، **فالمطلق** تصوره أعم وغير قابل لأن يُحدّ ، ومن ثم فهو غير معروف الماهية . وفى الواقع فهو ليس وجوداً على الحقيقة ، لأنه إما قد صرف فيه النظر عن كل تعين ولا سبيل للوصول إليه إلا بالتجريد عن الواقع ، وإما وجود كلى على هيئة الروح المطلقة أو الصورة وهو أيضاً نوع من التجريد .

والوجود الحقيقي الذى لا سبيل إلى إنكاره والذى يفرض نفسه فرضاً هو **الوجود الفردى أو وجود الذات** ، وهو وجود شاعر بوجوده ، والذات تحيل إلى نفسها وتوغل فى الاستبطان الذاتى ، وتحقق فيه إمكانياتها عن طريق الفعل باستخدام الذوات الأخرى كأدوات ، وهى تريد فى حرية ، وتختار ، وكلما زادت حريتها زادت همومها بمسئولية اختياراتها ، وشعورها بالقلق والتضحية نتيجة ما تدخل من مخاطر ، ووجودها لذلك **وجود متوتر** مفتوح على إمكانيات لانهائية ، وتستشعر فيه الذات بمعنى لانهائى لنفسها ، ووجودها الذاتى الممكن ، أو ما يسميه الدكتور بدوى **الوجود الماهوى** ، وهو نمط الوجود الذى للشخصيات الصوفية النبيلة من أمثال رابعة العدوية وشبيهتها تريزا الآبلية التى يذكر لها الدكتور بدوى مقالتها « **أنا وحدى مع الله وحده** » ، فهى معزولة كاملاً مع مسئوليتها الهائلة ، وشاعرة بماهيتها وحريتها المطلقة .

ومثل هذا الوجود هو **الوجود الأصيل** ، لأن الذات فيه تملك نفسها ولا يملكها غيرها ، على عكس **الوجود الموضوعى** الذى تكون فيه الذات مملوكة للغير ، أو مستعبدة لأشياء . **والسقوط** بالنسبة للذات هو هذا الوجود الموضوعى الذى يتحصل للذات بكثرة اتصالها بالذوات الأخرى وبالأشياء ، وكلما قلّ هذا الاتصال وكان استبطان الذات لنفسها كلما ارتقت فى سلم الوجود .

ووجود الذات لابد فيه **من الزمانية** ، والوجود بما هو كذلك لابد أن يكون وجوداً فى الزمان ، أما ما يقال له **الوجود فوق الزمان أو العالم الآخر** ، فإنه طالما ينسبب إلى الوجود فهو زمانى ، **ولا يرى له الدكتور بدوى وجودًا على الحقيقة ، فهو وجود موهوم ، ومصدر القول به محاولة الإنسان القضاء على الجزع من الزمان ، وكل إحالة إلى وجود غير زمانى إحالة إلى اللاشىء** .

وأما الوجود بما هو كذلك فهو هذا الوجود الحى المنشب أظافره فى الحياة المضطربة بالتجارب الحية ، وليست التجربة الوجودية إلا معاناة الذات الوجدانية لما عليه الوجود فى نسيجه الحى من تناقضات .

والتوتر الوجودى عند الدكتور بدوى هو اسم آخر **للديالكتيك** ، ويعنى أن الذات فى

وجودهــا الماهوى تتردد بين متنافــرين ، وينساق وجودهــا فى وحدة تجمع بين النقيضـين ، فالذات تتألم إذ تشعر أن هناك ما يحدها فى وجودها العينى ، وهى تريد أن تحقق إمكانياتها فى العالم لأن الأصل هو تحقيق الإمكانيات بقدر التوسع والطاقة ، ولكنها تلقى المقاومة من الغير ، وكلما زادت الإمكانيات التى ترى أن تحققها زاد الألم الناتج تبعاً لزيادة المقاومة التى تلقاها .

والتضحية هى أعلى درجات التألم ، وبها يكون أيضاً أعلى تحقق للذات بالسرور ، أى **أنه فيها** يلتقى أعلى الألم وأعلى السرور وهو سرور بتحقق الإمكانيــات ، ومع زيادة إمكانية هذا التحقق تكـون زيادة السرور ، وأعلى درجات السرور هى التى تتحقق عندمــا تستشعر الذات أنها هى نفسـها بكل ما وسعها تحقيقه من إمكانيات .

وفى **التضحية** تكون الذات فى أوج إيثــارها المحِقّق لأكثر الإمكانيات الـذاتية ، مع إغناء أكبر قدر من الذوات الغيرية فى نفس الآن . **والإيثار** يتضمن معنى الحب للغير ، ولكن الحب بالمعنى الوجودى معناه استغراق الذات للغير فى نفسها ، لتشعر الذات أنها وحدها الموجودة حقًا ، وذلك يعنى أنها ستكره كل ما عداها .

وفى **التصوف** تنتشر الذات لتشمل كل الغيريــة ، والمحب من الصوفية هــو الذى يتسع وجوده لينتظم كل الذوات والأشياء ، وفى الحب تكون الغيرة ، **والغيرة** هى اجتماع أعلى حب مع أعلى كراهية ، فيكّن المحب لمحبوبه أشد الحب ويضمر لمن سواه أشد الكراهية .

وأيضــاً فإنه إذا كــان على الـذات أن تختار بين الممكنــات فإنها **تخاطر** فى اختيارهــا ، **والمخاطرة** هى الفعل الأول للذات المريــدة ، وكلما قل اليقين فى الممكنات زاد مقـدار الخطر . وأيضاً فكلما زادت قيمــة الفعل زادت فيه المخــاطرة ، **والأمان** هو المقابل **للخطر** ، والخطر والأمان الخالصــان مستحيلان ، لأن ذلك مضــاد للوجـود الحى ، ولا يتبقى إذن إلا **وحدة الخطر الآمن** ، كما لم يتبق إلا **وحدة الحب الكاره ، والتألم السار** ، وذلك ما يكفل للذات أن توجد وتحقق الإمكانيات فى حرية ومسئولية .

ولما كان **مذهب الدكتور بدوى** يقوم على افتراض أن الذات لكى تكـون نفسـها لابد أن تكون معزولة أو منفصلة ، فإن الذات فى سيرها من مخاطرة إلى مخاطرة لا يتم لها ذلك على

التواصل ، ولكن فى وثبات أو **طفرات**، وتعنى الطفرة **التعالى** ، لأن تحقيق **الإمكانيات** فيه السمو والارتفاع بالذات وإغناء مضمونها ، وليست عملية الوجود إلا محاولة **الذات** أن تعلو على نفسها نحو المستقبل .

هذا إذن هو **مذهب الدكتور بدوى** ، وقد سبق أن قدمنا تحليله لحياة رابعة ، وكما ترى فإن التحليل يتفق تماماً مع المذهب ، فرابعة من الشخصيات المبدعة التى تعيش فى قلق ، وحياتها متوترة شديدة التوتر ، وقد شدّتها إليها من أول الأمر حياة المجون ، ثم مالت من بعد إلى حياة الزهد ، والحياتان قمة **التطرف** ، وهو التطرف الخلّاق ، ففى **المجون** هى العازفة والمنشدة المبدعة ، وفى **الزهد** هى الرائدة صاحبة الفكر المُؤَصِّل الفريد ، ونصيحة الدكتور بدوى **لكل من يريد الإبداع أن يتطرف** .

ويفسر الدكتور انحراف رابعة الجنسى بأنها ذات **مزاج فنى** ،فلم تجد فى غير الفن مجالاً للظهور والمشاركة فى الحياة ، **والفن والجنس** مرتبطان ، ورابعة كان لها الكأس المُعلّى فى المجالين ، فهى عازفة ممتازة ، وهى أيضاً كما يقول الدكتور قد قطعت شوطاً طويلاً فى طريق الإثم ، وغرقت فى بحر الشهوات ، واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة ، ودليله على ذلك أنها تابت من بعد ذلك ، فهذه التوبة هى أصدق دليل على اندفاعها إلى أبعد حد فى طريق الشهوة .

ويبدو أن المذهب الوجودى الذى يعتنقه الدكتور والذى يقال فيه ما يسميه **منطق التوتر** هو الذى حاد به أن يفترض هذه الفروض فى حياة رابعة ، وأن يفسر كلام **العطار** فيها هذا التفسير ، وقد بدأ الدكتور كتابه بأن رسم لمدينة البصرة حيث منبت رابعة ومنشؤها صورة فيها التناقض والتطرف ، فقد جعلها مدينة تجمع بين الحياة اللاهية والأشواق الصاخبة والمساجد والربُط والمكتبات ، وجعل سكانها أحد اثنين ، فهم إما **إبن أبى عيينه** صاحب الشعر الماجن ، وإما **رياح بن عمرو القيسى** الصوفى المولّة البكّاء ، الذى كان يصرخ إلى الله فيفتت صراخه منْ يسمعوه شفقةً عليه ورحمةً به .

وكانت هذه الصورة للبصرة بمثابة التمهيد لما سيكون عليه صورة رابعة نفسها ، فرسمها موغلة فى الفجور ، ودائبة على الاستغفار . وطالما أنها تطلب التوبة فلابد أنها

ارتكبت المعاصى ما وسعها ، وبذلك فقد تكون فى تماس . وواضح من مذهب الدكتور فى الوجودية أن من تكون المواصفات التى وضعها للوجودى هى سمات شخصيته فإنه لابد أن يكون **عصابياً** ، فتلك أعراض **العصابية** التى يذكرها علماء النفس للمرضى بها ، غير أنهم يميزون بين العصابية المُمْرضة السلبية وتلك الإيجابية الخلاّقة ، ومبدأ التوتر الذى يقيس إليه الدكتور بدوى شخصية رابعة هو فى حالتنا هذه ينطبق على المبدعين ويتحراه أصحاب القيم .

وقد تتسائل عن سبب استهجان الدكتور بدوى لأساطير العطار حول رابعة وخوارقها التى تعرف باسم **الكرامات** ، وتعجّله فى قبول واقعة أن رابعة امتهنت العزف كسبيل لتعيش ، وقد يشدنا إلى الإجابة على ذلك أن نعلم أن المذهب الوجودى للدكتور يملى عليه ذلك ، فهو مذهب **إلحادى** ، وكما يقول الدكتور أنه « **لاوجود خارج الزمان** » بمعنى أنه ينكر الآخرة ، وذلك نفسه ما يطرحه القرآن عن الملحدين فى قول الله عز وجل : ﴿ **إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين** ﴾ . والدكتور من ثم يشكك فى أن رابعة فى شدّتها وكربها قد طَمْأنها الله وَحْيّاً بهاتفٍ يقول لها « لاتحزنى ! ففى يوم الحساب يتطلع المقربون إليك ويحسدونك على ما ستكونين فيه » ، وأنه من قبيل الخيال الجامح أن ينسب إليها العطار تشعع النور ، بحيث يملأ البيت ويشاهد ذلك مخدومها فيعتقها فى الصباح . ويصف الدكتور أقوال العطار **بأنها أسطورية ولا يستطيع المؤرخ إلا أن ينعتها بذلك** ، ويفسر هذه الظواهر أو الكرامات تفسيراً نفسياً فينسب لرابعة وللعطار **ازدواجية نفسية** ويقول : « إنها أمور لا تتأبى على منهج البحث النفسانى العلمى إذا ما فُهمت على أنها أحوال من الكلام النفسى الصادر عن ازدواج النفس حينما تلم بها الملمات » .

والآن ما قول الدكتور فى **علم النفس الغيبى أو الباراسيكولوچيا** ، وهى الميدان فى علم النفس الذى يشتغل فيه مئات من العلماء والفلاسفة ، وكان منهم **سدجويك وچود ، ووليام چيمس ، وهنرى برجسون ، وجيلبرت موراى ، وجاردنر مورفى** ، وهؤلاء أسسوا أول جمعية للبحوث النفسية العصبية ، وكان من أهدافها طبقا لما جاء فى بيان تأسيسها إثبات وجود الروح ، وأن الموت ليس نهاية للحياة ، وأنه بعد الموت هناك عالم آخر وخلود ؟

ويبدو أنــه كانـت هناك حـاجة ملحة إلى هـذه البحوث مـع ظهور الفكـر المادى الملحد وانحسار القيم الـروحية ، وقـد انتشرت الجمعيات النفسيـة من هذا القبيل فى بـلاد العالم المتقدم كفرنسا وانجلترا والسويد وسويسرا وكنـدا والولايات المتحدة وإيطاليا ، وفى جمعية لندن اشتـهر **ستانلى هول وچوسيا رويس ومورتون برنس** ، وكلهم من العلماء الأفاضل فى علم النفس والطب النفسى والفلسفة .

ويذكـر تاريخ هـذه الحركة النفسيـة الغيبية أن أول معمل نفسى غيبى أنشـىء سنة ١٩٢٧ ، وأشرف على تأسيســه عـالم النفس الأشهـر **وليام مكدوجال** وعهد بـرئاسته إلى تلميذه **چوزيف بـانكس راين** ، وشغل راين كـــرسى **الباراسيكولوچيا** بجامعة **ديوك** الأمريكية من سنـة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٥٠ ، ويصف **راين** إدراك الظواهر النفسية الغيبية بأنه **إدراك فوق حسى** **extrasensory perception** ، ولما نشر كتابه بهذا الاسم كانت له شهرة ودوى فكرى كبير .

والكرامات مجال من مجالات علم النفس الغيبى ، والاعتقاد فيهـا من بين دراسات هذا العلم ، والكرامــة لا تكون إلا لولّى ، والمعجزة للنبى ، وقـد شهد للكرامة وللمعجـزة فلاسفة وعلماء كبار من بين المسلمين والمسيحيين واليهـود ،وشهاداتهم بـالقطع ترجُح على تقـرير الدكتـور بدوى . ولنا أن نتساءل : هل من الممكـن أن يكون هذا الكون بما عليــه من أنظمة تستهدف غايات بعينها قد وُجِـد من قبيل الصدفة أو العبث ؟ وهل هناك من يقول **بالقطع** أن هذا الكون لم يكن لــه مريد وخالق مبدع ؟ ومثلما نقول إن العبقريـة والأفكار الملهمة من خصائص أهل الفكـر الكبار ، فكذلك الكرامـات من خصائص الأولياء ، وكلاهما العبقـرية والكرامة هبة من الله لمن يشاء من عباده .

وإذا كان للدكتور أن يشكك فى أقوال العطار عـن كرامات رابعة وتأكيدات العطار لها ، فلماذا لا ينسحب التشكيك على قول العطار عنهـا أنها بعد أن أُعتقت « اتخذت مهنة العزف على الناى زمناً ، ثم تابت بعد ذلك وابتنت لنفسها خلوة انقطعت فيها للعبادة » ؟ ولماذا يقول عن هذه الرواية للعطار « أنها وإن كانت لا تتفق مع ما أراد أن يرسمه عن رابعة من صورة خيالية مسرفة فإنه ـ أى الدكتور بدوى ـ يقطع بصحتها ،لأن العطار أو غيره ما كان يمكن

أن يذكـرها لو لم تكن صحيحة ، لأنها ليسـت مما يشرف به قدرهـا ، وهو وغيره من رواة أخبار الصـالحين كانوا حـريصين كل الحرص على أن يُزوّقـوا ما استطاعـوا فى ترجماتهم لحياة أولئك الصالحين » !!

ويبدو أن الدكتور قد نسى أن العطار نفسه كاتب هذه الترجمة لم يكن يجد إلاّ الشرف كل الشرف للصوفى فى العزف على النـاى . وقد نبيح لأنفسنا أن نذكّر الدكتـور بأن مدرسة العطار فى التصـوف وفى الشعر الذى كـان ينشده فى حلقـات الذكر والحَضرة يقـومان على الموسيقى ، وأخصها الموسيقى التوقيعية بالدفوف ، والموسيقى المرسلة بالناى . وكان شعر العطـار إمّا ربـاعيات أو مثنـويـات ، ليسهل توقيعـه وتأثيره على السـامعين ومصاحبتـه بالحركات الراقصة المعروفة عند **الدراويش** . ولقد تأثـر به **المولوية** كثيراً ، وكـان أغلب شعره من بحر الهزج وكان شعـر رابعة كذلك من **بحر الكامل** ويسهل إنشاده وتوقيعه ومصـاحبتـه إرسالاً بمـوسيقى النـاى ، ولم يكن منّ المعقـول أن يـؤلف العطـار **تذكرته** الصوفية ويستشعر أن عزف رابعة على النـاى يمكن أن يحرجها تاريخياً ويكتب عنها ذلك إصراراً حتى ولو كـان امتهانها على الحقيقة . وكان مقصود العطـار من تأليفه **للتذكرة** أن تكون لقراءة إخوانه من الصوفية والمريدين ، ليكون بها اعتبارهم ، وأطلق عليها لذلك اسم « **تذكرة الأوليـاء وتبصرة الأصفياء** » ، **فهل كان من المعقول أن يكتب عنهـا ما يفسد عليه هدفه من كتابة التذكرة ؟**

ومع ذلك فلربما ـ ولنستخدم منهج الاحتمال مثل الدكتور بدوى ـ انتُحلت هذه الفقرة ودُست فى التذكرة كما انتُحل الكثير من شعر العطار ،ومن أحـاديث الرسول عليه السلام . غير أنى أعتقد أن هذه الفقرة قد كتبها فعـلًا العطار ، وما كان يقصد بها تجريحاً أو قدحاً فى رابعة ، وما كـان يعلم أن أستاذًا عظيمًا مثل الدكتور بدوى سيستغلها لتشـويه سيرة هذه الصوفية المتألهة !!

والعطار لا يمكن أبدًا أن يكـون قادحاً لـرابعة وهـو العابد الصـالح ابن الصـالحين ، والذى كان قلبه منذ طفولته الباكـرة يطفح بحب أهل الله من الصوفية ، وقد كتب فى مقدمة تذكـرته أنه يـريد بهذا الكتاب أن ينفعـه فى الآخرة ، وتكـون له به الشفـاعة يوم القيـامة ،

ووصف كتابه هذا بـأنه لايرى فى الدنيا ما هو أحسن منـه من تأليف بشر ، وأنه به ستبقى ذكراه فى الدنيا فيدعو له من يقرأه .

فهل من الممكن بعـد ذلك أن يكون قَصْـد العطـار من إيراد مهنـة رابعة أن يستخلص منها الدكتور بدوى أنها كانت من بنات الهوى ؟ ولم أجد فى الحقيقة ذريعة تذهب بالدكتور هذا المذهب فى التخريج إلا أن يكون ذلك ما يمليه على الدكتور مذهبه الوجودى ، ولقد تبينت تأثر الـدكتور بـدوى الشديـد بكتاب **لسيمون دى بـوڤوار** رفيقـة سارتـر على الـدرب ، واقتباسه منه . هـذا الكتاب هو **الجنس الثانى Le Deuxieme Sexe** ، حيث تقـول سيمون مقالة الدكتور بدوى نفسها ضمن باب « **البغايا والمحظيات** » : فقد كانت هناك دائماً صلة غـامضة بين **البغـاء والفن** بحكم هـذا الارتباط الغامـض بين الجمال والملذات الجنسية . وتقول **سيمون** فى باب « الصوفيات » : إن الحب كـان رسالة المرأة وتخصصها الأسمى . وعند ما توجهه مباشرة نحو رجل من الرجال فإنها فى الحقيقة تبحث فيه عن الله ، فإذا لم تواتها الظـروف وحيل بينها وبين أن تحب إنســـانًا على السـوية ، أو إذا فشلت فى حبها ، فقد تختار أن تتـوجه بحبها مباشرة لله ، ويستغرقها حبهـا له عن كل الدنيا . ومن الرجـال من اكتوى أيضاً بحبه للـه ، غير أن المحبين لله قلة لـو قيسوا عددًا بالمحبـات لله . وتجربة النسـاء فى ذلك لها طبيعة عاطفية خاصة ، فالمرأة ـ كامرأة ـ فى طبيعتها أن تركع إذا أحبت ، بينما الـرجل يحب وقـد زانـه حبه وكـأنه المجـد يكللـه ، والمرأة والـرجل فى حبهما يتواصـلان مع الحضرة الإلهية بـالرموز ، والـرجل يستفتى قلبه فى حبـه ، والمرأة تتسامى بحبها الأرضى وتـرتفع به إلى السماء . وهى فى حبها تبـدو كالممسـوسة الـوالهة بالحب **erotomaniaque** ، فما أشبهـها بـالمرضى الذين يشكـون هـوس الحب . وتختلط على الصوفيـات الصورة الإنسيـة للذكر بـالصور الإلهية حتى لتخـاطب الواحـدة الله وكأنها تتوجه بخطابها لرجل .

وتقول **سيمون** . إن علماء النفس متفقون اليوم على أن هـوى الحب يمكن أن يظهر فى شكل أفلاطونى ، كما يكون أيضًا له شكل جنسى صريح ، ولذلك فإن المرأة المتصوفة قد لا تربط فى حبها لله بين توجدها له وبين ملذات جسدها .

وتقتبس **سيمون** من مأثورات **القديسة تريزا** قولها : إن قلبها ينزف لأن الله قد اختار أن ينفذ إلى داخلها ويشعله بالمحبة له ، وإنها لتتألم لذلك أشد الألم .

وتقول **سيمون** : ولربما تضطر المرأة المتصوفة — عجزًا منها عن التعبير إلا بلغة أرضية — أن تستخدم مصطلحات المحبين ، وتتحدث كما لو كانت تهب نفسها إلى رجل من أهل الأرض وليس إلى الله ، وقد يتسبب ذلك فى الكثير من النقد للغة التصوف عند الحديث عن هذه اللغة فى مجال المحبة الإلهية ، فمثلا تشكو القديسة **أنچيلا الفولينية** أنها قد هزلت وشحب وجهها وصار قلبها رهيفًا لا يحتمل ، وأنها صارت تريق مدرار الدموع . وتلك أعراض نعرفها لبعض المحبين الوامقين ولا يمكن أن نصفها بالروحانية ، إلا أنها فعلاً كذلك وإن كان الوصف بما نعرف من الكلمات المرتبطة بالشهوات الحسية . ولقد كانت **القديسة تريزا** تتهالك وتسقط على الأرض وكانت تنبطح باكية ومتشنجة ، ولو لم تكن هى الصوفية التى نعرف عنها استواء الطبع لقلنا إنها مريضة بنوع من أنواع الهيستيريا .

ذلك إذن رأى **سيمون دى بوڤوار** الوجودية ، ومدرستها قريبة من مدرسة الدكتور بدوى ، فماذا يقول الدكتور بما يشبه ذلك أو يتطابق معه ؟ يقول : لابد لتفسير الانقلاب الروحى عند رابعة أن تكون قد عانت تجربة يائسة من دنيا الناس ، ولابد أن نفترض هنا خصوصًا تجربة حب مخفق يستشرف إلى سراب زواج أو ما إليه . ويفسر الدكتور بدوى بذلك استخدامها لألفاظ المحبين فى مجال الحب الإلهى من مثل قولها إلهى ! أنارت النجوم ونامت العيون وغلّقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه ! — وقولها : فليت شعرى أقبِلتَ منى فأهنأ ! — وإنشادها للشعر الذى تقول فيه :

يا سرورى ومنيتى وعمادى ... وأنيسى وعدتى ومرادى
أنت روح الفؤاد ، أنت رجائى ... أنت لى مؤنس وشوقك زادى
أنت لولاك يا حياتى وأنسى ... ما تشتت فى فسيح البلادِ
كم بدت منة لك عندى ... من عطاء ونعمة وأيادى
حبك الآن بغيتى ونعيمى ... وجلاء لعين قلبى الصادى
ليس لى عنك ما حييت براح ... أنت منى ممكن فى السوادِ
إن تكن راضياً علىّ فإنى ... يا منى القلب قد بدا إسعادى

ويقول الدكتور بدوى . « والطابع الحسى ظاهر بجلاء فى هذه الأبيات ،ويلوح منها أن الأمر كـان لايزال مختلطًـا عليها ، لأن الخطـاب يصلح هنا أن يتجـه إلى شخص حسى كما يصلح بصعوبة أن يتجـه إلى الله ، بل هى فى هذا الشعر قـد تناست أو نسيت أنهـا تخاطب اللـه ، فتحدثت عن حبيب لها يلـوح أنه كـان متنقلاً ، فـاضطرت هى تحت ستـار الترحّل لكسب العيش بـالعزف ـــ كما هى الحال بالنسبـة للموسيقيين عـامة فى تجوالهم لإحيـاء حفلات فى مختلف البلدان ـ أن تلاحقـه فى الأماكن التى كان يتنقل بينها ، ولهذا اضطرت إلى التشتت فى فسيح البلاد ، لعل ذكرى هذا لحبيب الذى يمكن افتراض أنه كان العلّة فى إحداث خيبـة الأمل عندهـا فى الحياة والنـاس ، قـد اختلطت فى ذهنها آنـذاك فعبرت بهذه الكلمات المشبوبة الحسية عن تجربتها معه وإن كـان الخطاب موجهاً إلى الله ، ذلك أنها لن تستطيع أن تتحدث عن حبها له إلا إذا صدر ذلك عن تجربة حية عانتها ، وتلك كانت تجربتها العنيفة الحية ، فحدثت هنا ظاهرة القلب للموضـوع مما يحدث دائماً فى أمثال هذه الأحوال إذا كانت العبارة مخلصة وليست مجرد صياغة لفظية خالية من كل حياة .

وينصح الـدكتور كل مـؤرخ إذا صادف إخـلاصاً فى التعبير عنـد الصوفى أن يفترض وجود تجارب حية صـدر عنها ، فَقَلَب موضوعها من المحســوس الإنسانى إلى الكائن الأعلى الإلهى . وواضح من هـذا الكلام استماتـة الدكتـور أن يطـابق بأى شكل بين حياة رابعـة العدوية وبين مـا يذهب إليه من مقولات وجـودية ، ويفترض لذلك أن كل ما يقـوله الصوفى المخلص من باب المحبة الإلهية لابد أن يكون له أصل فى تجاربه الحسية ، وعلى ذلك فإن كل طائفـة المحبين من الصوفية لابـد قد كانت لهم تجارب فى الحب يـائسة صرفتهم عن الحس الإنسى إلى الحب الإلهى ، وكأن هؤلاء لم يكن فيهم الذى كان يجد سعـادة نفسه فى الوقوف على حقائق الأشيـاء وماهيتهـا وصلاح الحال فيهـا ، ويبصر الموجودات فى ذاتها وخـالص جوهـرها ، ويعلم عن المبـدع الأول وشرفه ما هـو عليه من الفضل والعـزة والعلو والكمال ، ويعرفه ويتحصل له بمعرفته السرور والفناء فى حبه ، ويعالج أخلاقه ليكون شبيهًا بالخير المحض ، ويصرف عن نفســه شـواغل الجسم ، ويترقى فى معراج المحبـة والشـوق إلى ذلك الكمال الذى هـو الله ، فيبصر من نوره ، ويقع فى لذة المشـاهدة وقهر العشق ، وتلك حـالة عرفها الفلاسفة المتألهون ، وعاناها الصوفيـة العارفون ، وطريقتهم تزكية النفس بالجسد فى احتمال العبادات ، وملازمة الأذكار ، والسلوك بأسرار الحروف .

وإننا لنجد نفس الأفكار عند الدكتور بدوى وعند سيمون دى بوڤوار ، فتقول سيمون : إن المرأة الصوفية فى محبتها لله لا يمكن إلا أن تكون قد عانت فى أول أمرها من رغبات عشق تتحول بها إلى معشوق من الرجال ، ثم تتجرد عندها عند الإحباط ، وتكون محبتها لله خلاص لها من كل محبة أرضية تلحق بها المذلة أو العار ، وإن القديسة تريزا لتجهد لكى تتوحد بالله وأن تعيش هذه الوحدة فى جسدها .

والدكتور بدوى يضرب المثل صراحة بالقديسة تريزا ويشبّه بها رابعة وينقل عنها أيضا قولها : « من ناحية كان الله يدعونى ، ومن ناحية أخرى كنت أشارك فى الدنيا ، وكنت أجد فى الأمور الإلهية نعيماً كبيراً ، بيد أن قيود الدنيا كانت لاتزال تأخذ بمخنقى حتى ليبدو لى أنى كنت قد أردت أن أحالف بين هذين الضدين برغم ما بينهما من عداوة : الحياة الروحية بنعماتها وحياة الحواس بشهواتها » .

وهذه المقارنة بين الصوفية **المسلمة** والأخرى **المسيحية** هى التى تجعل الدكتور يصوغ حياة رابعة على منوال **تريزا** ويشابه بين حياتيهما . وذلك التحليل لسيمون دى بوڤوار لحياة تريزا هو الذى يستلهم منه الدكتور تحليله لحياة مزعومة لرابعة يفترضها افتراضاً وينشئها إنشاءً ليناسب بين مقولته الوجودية وبين هذه الصوفية المسلمة . وخطابه الذى يتوجه به فى الكتاب هو خطاب موجهٌ للمستشرقين أكثر منه للمسلمين والعرب . ومقارناته قد تقنع المستشرقين إذ يحيل فيها لأمثال تريزا وبولس وأوغسطين ، ولكنها لا تقنعنا يقينًا ، وذلك أننا لا نجد مشابهة بين حياة رابعة وحياة تريزا . وقد نعذر الدكتور إذ يجعلهما متشابهتين قسرًا ، ويقارن بينهما من بعد ذلك ، ولكننا لا نعذره فى مقارنته للانقلاب الروحى عند بولس ورابعة ، أو عند أوغسطين ورابعة ، **فبولس** كان قبل اعتناق المسيحية مؤمنًا شديد التعصب لليهودية ، ولم يكن منحلاً داعراً أو فاسقاً شهوانيا ، وعلى ذلك لا نسمى انصرافه عن اليهودية إلى المسيحية انقلاباً روحيا ، ولكنه تحول عقدى وليس روحانياً . وكذلك فعل **أوغسطين** ، فقد كانت حياته السابقة على اعتناقه المسيحية متمشية مع وثنيته ، فكان فى الوثنية المفكر المجلّى ، فلما تحول إلى المسيحية نبغ فيها نبوغه فى الوثنية ، وصار علماً من أعلامها . والخلط الذى يتردى فيه الدكتور ويجعله يشبّه رابعة بتريزا أن هذه وتلك كانتا من المحبات لله ، **والمحبة لله فى الإسلام تختلف عنها فى المسيحية** ، وذلك ماسنتناوله فى الباب القادم إن شاء الله .

الفصل الرابع

محبة الله فى الإسلام و فى المسيحية

★★★

المحبة فى اللغة العربية أصدق اشتقاقًا منها فى اللغات الأوروبية ، واسم المحبة أو الحب سواء كان love أو amity فى الإنجليزية ، أو amour فى الفرنسية ، أو amore فى الإيطالية أو amor فى اللاتينية، أو liebe فى الألمانية ، فإنه لا أصل له ينسب إليه ، بينما فى اللغةَ العربية نسبوه للحبّ وهو اسم صفاء المودة ، لأن العرب يقولون فى صفاء بياض الأسنان حبب الأسنان ، والحباب ما يعلو الماء عند المطر الشديد ، وعلى هذا كانت المحبة ، فهى غليان القلب واهتياجه عند العطش إلى لقاء المحبوب . وحَباب الماء معظمه ، وسميت المحبة به لأنها غاية معظم ما فى القلب المحب . ويقال أحب البعير بمعنى يبرك فلا يقوم ، وهكذا المحب المقيم على حبه . وقيل الحب فى اللغة هو القرط للزومه الأذن ، وحَبَّة القلب ما به قوامه ، ومثلما الحبة لباب النبات فكذلك الحُب لباب القلوب والحياة .

★★★

والمحبة عند المشايخ إيثار المحبوب ، أى الله سبحانه على كل ما عداه ، وموافقته فى المشهد والغيبة ، ومحو الصفات الإنسية للمحب الصوفى ، وإثبات المحبوب أى الله بذاته ، وفى ذلك يقول **الجنيد** فيلسوف لصوفية والذى قام بتعريف مصطلحات التصوف إن **المحبة لله** هى دخول الصفات الإلهية على البدل من صفات المحب الصوفى ، فأشار بذلك إلى استيلاء ذكر الله المحبوب على قلب المحب الصوفى ، حتى ليكون الغالب على قلبه ذكر صفاته تعالى متغافلاً بالكلية عن صفات نفسه والإحساس بها .

★★★

والمحبة لله تعظيم له سبحانه ، فلا يستجيز الصوفى تعظيم سواه ، ولا يقر من دونه ، ولا يصبر عنه، ويؤثر رضاه ، ويهتاج إليه ، ويستأنس بذكره له فى قلبه .

ومحبة الحق سبحانه للعبد إرادته لإنعام مخصوص عليه كما أن رحمته له إرادة الإنعام ،فالرحمة أخص من الإرادة ، والمحبة أخص من الرحمة ، وإرادة الله تعالى لأن يوصل إلى العبد الثواب والإنعام تسمى رحمة ، وإرادته لأن يخصه بالقرب والأحوال العلية تسمى محبة .

★★★

والحب أو المحبة التى يقول بها **الصوفية** تحدثوا فيها على طريقة الفلاسفة فصنفوها أصنافًا وجعلوها مراتب وعرّفها فقالوا إنها الموافقة ، ثم الميل ، ثم المودة ، فيكون الهوى ، فتكون الخلة ، ثم المحبة ، فالشغف ، فالتيم ، فالوَلَه ، ثم العشق . فالمرتبة قد تُسلِم للتى بعدها ، وقد يستمر الترقى حتى يتحقق العشق وهو تمام المحبة ومنتهاها . **ورابعة العدوية** كانت لها هذه المرتبة فهى المتعشقة لله تعالى .

ولقد أخطأ **سميح الزين** فى كتابه عن رابعة حيث قال : إن الحب الإلهى كما اعتقده الصوفية لايعدو كونه وجهاً من الوجوه المغلوطة عن حقيقة حب الله ، لأنه خرج عن مفهوم التقديس والخشوع والذل للإله الواحد الأحد ، وهذا ما قاد أصحابه إلى الزلل والخطأ ومخالفة أوامر الله ونواهيه وبالتالى إلى الابتعاد بالكلية عن العقيدة الإسلامية ، وذلك لأن وقوف مخلوق مع الخالق واتخاذه محبوباً وعشيقاً له على نفس الأسس التى يحب ويعشق بها مخلوقاً مثله ، إنما هو خلع لطاعة الله ،ومخالفة للعقيدة ، وخروج على أبسط قواعد المحبة الربانية الصادقة التى هدانا إليها القرآن الكريم .. ولم يكن فى الدعوة (الإسلامية) أى أساس لحب بين عاشق ومعشوق كما فى دنيا الأرض تمرغ بوحل عشق الجسد وترابه .

وواضح أن مشكلة فهم الحب الإلهى أو المحبة الصوفية فى الإسلام عند هذا الكاتب هى مشكلة اللغة والتعبير بها عن المشاعر الإنسانية لله سبحانه ، ولقد سبق أن ظهرت مشكلة اللغة فى الدين عموماً فى الخلاف بين أهل الظاهر وأهل الباطن ، وتفسير الآيات التى وردت

بها صفات تشبيهيـة عن الله تعالى ، من مثل أن يكون لـه يد، وأن يأتى ، وأن يجلس ، وأن يتكلم ، ويحب ،ويريد . إلخ . ومشكلة التعامل مع لغة الصوفية هى قضية هذا العلم الأولى ، وهى قضية كل اللغة فى مجال الميتافيـزيقا أو الإلاهيات ، وإلا فكيف نفسر الآية الكريمـة : ﴿ **فسوف يأتى الله بقـوم يحبهم ويحبونه** ﴾ ، والحديث الشريف : « **من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه** » ، والحديث القدسى : « **ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، ومن أحببته كنت له سمعـاً وبصراً ويداً ومؤيداً** » ؟ فكيف لعبد محب للـه تعالى إلا أن يقول مثل ذلك فى محاولـة لإدخال المعنى اللغـة التى يعرفها والتى مـؤداها تجاربـه الحية اليومية . والمحبة عند الفلاسفة المتألهين حال شريفة يشهد بها الحق سبحانه . للعبد فأخبر عن المحبة لـه ، والحق سبحانـه وصف نفسه بأنه يحب العبـد ، ووصف العبد بأنـه يحبه سبحانه وقـالوا محبته تعالى للعبـد من صفات فعله ، بينما محبـة العبد له سبحانـه حالة يجدها من قلبه ، وتلطُفُ عن العبارة .

★★★

ولقد قسّم الصـوفية المسلمون المحبة أقسـاماً ، فجعلوا خمسةً منهـا مقامات للمحبين السـالكين ، أولها الألفة ، ثم الهوى ، فـالخلـة ، ثم الشغف ، فالـوجـد . وجعلوا الخمسـة الأخرى مقـامات للعشـاق دون غيرهم ، وهى الغرام ،ثـم الافتتان ، فالـوله ، ثم الـدهش ، فالفناء . فكأن الوَجْد أعلى مقامات المحبين ، بينما **الفناء** هو أسمى ما يصل إليه العاشقون .

ورابعة كانت **متوجدة وفانية فى الله** ، فكانت شـهيدة عشقها ، ومن ثم كان اشتهارها باسم **شهيدة العشق الإلهى** الذى أوردهـا به **الدكتور بدوى** ، وسبقه إلى ذلك مـؤرخو سيرتها . والصوفيـة عندمـا يتحدثـون عن كل ما سبق من المدارج أو المراتـب أو الصنوف يسلكـونها جميعاً ضمن المحبـة ، باعتبـار المحبة شـاملة لها ، ويقـولون إن المحب إمـا أن يستعمل المحبة أو تستعملـه المحبة ، فإن استعملها وكـان فيها كسب واختيـار سمى محباً على الاصطلاح ، وإن استعملته المحبة فلا يكون لـه فيها كسب ولا اختيار ولا نظر لنفسه فهو **العاشق** .

ورابعة كانت العاشقة لله لذاته سبحانه ، وحبها له سبحانه ما كان لخوفها من عذابه ،

أو لرجائها فى ثوابه ، ولكنها تسامت بمشاعر العشق حتى كانت فى حبها أو عشقها المعلمة والمربية ، فكان الصوفية يسعون إلى مجالسها ويدقون بابها ، ليسمعوا لها ويأخذوا عنها وتدعو لهم بالخير .

وكانت رابعة صادقة لا تدّعى المحبة ، وعشقها لله أذواها وأدْوَأها واستهلكها ، فكانت أول **شهداء العشق الإلهى فى الإسلام** ، واستحقت مرتبة الشهادة ، وأن يقرن اسمها بالحب والمحبة ، فلقد كانت جميلة فى سمتها ونفسها وسلوكها ، والله تعالى جميل يحب الجمال ، والمحبة هى ميل الجميل إلى الجميل ، والشىء ينجذب إلى أصله وجنسه كما يقولون ، وينزع إلى أنسه ووصله ، وليس انجذاب المحب إلى جمال المحبوب إلا أنه وجد فيه صنو الجمال ، ووجود الجميل دليل وجود الجمال المطلق الذى نقيسه إليه ، وليس الجميل المطلق إلا الله تعالى ، والجمال الحقيقى صفة أزلية ، شاهده الحق سبحانه فى ذاته أولاً مشاهدة علمية ، فأراد أن يراه فى صُنعه مشاهدة عينية ، فخلق العالم كالمرآة هى عين ذاته . والحب الإلهى وراء حب العقلاء ، وحب العقلاء قائم بهم فيحبونه بحبه تعالى لهم ، وذلك معنى قوله تعالى . ﴿ **يأتى بقوم يحبهم ويحبونه** ﴾ .

والحب الإلهى فى التصوف الإسلامى هو بمثابة الروح ، والتصوف هو فلسفة الإسلام الروحية ، والتصوف النظرى والسيكولوچى هما مصدر الدهشة للمستشرقين ، ولهذا يقول **الدكتور بدوى** أنه من الواجب البحث فى أصول الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى ، وفى أقوال رابعة بالذات ، حيث أنها كانت ضمن الجيل الأول من الصوفية المسلمين الحقيقيين الذين أشاعوا فى التصوف نغمة الحب الإلهى فكانت بمثابة الروح الجديدة كل الجدة على التطور العام للحياة الروحية فى الإسلام . ويقول الدكتور إنه يجب البحث خصوصاً فى التأثير المسيحى .

ونحن نرى أن الجواب على هذا الاقتراح مرفوض من أساسه ، وذلك للاختلاف الجذرى بين المحبة الإلهية فى الإسلام وبين هذه المحبة فى المسيحية ، لسبب جوهرى هو اختلاف طبيعة المحبوب وهو الله سبحانه وتعالى فى الحالين ، واختلاف هذه الطبيعة يترتب عليه اختلاف الحب المتوجه منه تعالى أو إليه .

والإسلام دين توحيد ، بمعنى أن المسلم يشهد أن الله واحد لا تنقسم ذاته ، والتوحيد يعنى نفى التشبيه عن حقه وصفاته سبحانه ، ونفى الشريك معه فى أفعاله ومصنوعاته .

والمسيحية تقول بالتثليث، أى الإله الواحد فى ثالوث هى الأقانيم : الآب والإبن والروح القدس ، فالآب هو الله أصل الوجود ، والإبن هو الكلمة ويمثل العقل ، وروح القدس هى الحياة ، لأن الروح هى الحياة ، فإذا لم يتصف الله بالعقل والحياة فلن يكون موجوداً .

ويقول **القديس بولس** إن يسوع المسيح هو الرب الواحد ، ابن الله الوحيد ، مولود ولكنه غير مخلوق ، وهو إله حق من إله حق .

ومن هنا فقد أدخلت المسيحية فى التفكير الدينى مبدأ لم تسبقها إليه أىّ من الديانات السابقة عليها ، وخاصة اليهودية ، حيث أن التوراة تقضى فى أكثر من خمسين موضعاً فيها بأن **الله واحد لا شريك له ولا مثيل** . وهذا المبدأ الذى أدخلته المسيحية هو « **التجسد الإلهى** » ، ويعنى أن اللامتناهى والمتناهى يمكن أن يجتمعا فى شخص واحد وهو فى المسيحية شخص المسيح .

وبينما نجد لذلك أن محبة الصوفى المسلم لله هى نار تحرقه وتفنيه عن نفسه وتبقيه بالله ، فإن المحبة المسيحية تعنى إمكان الاتحاد بالله .

والصوفى المسلم لن يجد خلاصه إلا إذا كف عن الوجود واستغرقته الحقيقة الإلهية ، والفناء الصوفى فى التصوف الإسلامى هو تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية فيما عدا الذات ، وكلما ارتفعت بالمجاهدة صفة بشرية عن الصوفى حلّت محلها صفة إلهية ، وبذلك وحده يتحقق معنى الحديث القدسي فيكون الحق هوسمعه وبصره .

وفى حالة رابعة العدوية نجدها قد فنيت عن أهوائها ، وتركت التكالب والتعلّق بالأسباب فى جلب المنافع ودفع المضار ، كما لو كانت قد غُيِّبت فى رحم ، أو كما لو أنها قد تحولت طفلاً رضيعاً فى المهد ، وفى ذلك يقول **السرى السقطى** : إن الصوفى الفانى لو ضُرِب وجهه بالسيف وهو فى حاله لما أحس بألمه » . وقد ذكروا أن رابعة كانت فى الصلاة فسجدت على البوارى ، فدخلت قطعة قصب فى عينها فلم تشعر بها حتى انصرفت من الصلاة ، وكأن معنى الفناء أن يستحيل الصوفى إلى روح خالص ، ولذلك قد سموا طائفة الصوفية باسم **الروحانية** ،ومعناه أنهم الفئة التى يبلغوا فى تعبدهم لله وتركهم للدنيا أن تَضمُر

أجسادهم ، وتشف أرواحهم ، فإذا أدركهم الموت كانوا الأرواح الهائمة المتعلقة بعرش الله سبحانه .

وقد صنف الصوفية **الموت** أصنافاً ، فمنه **موت أحمر** يكون به فناء النفس عن شهوات الجسد ، **وموت أبيض** به يتنور الباطن بالجوع فيبيض وجه القلب ، **وموت أخضر** تكون به القناعة فيخضر عيش الصوف ، **وموت أسود** يكون به احتمال أذى الخلق والفناء فى الله لشهود الأذى منه ، برؤية فناء الأفعال فى فعل محبوبه .

وأما فى المسيحية فإن الموت لم يعد نهاية أو خاتمة بل أصبح مجرد عرَض أو حادثة ، وأصبح موت الذات بمثابة حياة جديدة تبدأ هنا والآن ، وتنتشر إشعاعاتها فتعم كل الدنيا . وليست الحياة فى الدنيا زمانية وإنما الحياة الخالدة هى هنا والآن **hic et hunc** ، مادامت الكلمة الإلهية قد تجسدت وأقامت بيننا ، وبذلك فقد تم الصلح بين السماء والأرض ، والروح والجسد ، وبانتصار المسيح بقيامته على الموت فقد عاد من القبر ليدعو إلى ديانة الحب وينادى بالمحبة ، ومن ثم كان طابع المحبة المسيحية هو الإحسان ، كالنور الإلهي الذى يفيض من الحق على الأبرار والأشرار على السواء .

ولا تعنى المحبة المسيحية الفناء عن الإنسى للبقاء بالإلهى كما فى الإسلام ، ولكنها زواج المسيح والكنيسة ، وفى حالة **القديسة تريزا** فقد تزوجت صراحة الكنيسة ، أو تزوجت المسيح ونذرت نفسها له على الحقيقة ، بينما رابعة شبيهتها فى تقدير **الدكتور بدوى** ـ لم تتزوج الله ، وكان اعتسافاً من الدكتور بدوى أن يتحدث عن رابعة حديث تريزا عن زواجها بالمسيح أو بالكنيسة ، حيث يقول : إن رابعة نذرت نفسها لله ، فإذا كان الزواج الحق هو زواج الحب ، وحبيبها الوحيد هو الله ، فإنه ما كان لها أن تقترن بغير الله ؟ !

وهكذا لايبنى الدكتور نظريته فى رابعة على وعى سليم بالفروق بين التصوف المسيحى والتصوف لإسلامى ، وإنه لخَرَق أى خَرَق أن يحاول أحدهم ردّ التصوف الإسلامى فى أصوله إلى المسيحية ، أو يربط بين رابعة التى توفيت سنة ٨٠١ م وتريزا التى توفيت سنة ١٥٨٢م !!

فما هى حكاية **تريزا ورابعة** ؟ وهل هما كما قال **الدكتور بدوى** مؤكداً « **ما أقوى الشبه بين هذه الصوفية المسلمة وبين تلك الصوفية المسيحية** » ؟

سنرى ذلك فى الفصل القادم .

الفصل الخامس

تريزا الأڤيلية ورابعة العدوية

★★★

إن مقارنـة رابعة بتريزا الآبلية كما يقـول الدكتور بدوى تجلـو المشابهات بينهما ، ولا أدرى بدءاً لماذا أطلـق الدكتور بـدوى على تريـزا اسم الآبلية ، وذلك أن صحيح الإسـم هو الأڤيلية ، نسبةً إلى القرية التى ولـــدت بهـــا وهى أڤيلا **Avila** فاشـــتهرت من ثم فى غير بلدها أســـبانيا بأنها **Thérése D'Avila** وفى بلـــدها بأنها **تريزا اليسوعية** **Teresa de Jesus**.

ولا أدرى أصلاً لماذا المطابقـة بين رابعة وتريزا حيث أن كـلاً منهما كانت فى واد ، ومع أنهما تحدثتا فى المحبة إلا أن حديثهما عنها كان مختلفاً تماماً .

وكانت حياة رابعة وحياة تريزا مختلفتين ، وكذلك شخصيتاهما .

ورابعة بـالإجماع لها حس وجدانى عال جـدًا ، ولغتها هى الفصحى ، وأقـوالها تتميز بالطلاقة والوضوح ، وكلامها منساب ،وأفكـارها متصلة ، وتريزا وإن كانت مؤلفة كُتب إلا أن أسلوبها فيهـا هو أسلـوب الحديث العادى ، ولغتهـا هى اللغـة الدارجـة السائدة ، ولم تحاول أن تكتب بالوعى والطلاقة اللذين كانت عليهما كتابات القديس أوغسطين مثلاً ورغم أن كتـاب **السيرة الذاتية** الـذى ألفتـه تـريزا هـو من طـراز كتـاب **الاعترافات للقديس أوغسطين** إلا أنه لايرقى إليه أسلوباً وموضوعاً .

ولا تحاول تـريـزا أن يكون لها تكنيك معين فى الكتـابـة ، وتعتمـد على السرد المرسل ، وأفكارها متقطعة ، وكما نقول تكتب بالبركة ما يعن لها من خواطر ، وعلى أيام متفرقة ، وقد تتذكر واقعة فتكتـب عنها ، ثم تسقطها من حسابها لتعود إليها بـدون مناسبة فى صفحات تالية ، ربما كانت فى وسط الكتاب ، أو نهايته ، دون مبرر لذلك .

ولو قارنـا بين تريزا ورابعة فلسوف نجـد من ناحية أن تريـزا راهبة علّمت نفسـها من الكتب ، وجعلت حياتها فى الكتاب المقدس ، وكانت تخطىء فى فهم الكثير من أجزائه ، وتكره أن يُظَن بها الجهل فتخجل أن تسأل عما يعـن لها ، ولكنهـا بـرعت فى **التأمل** أو ما تسميه **الصلاة العقلية** ، والتأمل هو طـريقها فى الاستنبـاط ، وفى التوجه إلى اللـه ، والاتحاد به ، وهو محور حياتها الروحية ، وهو خصوصيتها فى التصوف ،وكان التأمل قوتها فى الشدائد والمحن ومعـاركها ضـد الشيطان . ورابعـة أيضاً كـانت كثيرة الصلاة ، وكـانت إذا صلّت انخـرطت فى صلاتها بـالكلية فـاستغرقتهـا ، وكانت تنصح مـريديها بأن يتـوبوا إلى اللـه ويطيعوه ويصلحـوا مطعمهم وأن يكون ذلك بدافع المحبـة له لا خوف العقـاب ولا طمعاً فى الثواب .

إلا أننا أمام تريزا نجد نسقاً تعليمياً واضحاً، فهى ابنة الكنيسة بلا ريب ، ولقد تزوجت من الكنيســة أو من المسيح ، ونذرت نفسهـا لخدمتها ، وتفـرغت فى أواخر أيـامها لإنشـاء الأديرة وتعليم البنات الدين ، وكانت المعلمة والمربية .

ورابعة لها **معراج روحى** انتهى بها إلى التجرد والتجريد . ولم تكن كذلك تريزا ، وهى تقول إنها ما كـانت تقوى على التفكير المجرد ، وأنه ليس مـن طبعها أن تجرّد الأمور ، أو أن تتفلسف عليها ، وعلى ذلك فلم يحدث أن كانت لتريزا **شطحات صوفية** كما لرابعة .

وتريزا من عائلة كبيرة إسماً ورسماً ، فأبوها كان من الأعيان ، وإخوتها كانوا كُثْراً من الجنسين ، وتعليمها كـان فى الدير منـذ طفولتها البـاكرة ، وكـان نموذجها فى التعبـد أمها والعذراء ، ولمّا مـاتت أمها توجهت بكليتها إلى صـورة العذراء وهى بعد فى الثـالثة عشر من عمرهـا ، وشكت إليها يتمها ، وتـوسلت إليها والدمـوع تنهمر من عينيها أن تكـون لها أمًا وهاديًا ومعينًا . وفى السابعة فكرت وأخـوها أن يهربا إلى المغرب العربى ليستشـهدا من أجل المسيح ، ويقتلهما المسلمـــون ، ولما اكتشف عمهما الأمـر وأفشل خطتهما جمعـت أتـرابها وكونت منهم مجتمعاً كنسياً صغيراً وكأنهن فى الـدير ، وأخذن يمارسن التقشف ويتمرسن بالعبادة .

وتريزا فى مراهقتها انكبت على قراءة القصص عن الحب ، وذلك ما كان يعذبها من بعد ،

وقد ندمت على ذلـك . وطبيعى أن تدفعها تلك القراءات إلى طريـق تتمنى فيه أن تحب ، ولقد استشعرت فى كثير من أوقات حياتها أنها ترغب أن تحب وأن تكون محبوبة ، فكانت تسمح لنفسها أن تحادث بعض الشبان من أقاربها أو الشخصيـات التى تعرفت بها وهى راهبة ، وبالنسبة لراهبة مثل تريزا صارت رئيسًا لدير ، ونُشرت لها المؤلفات الدينية ، فإن ذلك كان زلة كبيرة كثيرًا ما استغفرت عنها ربها ، وكثيرًا ما توسلت أن يغفرها الله لها .

ولم يكن كتاب تريزا فى **السيرة** ، أو كتابها **طريق الكمال** ، أو كتابها **الخواطر فى محبة الله** ، إلا اجترارات لوقـائع حياتها ، وتـرديدًا مستمرا للنـدم وطلب المغفرة ، وهـذا ما جعل بعض النقاد يفسرون هذا الاتجاه عندها بأنها ربما قد عرفت الإثم وتوغلت فيه ، وساعد على ذلك وصفها لنفسها بأنها حقيرة ، وأنها من أسوأ النســاء ، لا تُستحق أن تكون فى معية الله والمسيح وإنما فى صحبة الشيطـان ، ومنافقة خـدعت مَنْ حولها فيها ، وأن اللـه كان يستر مساوئها ويظهر فضائلها .

وقد قوّى عنـد النقاد ميلهم إلى اعتبارها من الخاطئات التـائبات أنها فى كتابها **السيرة** نوهت **باعترافات القديس أوغسطين** التى يقول فيها أنه غرق فى شهواته الجسدية ، وكان يحب الممارسات الجنسية وأنه اتخذ عشيقة له فلما تـركته بعد سنوات ظل يتحسر عليها إلى أن عثر على عشيقة لـه ثانية . وقرأت تريـزا ذلك فتقول « فكأن الرب دبر هـذا الأمر لأنى ما سعيت للحصول على الكتاب ولا كنت رأيته ، وكنت أكرّم القديس أوغسطين بصفة خاصة ، لأن أول دير تعلمت بـه كان يخص رهبانيتـه ، وقرأت أنه كـان من قبل خاطئـاً وكنت أجد العزاء الكبير فى القراءة عن القديسـين الذين تابوا بعد أن ترددوا فى الخطيئة ، وأحسبنى أجد فى هذه القـراءة مساعـدة كبرى لى ، وأخال أن الـرب كما غفر لهم سيغفـر لى أيضاً ، ومـا كان يضايقنى سـوى أمر واحـد ، وهو أن الرب قـد دعا هـؤلاء مرة واحدة فـاستجابـوا له ولم يعودوا إلى السقـوط ، وأما أنا فقـد دعانى مرات كثيرة ، وكنت أستجيب وأعـود إلى الخطيئة وهذا هـو ما كان يكدرنى ، وكلما سقطت تـذكرت حب الله لى فأستعيد شجـاعتى وأتوب ، وياطالما ارتبت فى نفسـى كل الارتياب ، ولكنى ما يئست أبدًا من رحمة الله » .

وتقول تريزا عن **اعترافات القـديس أوغسطين** « منذ بـدأت أطالع الاعترافـات رأيت

نفسى فيها فشرعت من فورى استشفع هذا القديس ، وحين بلغت الفقرات التى يحكى فيها عن ارتداده ، وطالعت كيف سمع ذلك الصوت فى الحديقة ، خلتنى أسمع هذا الصوت بقلبى ، وأن الرب أسمعنى إياه ، فبكيت بشدة ، وغرقت فى دموعى وشعورى بالندم .

والمثير فى كتابها **السيرة الذاتية** أن الفقرة الأولى منه بمثابة دعوة حارة للقارىء أن يواصل القراءة ، وخاصة إذا كان يعانى من مشاعر الذنب ، وأنت يا عزيزى القارىء لن تملك نفسك وأنت تقرأ تريزا تقول « لقد تلقيت الأمر الإلهى أن أعرض طريقتى فى التصوف التى تقوم على التأمل وشرح الأنعام التى خصنى الله بها ، وإنى لأود أن أروى عن خطاياى الكثيرة ، وأقص عن حياتى بالتفصيل والوضوح ، وإذن لكان فى ذلك كل العزاء الروحى لنفسى المعذبة . وإنى لأرجو من يطالع قصة حياتى هذه أن يتذكر جيداً أن حياتى كانت من السوء بحيث أنى لم يكن يكفينى لأعدل عنها أن أقرأ أخطاء القديسين وتوبتهم » ، إلا أن تعجب لها ومنها وتصدق حكاية ولوغها فى الإثم .

تلك وغيرها كانت الفقرات التى أثارت النقاد ، ويبدو أن **الدكتور بدوى** كان منهم فاعتبرها من الخاطئات ، ووجد فيها نموذجاً يطبق عليه فلسفته فى التطرف والتوتر المتطرف ، إلا أن تريزا فى اعترافاتها كانت تؤكد باستمرار أنها « كانت تحذر اقتراف خطيئة مميتة » وأنها لم تكن « ترضى أن تقترف خطأ جسيماً ضد الله مهما كلفنى الأمر » .

وتروى تريزا قصة الكاهن الذى كانت تعترف له ، فلقد أذهلته أنها وهى الفتاة فى ميعة الصبا لم تكن تسمح لنفسها أبداً بالتردى فى الخطيئة ، فآثر هو أمام فضيلتها أن يعترف لها ، وتقول تريزا « لقد مضى عليه سبع سنوات تقريباً وهو يعانى بشكل حاد من معاشرة امرأة فى القرية كان مولعاً بها ، ومع ذلك كان يقيم القداس ، وكان الأمر مشهوراً حتى فقد كرامته وصِيته ، وحاولت أن أعرف عنه وأزيد معلوماتى عن حالته من أهل بيته ، وازداد علمى بضياعه ، ولكنى علمت أن تلك المرأة الشقية كانت تسحر له ، ورغم أنى لا أعتقد بصحة مايروونه عن الرقَىَ إلاّ أنى أروى ما عرفت ، ليحذر الرجال النساء اللاتى يسعين أن يكونوا لهن عشاقًا ، ولتعلم هؤلاء النسوة أنهن إذ يفقدن الحياء أمام الله لا يعدن أهلاً لأية ثقة من أى نوع ، وأمثال هؤلاء النسوة اللاتى لا يلتزمن الاحتشام لا يتورعن عن شىء من

أجل إشباع رغباتهن والهوى الذى يلـزمهن كالمرض لأنه من فعل الشيطان . « **أما أنا وإن كنت يائسة فلم أسقط فى هفوة كهذه ولا نويت أن أفعل السوء قط ، ولا أريد ـ حتى لو استطعت ــ أن أسحـر لـلآخـرين وأرغمهم على حبى ل ، أن الـــرب عصمنى من هــذه الأمور » .**

ويبدو أن الدكتور بدوى لم يقرأ هذه الفقرات وآثر أن يقتبس من الكتاب فقرات أخرى تناسب مقولة **التوتر المتطرف** فى مذهبه الوجودى حيث تقول تريزا فى اعترافاتها :

« كانت حياتى رهقـاً شديدًا لأنى فى التأمل كنت أعى أخطائى بـوضوح أكبر ، فقد كان الله يـدعونى من جهة ، وكنت من جهة أخرى أتبع العالم ، وكـانت كل أمور الله تسرنى سروراً عظيماً ، لكن أمور العـالم كانت تقيدنى كأنى كنت أريـد التوفيق بين هـذين الضديْـن ، والعداوة ضـاربـة بين الواحـــد والآخـر ، بين الحيـاة الروحيـة وتعزياتها ، وملذات الحياة الحسية ولهوها » .

وهذه الفقـرة هى التى يستشهد بها **الدكتور البدوى** ويترجمها عنهـا فيقول « **من ناحية كـان الله يدعونى ، ومن نـاحية أخرى كنت أشارك فى الـدنيا . أجل ! لقد كنت أجد فى الأمور الإلهية نعيماً كبيراً بيد أن قيود الدنيا لاتزال تأخذ بمخنقى حتى ليبدو لى أنى قـد أردت أن أحـالف بين هـذين الضديـن برغم مـابينهما من عـداوة : الحيـاة الروحية بنعماتها ، وحياة الحواس بشهواتها » .**

وهذه الفقرة نفسها هى التى ألهمت الدكتور بدوى أن يكتب عن رابعة : « **نستطيع أن نفترض أنها إبان انتهابها اللذات كانت بين الحين والحين تخلـو بنفسها وتتذكر تلك الرسالـة التى ألهمتهـا ، فكـان يطـوف بها إذن الفنية والفنيـة طـائف من التأنيب والتذكير بـالطريق السوى ، وهـذه الفينات خصوصـاً هى تلك التى تشعر فيهـا إما باليأس من عـاطفة اندفعت فيها نحو شخـص ثم خاب رجاؤها فيه ، وإمـا بأنها قد اندفعت فى طريق الإثم إلى حـد بالغ الإفراط ، فلاشك فى أن هذه التنبيهات المتـوالية قد أثّرت فى منطقة اللاشعور لديها ، لكننـا لا نستطيع أن نقول إنها كانت كافية لإحداث الإنقلاب الروحى ، وقصارى أمرها أن تكون حـالها تلك التى وصفتها القديسة تريزا**

الآبلية إبان محنــة صراع الدنيا والدين فى داخل نفسهــا فقالت .. » ثم يذكــر الدكتور بدوى الفقرة الســابقة .

وكما نرى فإن الدكتور بدوى يعتسف الكلمات اعتسافاً ويطبق على رابعة حالة تريزا ، مع أن حالتيهما لاتتطابقــان إلا فى نواح إنسانية عــامة هى عند الناس جميعــاً فى أمثال هذه المواقف .

وقصة الصراع بين الدين والدنيا ، وبين الروح والجســد ، معروفة ، وهى موضوع من موضوعات الأدب والدرامــا ، إلا أن كل شخصية لها نسيجها الحى من التجارب التى تجعل من الشخصية نسيج وحدها ، وأغلب ظنى أن قراءة الدكتور بدوى لقصة تريزا مشوهة هى التى ألهمته أن يكتب قصة رابعة على نفس المنوال ، وأن ينسج لها أحداثاً ووقائع كالتى ظن أنها حدثت لتريزا فى رأى بعض نقادها .

ومشكلة تريزا لم تكن **الجنس** كما يظن الدكتور بدوى ، ولكنها كانت **الشك ومنازعات الدنيا ونــزغ الشيطان** ، وتــريــزا تقــول إنها قضت فى عــــذابــات الشك وتأنيب الضمير لمخالفاتها النفسية ـ وأكرر **النفسية** وليست **الجنسية** ـ لله قــرابة عشرين سنة « أسقط تارة وأنهض أخرى على السواء » ولأنى كنت أعــود إلى السقوط فحياتى على درك متدن من النقص ، ويمكننى القول أنها كــانت حياة من أكثــر الحيوات مشقة فى تصــورها ، فما كنت أنعم بالله ولا كنت أغتبط بالعالم ، فحين كانت مسرات العالم تغمرنى وأتذكر واجباتى نحو الله كــان الأسى ينتابنى ، وحين أكون مع اللــه كانت أهواء العــالم تسلبنى السكينة ، وتلك كانت حرباً شاقة لا أدرى كيف استطعت احتمالها شهراً ، فما بالكم بالسنوات العديدة » .

وتستطــرد تــريــزا « ومع هــذا كنت أرى رحمة اللــه الكبرى التى غمــرنى بها ، فــرغم علاقــاتى الدنيويــة بقيت لى نعمة أن أتجرأ وأمارس التأمل ، وأقــول أتجرأ لأنى لا أعرف فى هذه الدنيا جــرأة أكبر من خيانة الإنسان لربــه وإصراره على أن يستمر فى البقاء فى حضرته رغم معــرفته بأن اللــه يحيط بأمــره ، ولئن كان النــاس جميعــاً فى حضرة الله إلا أن الــذين يمارســون التأمل شــأنهم مختلف ، لأنهم يعرفون أن الله يراهم ، وأما الآخرون فقد تتقضّى أيامهم فلا يتذكرون إلا لماما أن الله يراهم » .

ثم تقـول تريـزا إنها قضت صدر شبـابها فى « **هذا الصراع بين مصـاحبتى العالم ومعاشرتى الله** » وكأنى بتريزا إذ تعتبر **مصاحبة الدنيا هى الخطيئة** ، تستغفر لنفسـها وتبدى التوبة بعد التوبة . ولم يكن استغفارها إذن من خطايا مميتة ، وقد أخطأ الدكتور إذ ظنها قد أوغلت فى شبابها فى الخطيئة ، وأخطأ إذ يظن التوبة ودوام الاستغفار « أصدق دليل على اندفاعها (**أى رابعة وبالمثل تريزا**) إلى أبعد حد فى طريق الشهوة » .

وللتوبة معنى خـاص فى التصوف ، لأن **العامة** توبتهم من الـذنوب ، وأما **الصوفية** فتوبتهم من **الغفلة** ، أو كما قال **رويم** . أن تتوب من التوبة ، وهو المعنى الذى قصدت إليه رابعة فى قولها · استغفـر الله من صدقى فى قولى استغفـر الله ! وهى قمة التوبـة ، وتوبتها إذن عن كل شىء سوى الله ، وذلك هو الفرق بين توبتهـا وتوبة تريزا ، فتريزا كما رأينا من الفقرات السابقة توبتها من **خواطر المعصية** التى هى **التعلق بالدنيا ومصاحبة أهلها** ، ورابعة توبتها هى **توبة أهل مقـام الصديقية** ، لأنها تتـوب من أن **يخطر غير الله على بالها** ، فمقام رابعة فى التوبة أكبر من مقام تريزا .

ومع ذلك لم يحاول الدكتور بـدوى أن يفهم ذلك وحَسِبَ توبة رابعة وتريـزا من توبة العوام أى من **المعاصى والذنوب** ، واعتبر التوبة دليل صدق على فسوُقهما ، فاعتبرهما من عامة الناس ، ولم يدرجهما ضمن الخاصة الذين قالوا فيهم أنهم أصحاب القيم والمبادىء .

ويقول أبو دقّاق التوبة ثلاثة أقسام ، الأول التوبة ، والثانى الإنابة ، والثالث الأوبة ، فمن يتوب لخوف العقاب فهو صـاحب توبة ، ومن يتوب بطمع الثواب فهـو صاحب إنابة ، ومن يتوب بمحض مـراعاة أمر الله من غير خـوف العقاب ولا طمـع الثواب فهـو صاحب أوبة .

وكما ترى عـزيزى القـارىء أن التوبة التى يقصـد إليها الدكتـور بدوى تـوبة **عامة المؤمنين** التى خاطبهم بها المولى عز وجل فقال : ﴿ **توبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون** ﴾ وأما الإنابة فهى صفة **العقلاء المقربين** حيث قال تعالى : ﴿ **وجـاءوا بقلب منيب** ﴾ ، وأما الأوبة فهى صفة **الأولياء والمرسلين** فقال تعالى : ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾.

وتريـزا كانت تتوب وتصلى لفـوائد التوبـة والصلاة ـ تقـول . كثيرون من الصالحين كتبوا فى الفوائد التى يجنيها المؤمن الـذى يمارس التأمل أى الصلاة بعقله ، وأنا أستطيع أن أتحدث فيما أعرفه بالتجربـة ، وهو أن من بدأ يمارس التأمل فلا ينقطعن عنه مهما فعل من زلّات ، لأنه الوسيلة التى تساعده على معـالجة أموره ، وبدون التأمل (أى الصلاة العقلية) سيشق على المؤمن أن يتـوب ، ولا ينبغى أن يترك الشيطان يجربـه كما جـرّبنى فيـــترك التأمل ، وليثق باللـه فهو لا يُـخلف وعده إذا تبنا تـوبة نصوحة وعـزمنا على أن لا نعود إلى الزلل ، فإنه تعالى لا يقطع إنعامه عنا بـل ، وسيظل ينفحنا بنعمه ، بل وسيكثرها أحياناً إذا كانت توبتنا تستحق ذلك .

ومع ذلك فقد كانت تريزا فى أواخر أيامها لا ترجو من الله سوى أن يجعل فى طاقتها أن تحبه وأن تذوب بكليتها فى محبته ، وقالت إنها تشـاهد الله بقلبها فى تأملاتـها . واستخدمت مصطلحا جديدًا هو **اللاهوت الصوفى** **teologia mystica** وتعنى به الحالة الروحية التى يكـون عليها الصـوفى فى حضـور اللـه ، والتى يستشعر فيهـا أن اللـه تعـالى حاضر فيـه ويستغرقه تماماً ، فـالله يغمر النفس كما تقول تريزا فيستشعـر الصوفى أنه أقوى من ذى قبل ، والقوة التى تأتيه مصدرها الآخر أى الله الحالّ فيه ، وتريزا تسمى هذا **الحلول قِراناً روحياً** .

وأما رابعة فلم تقل بالحلول ولا الاتحاد أبدًا ، ولا خطرت على بالها مسألة القران الروحى ، وكان اعتسافاً وأى اعتساف أن يفسر الدكتور بـــدوى قـــول **حيونة** لرابعة : « قومى ! قد جاء عرس المهتدين . يـامن زين عرائس الليل بنور التهجد » بأنه نص على أكبر درجة من الخطورة « **لأنه يتحـدث عن وجود فكرة الـزواج من الله والاقتران بــه لدى الصوفيات المسلمات حتى منذ القرن الثانى الهجرى أى الثامن الميلادى** ، وهـى الفكرة التى لعبت دورًا خطيرًا فى **التصوف المسيحى** ابتداء من القديسة تـريزا الآبلية التى عاشت فى القرن السادس عشر الميلادى ، أى بعد أولئـك الصوفيات المسلمات بثمانية قرون ، وإذا كنا لا نستطيع أن نتحـدث عن تأثير مباشر لهؤلاء الصوفيـات المسلمات فى القديسة تـريزا فإننا نترك هذه المسألة مفتوحة أمام الباحثين .

وأقول إن ذلك الذى يذكره الدكتور بدوى اعتساف وأى اعتساف ، فهو يعرف أن الذى

أذكى فكرة القران الروحى فى المسيحية تَعبّد المسيحيين للمسيح ، وتصورهم له فى لوحاتهم وتماثيلهم شاباً غاية فى الجمال ، وأن المسيح هو ابن الله عندهم صراحة ولا لبس فى ذلك ، وهو « إلـه وابن إلـه » على الحقيقة ، ولقد عاش المسيح عزباً ، وما كان يمكن للصوفية المسيحيين أن يتزوجوا الكنيسة والدنيا ، أو أن يخدموا سيدين فتكون لهم الزوجة ويخلصوا فى محبتهم لله ، وفى ذلك يقول القديس أوغسطين فى الاعترافات « إن من يريد الله فعليه أن ينصرف عن كل اتصال بالنساء ، وأن يسعى فقط إلى أن يكون عبداً مخلصاً لله ، لأن المتزوج همومه دنيوية وسعيه لأن يرضى زوجته وليس الله » .

والشطط الذى يقع فيه الدكتور بدوى أن يجعل القران الروحى الذى قالت به المتصوفات المسيحيات من تأثير الصوفيات المسلمات وخاصة رابعة العدوية ،اعتمادًا على مجىء رابعة قبل تريزا تاريخياً ، ومن ثم يكون التأثير من رابعة على تريزا هذه المرة ، وقد كان فى مسألة المحبة الإلهية من تأثير المسيحية عموماً على رابعة !! وذلك اضطراب فكرى نحسبه لايجوز ممن هو على درجة عالية من المعرفة كالدكتور بدوى ، وقد تمرس طويلاً بتدريس المنطق ، ولو كانت هذه الفكرة مسلمة لتطورت مع الصوفيات المسلمات تطور كل المفاهيم الصوفية الأخرى ، مع ملاحظة أن رابعة من صوفية القرن الثانى الهجرى ، أى أنها كانت فى بداية حركة التصوف ، والمقالة التى أوردها الدكتور بدوى والتى يذكرها المؤرخون تنسب لحيونة ولم تنسب لرابعة ، ومع ذلك فلو كان لرابعة مثل خواطر حيونة ، ولو كانت تعتبر نفسها عروساً فقد زينها الله بنور التهجد ، وأن الإقبال عليه فى الصلاة بمثابة الإقبال على عريس هو عريس المهتدين فإن ذلك لم يتعد بلاغة المقال التى تناسب علو الحال ، وحتى ورابعة تشكو حبها لله وتبثه عذابها فيه وتصفه بأنه روح الفؤاد والمؤنس من أمثال « أنت روح الفؤاد أنت رجائى ، أنت لى مؤنس وشوقك زادى » إلى آخر ذلك من مخاطبات ، إنما كان يقتضيها الخطاب . ولغة رابعة أو حيونة فى ذلك هى قضية التعبير فى التصوف عن أحوال لا يمكن التعبير عنها إلا بلغة هى أصلاً المقابل للمحسوسات ، وحتى الصوفية من الرجال فى الإسلام والمسيحية على السواء لم يجدوا فى تعبيرهم عن محبة الله إلا هذه اللغة المتداولة عموماً بين المحبين .

ولسوف نتناول فى الفصل القادم بإذن الله **لغة التصوف فى المحبة عند الصوفية ، وعند رابعة وتريزا والفروق بينهما .**

الفصل السادس

لغة التصوف عموماً
وعند رابعة وتريزا خصوصاً

★★★

يقول **ابن خلدون** عن التصوف والصوفية · هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد فى الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاماً فى الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختُص المقبلون على العبادة باسم **الصوفية والمتصوفة** .

وهذا إذن هو الأصل فى حركة التصوف : أنه عزوف عن الدنيا وزخارفها وزينتها ، والزهد فى اللذة والمحسوسات . **والجنيد** يقول عن التصوف والمتصوفة · « من لم يحفظ القران ويكتب الحديث لايُقتَدى به فى هذا الأمر ، لأن عملنا هذا مقيد بالكتاب والسنة » . وقال « الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ ، واتبع سنته ، ولزم طريقه » . ويقول سهل التسترى : « أصول طريقتنا سبعة ، التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصى ، ولزوم التوبة ،وأداء الحقوق » .

وأى تفسير لأقوال الصوفية ينبغى أن يؤخذ فيه ذلك الأصل ، وكان الإنكار على الصوفية دائماً بسبب **اللغة** التى استخدموها فى التعبير عن الوجدانيات بلغة هى أنسب للمحسوسات ، وعن المجردات بلغة الماديات . وليست المشكلة هى مشكلة الصوفى فى أن يعثر

على مايصب فيه وجدانياتـه من كلمات ، أو يجسد مجرداته من المعانى ، ولكن المشكلة هى مشكلة **المتلقى عن الصوفى** ، وهما اثنـان : إما صـوفى مثله ، وذلك تبلغـه من أخيه فى اللـه الرسالة تواً ، ويطرق قلبه المعنى فـوراً ، فيشيجيه أو يذهله ، أو يجذبه ويتخطفه حتى لقد يغشى عليه ، فالاتصال بين الصوفى والصـوفى قائم غير منقطع ، ومباشر فى الحال . وإما أن المتلقى من العامـة فكأن الصوفى يتحدث بلغة غير اللغـة المعروفة ولا المتداولـة . وقد يكون المتلقى فقيهاً فهـو مثل العامى ، لأن التصوف علم أحوال ومن ذاق عـرف ، ومن لم يذق لم يعرف . ومـا لم يتهيأ المتلقى بالاستعداد لفهـم حقيقة ما يقـوله الصوفى فإنـه لحرى به أن يرميه بالادعاءات الباطلة فى أذواقه ومشاربـه وعلومه ومعارفه ومواجيده وأحواله ، كما أن عبارته ستـدق عليه وهى التى ترمز إلى المعانى الـرفيعة ، والتى لايمكن بحال أن تخرج عن التوحيد والتنزيه المطلقين . ولو أن المنكر على الصوفى قدأخذ نفسه بما أخذ به الصوفى نفسه من النظر والسلـوك ، لما أنكر عليه ما أنكره ، ولما رمـاه بما يرميه به . وقـد قيل إن الصوفى ترقّ مداركه ، ومن هذه الرقة كان الطعن عليه فى علومه وأحواله ، لأن النفس البشرية تسرع لإنكار ما لا يتقدم لها علمه .

ورابعة لم تكن مـن المبطلين فى الدعاوى ، والطـالبين لأغراض الـدنيا بـالديـانة ، حتى نتأول كلامها ولو بحجة خوف الإضلال للعـامة . والتأويل والتخريج لأقوال الصوفية من شح النفوس ، وقد سئـل يوماً **أبو على الجوزجانى** عن **البسطامى** تعبيراته فى المحبـة لله فقال « يسلم لـه حاله ، ولعله تكلم بها على حـد غلبة أو سكر ، ومن أراد أن يـرتقى إلى مقام أبى يزيد (البسطـامى) فليجاهد نفسه كما جاهـدها أبو يزيد ، فهـناك يفهم كلام أبى يزيد » .

والصّوْل فى التصوف هـو الاستطالة باللسـان ، والصوفى المحب لله لا يمكن أن يخون الله فى نفسـه ، وهو عندما يصـول فإنه يصول بـالله . وكان النبى عليه الصـلاة والسلام يقول فى دعائه : « اللهم بك أصـول وبك أحول » . وكان **إبراهيم الخواص** يقول « وأصول بالله » . وكـانت رابعة تصول ، وصولها كـان لله وبالله ، وكانـت لها مواقف صححت فيها

الـرجال ، فكـانت كما قيل تصـحح **للحسن البصرى ، وعبـد الواحـد بن زيد ، وسفيـان الثورى** ، وغيرهم الكثيرين .

وكلام رابعة الذى لم يفهمه الدكتور بدوى وفسّــره إلى ما فسّــره به وإليه هو من قبيل **المناجاة** ، والمناجـاة بلغة الصوفيـة مرموزة ، وقـالوا فيهـا إنها لغة إشارة ، وقـد ذكر **أبو العباس بن عطاء** عندما سألوه عن لغة المتصوفة أن عبارات التصوف إشارية .

نشير بها فنجعلهـــا غمـــوضـــاً — تقصر عنـــه تـــرجمة العبـــارة
ونشهــــدهـــا وتشهـــدنـــا سروراً — لـــــه فى كل جـــارحـــة إشـــارة
تـــرى الأقـــوال فى الأحـــوال أسرى — كأسر العـــارفين ذوى الجســـارة

ولغة التصوف لطائف وإشـارات إلى القلب فى دقائق الحال ، تلـوح فى الفهم وتلمع فى الذهن . **وللصوفية آداب** ومن ذلك أنهم يقـرّبون المعانـى للخَلْق بما يفهمونه مـن عبارات وإشارات . ومـا يقوله الصـوفي هو الظـاهر ، غير أن لكل ظاهـر باطنًـا ، وما تقولـه رابعة العدوية فى المحبة الإلهية قد نفهمه على الظاهر . وقد ندرك منه الباطن وقد ذكر عالم النفس **يونج** في تصانيفه فى مجال الشخصية أن من النـاس من يفهم المحسوس والظاهر ، ومنهم من يكـون له من نمط الشخصيـة أنه يغـوض إلى المعانى ويطلب البـاطن ويتنكب الظاهـر ويميل إلى المجـرد ، وكلام رابعـة قد نفسره ظاهـرياً ومـن ثم قد يكـون مجافياً لما عهـدناه وللمألوف والمعتبر ، وقد يقبلـه غيرنا لأنه فهم مراميه وعرف مـراده وأحاط ببواطنه ، وكما قلنا إن من ذاق عرف ، ولغة التصوف لغة ذوق . وقد قيل :

لـــو كـــان حبك صـــادقـــاً لأطعتـــه — إن المحـــــبّ لمن يحب مطيــــــع

والدكتور بدوى لم يحب الصوفية ولم يفهم لذلك رابعـة ، ولو كان محباً على الصدق للصوفية ولـرابعة لطاوعها فيما قصـدت إليه وفهم منها الإشارة والـرمز ، فهل إذا قال **ابن عبد الصمد** « أصَمّنى الحب » نفسره على أنه الصمم أصابـه من الحب ، مثلما فعل الدكتور بـدوى إذ يفسر أبيات رابعـة التى تقول فيهـا إن اللـه هو الحبـيب وروح الفؤاد والحيـاة والأنس :

يـــــــا سروری ومنيتـی وعمادی	وأنيســی وعـــــدتـی ومـــــرادی
أنت روح الفـــؤاد ، أنـت رجـــائى	أنت لى مـــؤنس وشـــوقك زادى
أنت لـــولاك يـــا حيـــاتـی وأنسى	مـــا تشتت فى فسيـح البـــلادِ
كم بـــدت منـــة لـك عنـــدی	من عطـــاء ونعمـــة وأيـــادی
حبــك الآن بغيتـــی ونعيمـــی	وجـــلاء لعين قلبـی الصـــادی
ليس لى عنك مـــاحييت بـــراح	أنـت منـی ممكـن فى الســـوادِ
إن تكـن راضيـــــاً علىّ فـإنـی	يـــا منـی القلب قـد بـدا إسعـادی

بأن الطابع الحسى ظاهـر فى هذه الأبيات ، ويرجع الدكتور ذلك إلى أن الأمـر مع رابعة كان لايزال مختلطاً عليهـا من أول أمرها فى التصوف ، فالخطـاب فى هذه الأبيات يصلح تفسيره بأنه يتجه إلى شخص حسى كما يصلح بصعوبة أن يتجه إلى الله ، بل إنها فى هذا الشعر قد تناست أو نسيت أنها تخاطب اللـه فتحـدثـت عن حبيب لها يلـوح فى أنـه كـان متنقـلاً ، فاضطـرت هى تحت ستار الترحل لكسب العيش بـالعزف كالحال مع عـامة الموسيقيين فى تجوالهم لإحياء الحفلات فى البلاد المختلفة ، أن تلاحقه مما اضطرها إلى التشتت فى البـلاد (١١١) وهذا أغرب ما يمكن أن يذهب إليه مفسر لهذه الأبيات ، وأحسب أن الدكتور بَعُد كثيرًا فى تفسيره حتى لأقول إن الذى تشتت هو الدكتور نفســه حيث يذكر أن ذكرى هذا الحبيب قد اختلطـت فى ذهنها فعبرت بهذه الكلمات المشبـوبة الحسية عـن تجربتها معـه وإن كان الخطاب موجهاً إلى الله .

ومن رأى الدكتـور أنها ما كانت تستطيع أن تحكى عن حبها للـه بهذه الصورة إلا إذا كانت قد عـانت تجربتها بدقائقها فعـلاً ، ثم جعلت من هذه التجربة لها إطـاراً تعرض فيه حبها لله . ودليل الدكتور الذى يسوقه على صدق دعواه أن رابعة فيما قالت فى حبها لله لها هذه المنـاجيات التـى تقول فيها « إلهى ! أنـارت النجوم ، ونـامت العيون ، وغلّقـت الملوك أبوابها ، وخـلا كل حبيب بحبيبه ، وهـذا مقامى بين يـديك » و « إلهى ! هذا الليل قـد أدبر ، والنهار قـد أسفر ، فليت شعرى أَقَبِلت منى ليلتى فأهنأ ، أم رددتها علىّ فأعزى ؟ فـوعزتك

هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى ! وعـزتك لو طردتنى عن بابك مـا برحت عنه لما وقع فى قلبى من محبتك ! » . فالإطار لكـلامها فى محبة الله إطار غرامى ، فيه هـدوء الليل وضياء النجوم ونوم العيون ، وهـو ما قد عرفته عيانـاً فى قصة أو قصص غرامياتها السابقـة قبل التوبة ، ووعيها بهذه التفـاصيل دليل على أنها قد خرجـت تواً من التجربـة ، وأنها لاتزال فى أعماق نفسها تحن إلى هـذا الحب ، ولعلها تذكـرت لياليها الحُمْـر بين مخارف النخيل على ضفاف نهر الأُبلة ، وقـد غفلت عيون الرقباء من النـاس ومن الشرطة خاصـة كما تبين من عبارتها ذات الدلالة الكبيرة « وغلّقت الملوك أبوابها » وتقصد بها أن الحاكم والشرطة والتابعين له لم يعد لهم سلطـان على مجلسها ، وفى وسعهـا أن تختلى بحبيبها تساقيـه ما تـود من اللذات المحرمة (!!) .

ويطلب الدكتور بدوى من القارىء أن يتأمل خصـــــوصاً الشــــوق المتحسر فى قولها « وخلا كل حبيب بحبيبه » ، ففيه قشعريرة قلب طالما نَعِم هذه اللحظات العالية !

ويتسائل الـدكتور : أتراها نـادمة فى قولها هـذا ؟ نادمة على تـركها طريقتها السـابقة وانصرافها عن الحب الإنسى إلى الحب الإلهى . كـلا بل هى قلقة لاتزال موزعـة الأهواء بين الدنيا والآخـرة ، وحبيبها الجديد (يقصد اللـه تعالى) لايزال بمنأى عنها لأن الطـريق إليه شاق طويل ، وها هى ذا تتضرع إليه فتقول « وهذا مقـامى بين يديك ! » ، فأية لوعة فى هذه العبارة النارية ! وأية صورة فاتنة تستثيرها فى الخيال !

ولقد بدأت رابعـة تستشعر الحب لله ، وإنه لينمـو وتواكبه مشاعـر مختلفة ، لعل من بينهـا ومن أقـواهـا الشعـور بأنها نـذرت نفسهـا لهذا لحب الأسمى ، وعما قليل ستعلن خطبتها إليه ، ولعل ذلك أن يفضى فى النهاية إلى الزواج الروحى بينها وبين الله !!!

والله هذا أغرب كلام يمكن أن يقال فى تفسير هـذه الأبيات ! ولست أجد ما أقوله فى ذلك إلا أن الدكتور يريد بهذا التفسير أن يصادق على دعواه فى الوجودية ، وهو يعاند كل ما قيل عن لغة التصوف ويأبى إلا أن يذهب فى تفسير المذهب الـذى يخدم فلسفته ، وقد تناقض إذ ذيل تفسيره بمقارنة بين قول رابعة « وعزتك لـو طردتنى عن بابك ما برحت عنه لما وقع فى

قلبى من محبتك » ، وقول صوفى آخر هو **الحلاّج** : « يا أهل الإسلام أغيثونى ! فليس الله يتركنى ونفسى فآنس بها ، وليس يأخذنى من نفسى فأستريح منها ، وهذا دلال لا أطيقه ! » ، ويعلق على ذلك بأن الدلال فى نص الحلاّج أن نفسه تتدلل على الله ، وأما فى نص رابعة فالله هو الذى يتدلل عليها ، ويفسر ضراعة رابعة بأنها منتهى الحب لأنه يرى أن الحب الوجودى هو أن يحب المحب بلا أمل ومن طرف واحد فيتألم فى حبه ، وذلك وأمثاله من الآراء فى الحب يطرحه الدكتور فى كتابه **الزمان الوجودى**.

غير أنى أرى أن أقوال رابعة إذا أضفناها إلى أقوال غيرها من المسلمات اللاتى تصوفن تشكل ما يمكن أن نسميه « **الأدب الصوفى النسائى** » . وما يُحكَى عن **معاذة العدوية** ، **ورابعة العدوية** ، **وماجدة القرشية** ، **وعائشة بنت جعفر الصادق** ، **وامرأة رياح القيسى** ، **وفاطمة النيسابورية** ، **ورابعة بنت اسماعيل الشامية** ، **وأم هارون** ، **وعمرة امرأة حبيب** ، **وأمة الجليل** ، **وعبيدة بنت أبى كلاب** ، **وحفيرة العابدة** ، **وشعوانة وآمنة الرملية** ، **ومنفوسة بنت زيد بن أبى الفوارس** ، **والسيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن أبى طالب** ، **وريحانة** ، **وحيونة** ، **وسلمونة** ، **وميمونة** ، لما يمكن إدخاله فى باب هذا الأدب ، بل إن بعض الأقوال المنسوبة إلى هذه أو تلك لتتشابه فى المعانى والألفاظ وجميعها تتسم بسمات خاصة تميزها عن أدب الرجال فى مجال المحبة ، وفيها ألفاظ أليق بالنساء حتى لنقرأها فندرك فوراً أن قائلها لابد أن يكون امرأة ، وتلك طريقتهن فى التعبير عن المحبة حتى لو كانت محبة الله .

والنساء تخصصهن المحبة ، وكلما استبدّت العاطفة بالمرأة كان الشِعْر وسيلتها فى التعبير ، وأشهر النساء فى مجال المحبة الإلهية كن شاعرات ، وكانت رابعة متميزة بالشعر ، وكذلك الشامية ، وريحانة ، وحيونة ، وميمونة ، والشعر النسائى الصوفى فيه التوتر والوجد المرير والحب الواله والعشق الغالب ، ولغة الحب هى اللغة الأوفى فى الشعر لأن الشعر لغة القلوب ، والحب قوت القلوب ، فالحب من الشعر عصبه .

وفى أخبار الصوفية عموماً يعتريهم الجذب عند السماع لشعر الغزل ، لأن طاقتهم الشهوية يصرفونها إلى الحب الإلهى ، ولقد أوّلوا رموز الغزل البشرى إلى معان إلهية ،

والفـرق بين شعـر الغـزل الحقيقى **والغزل الصوفى** أن الـرمز فى الأول مقصـود لمعنـاه الشـهوى ، وهو فى الثانى يحيل إلى حالات وجدانيـة ومعان سيكولوچية . والغموض فى شعر الغزل تمويه من الشاعر لكى يفيض على شعـره المشروعية فلا ينافى الآداب ، وهو فى الشعر الصوفى يتعمده الشـاعر .ورابعة الشابة الحلوة ذات الصـوت الشجى والمحيا اللافت وهى تنشد الشعـر قد يظنـه السامـع منها لـلإطراب ، ولما صـار أمرهـا إليها وغلبتهـا أحوالها الصـوفيـة عبرت فى شعـرهـا عن الأنس والخوف والـرجـاء والمحبة والتـوبـة والـرضـا ، واستخدمت فى ذلك لغة الحب المتعارف عليها ، وذلك من قضايا الشعر الصوفى ، لأن شعراء الصوفية لم يجدوا وسيلة أقوم ولا أجدر من شعر الغزل للتعبير عن مواجيـدهم ، فما بالك إذا كان الشاعر امرأة .

وقـد نقبل الشعر الغـزلى الصـوفى من رجل **كابن الفارض** ولا نتقوّل عليـه فى حِياتـه الجنسية ، ولكن هـا قد ثبت أنه حتى الـدكتور بدوى ــ الفيلسوف الذى لاشك فى مكـانته وقَـدْره وعلمه ــ يشكك فى المرأة إذا قالت الغـزل فى مجال التصوف ، والشـاعر الصـوفى إذ يفيض بالمعـانى فإنه ينسجهـا شعرًا يحكى عن الجمال والحق والخير . والمحبـة أصل كل المعانى العظيمة والنبيلة ، وشعراء الصوفية تغنوا بالمحبة مما جعل باب الشعر فى المحبة من أبواب عبقريـة اللغة العربية ، ومما أضفى على الأدب العـربى من أسرار عظمة المصطلحات الصوفيـة ما استلفت انتباه المستشرقين فراحـوا يترجمون منه وينقلون معانيـه ويعجبون مما فيه أشد العجب.

وإن المرأ ليقرأ شعر رابعة ، وأشعار فريد الـدين العطار ، وجلال الدين الرومى ، وعبد الـرحمن جامى ، وابن الفـارض ، وابن عربى ، ويستشعـر فيها الإعجـاز المذهل . ولم تكن رابعة تقصـد أن تتفلسف فى شعرهـا ، ولم يقصد إلى ذلك أىٌ من الصـوفية المحبين ، ولكن الشاعر الملهم منهم ، والفنان صاحب المشاعر الجياشة والوجدان الرهيف ، كان يترك لقلبه أن يفيض بمشاعر الحب ويرتقى بها حتى يتجاوز بمحبته كل حدود البشرية ويتسامق إلى السماء ، فينشد الحب لله تعالى حباً يملك عليـه كل نفسه وتفكيره ، فيصيّره عاشقاً متيماً ، فلا يجد مايعبر عن لوعته إلا اللغة التى يكون بِها التعبير عن محبة المحبين .

والشاعر الصوفى يرى الله أصل الوجود ، والله هو المحبة ، وقدرته وكماله وجلاله وعلمه وإبداعه يتخلل الوجود فيضاً عن فيض كنوره الذى أضاء بأسمائه العلية فاستبانت به الموجودات من العدم فكانت بعد أن لم تكن . ولم يكن من الممكن أن تأتى الشاعر الصوفى هذه الرُؤى لولا أنه يحب الله ويشهده فى أفعاله وصفاته ، وإذ يشاهد فيه الكمال والجلال والجمال ليتمنى أن يكون شهوده متصلاً ودائماً ، ويصوره باعتباره المطلق المعشوق فى كل جميل ، والمتجلى فى كل صور الجمال كى يعشق .

والحب طريق للوصول إلى الله . والنفس فى توهمها أنها موجودة بخلاف الله وقد حُجِبت عنه لاتزال تشتاق للاتصال به والرجوع إليه ، لأنها مجلى من مجاليه ، وليس السبيل لعودتها إلاّ بالشوق الذى تعانى به الجذب والوجد وبالحب الذى يفنيها عن ذاتها ويتجاوز بها التفكير ، لأنه فى التفكير تكون الإثنينية ، وإما فى الحب فليس إلا الواحدية فتنمحى الأنا والأنت .

وليس عند شعراء الصوفية إلا ديانة واحدة هى ديانة المحبة ، فالقلب سر كل تدين ، والقلب عندما يحب الله فإنه يقبل كل صور الجمال فيكون مرعى لغزلان وديراً لرهبان ، ويكون الكعبة والمعبد والكنيسة ، ويكون التوراة والإنجيل والقرآن . وبمقدار ما يحب الشاعر الصوفى الله بمقدار ما يعلم عنه ومنه وبه ، فينجلى بصره ويعرف الخير والشر . وإذ تتحد إرادة المحب والمحبوب لايكون هناك جبر ولا اختيار ، والمجبور على الحب لا حب له ، والحب الذى هو غاية المقرب إلى الله لا جبر فيه . وأوزان الشعر الصوفى تعكس كل ذلك وتساعد على التعبير عن الوجد وانتقاله عبر الأحوال ، ويزداد أثرها فى السامع بإنشادها . ولأنه شعر ينبع من القلب فالقلب مقصوده ، وإنشاده فى حلقات الذكر عندما تفيض المشاعر ، وتتمايل الأجساد ، وتحن الأعضاء إلى بعضها ، وتهفو النفوس إلى بارئها فتشرئب إلى عليين ، كأنها فى سموقها النخلات البازغات تطاول السماء وتتشعع إلى مواطنها .

وشعر رابعة فيه كل ذلك ولو لم تقل سوى هذه الأبيات :

أحبك حبين : حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا
فأمّا الذى هو حب الهوى ... فذِكرٌ شُغِلتُ به عن سواكا
وأمّا الذى أنت أهلٌ له ... فكشفُك الحُجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولاذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ولَخلُد اسمها بين العاشقين والشعراء الموهوبين . ولقد نسبوا إليها هذه الأبيات الرائعة .

وقد جعلتك فى الفؤاد محدّثى ... وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانسٌ ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

ومن الغريب أنهم نسبوا إليها فى هذه الأبيات **الحلول المسيحى** واتهموها بالكفر لمخاطبتها الله بالندّية .

وزادى قليلٌ ما رأه مُبلّغى ... أللزاد أبكى أم لطول مسافتى !
أتحرقنى بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائى فيك أين مخافتى !

وكان لرابعة بعض النثر فى حكايات وأمثال وأدعيات ، ونثرها يتحدث عن حبها الإلهى وفيه ما فيه مما ينبىء أن المحدث امرأة . ولا يطيب النثر للسامع كما يطيب الشعر ، ونثرها يستدعى التفكير أكثر مما يستدعى الوجد ، ويميل إلى المعرفة التى أساسها الإقرار بالوحدانية . والمعرفة طريقة للوصول وغايتها أن يتعلم العقل فيستنير القلب . والعارف بالله يفنى عن نفسه ويعرف أنه لا يقوم بذاته وإنما قيامه بالله ، فهو يتحرك وينطق عنه ، وينظر بنوره ، ومعرفة الصوفية بالله هى توحيدهم ، والتوحيد سرّ من الأسرار لا يكشف الله عن معناه إلا لمن يحبه ويطلب معرفته ، والفرق بين **المحب لله والعارف** به أن المحب يفنى فى محبته تعالى عن نفسه ، والعارف يفنى عن نفسه فى توحيده ، وهكذا كانت رابعة رحمها الله . **فهى محبة لله فى شعرها ، وهى عارفة به تعالى فى نثرها .**

ومن الظلم البيّن للقارىء ولنفسه أن يقول الدكتور بدوى مقالته تلك عن رابعة

وشعرهـا ونثرهـا ، ومن العجب العجاب قولـه فى نثرهـا ، وهو فيه أشـد اعتسافـاً وأكـثر إجحافاً ، وعهدى به أنه العالم الجليل والفيلسوف الكبير .

وأما تريزا الأڤيلية فلم تكن تقرض الشعر ولا تعزف آلة موسيقية . وهذا العرق الفنى فى رابعـة ليس عند تـريزا بـالمرة . ومن الظلم أن نقـارن بينهما فى هذا المجـال . ولم يذكـر المؤرخون لها إلا قصيـدة يتيمة من بضعـة أبيات تنصـح فيها المريدات مـن جنسها أن لا ينزعجن ولا يثيرهن شىء ، فالكل إلى زوال ، واللـه وحده هو الباقى ، والصبر ينيل المبتغى ، وكل من يجعل الله معه لايحتاج لشىء بعده ، فالله وحده فيه الكفاية ، وحتى هذه القصيدة لم تنشرها ولم يعرفها عنها المتصلون بها إلا بعد وفاتها .

وقد سبق أن نبهنا إلى الاختلاف الجذرى بين التصوف الإسلامى والتصوف المسيحى نتيجة الاختـلاف بين الديانتين بحسب ماهيـة الإله فيهما ، وتريـزا تخاطب الله فى سيرتها وتقول صراحةً يـاعريسىّ ، وتحكى عن طريقتها فى التأمل بأنها كانت تستفـرغ طاقتها فى التفكير فى يســوع المسيح ، ولقـد بلغ من تعلّقهـا بيسوع المسيح أنهم أطلقـوا عليهـا **تريزا اليسوعية** ، وكانت كما تقول تحضره فيها ، وتتأمل مشاهد صلبه ، ومراحل تألمه ، وتتمثله فى باطنها ، ولم تكن تستحضر **لاهوت الرب** وإنما تمثلها كان **لنا سوته** .

وأهمية **الأدب التيريزى** أن التجارب التى تقدمها تريزا فى كتبها لها طابع إنسانى ، ولم تلجأ إلى التخيل كثيرًا ، ولم تعتمد على التصوير ، وقصدت إلى أفكارها مباشرة بشفافية غير مبتذلة . وكتابها **السيرة** مثلاً ـــ كما قيل فيـه ـ شهادة شخصيـة نابعـة من أعماق ذاتها وليس من التعاليم التى تلقتها ، ولا من دائرة الثقافة المسيحية التى نشأت فيها ، وهو تعبير عن حياة قد التزمت تماماً بكل كلمة ذكرتها وكل حادثة روت عنها .

وكتابات تريزا عبارة عن محاورات مع نفسها ومع الله على صعيد الإيمان . **وتجارب تريزا** دروس للمبتدئات من المسيحيـات . ومعظم الوصف الـذى تقدمه إمـا مناجـاة لله أو وصف لحالات التجلى والمشاهدة ، كأن تقول : فجأة كـان يعترينى شعور بحضور الله فلا أشك أنه داخلى ، أو أنـه يستغرقنى فى حضـوره ، ولم يكن الأمر مجرد رؤيـا بل أكون كأن

نفسى معلقة ، وكأنها خارج ذاتى ، وتضيع ذاكـرتى ، وكأنما تحركنى المحبة التى فى قلبى ، وكأنما عقلى قد تـوقف عن العمل وقد روعــه ما يدرك ، لأن اللــه يريــده أن يفهم أنه لايفهم شيئاً مما يعرضه عليه .

وتعتمد تريزا فى تقريب المجرد باستخدام الأمثلة ، كطريقة المسيح فى الأناجيل ، وتشبّه مثلاً حياة التأمل « بـاستصـلاح بستان فى أرض جدباء يكثر فيها العشـب الردىء ، وعندما تعـزم نفسٌ على ممــارسة التأمل وتشرع فى انتهــاج هــذا السبيل ، فإنها تكـون كمن يقتلع العشب الردىء ليغرس مكانه النباتات الصــالح ، وعلينا أن نجهد بمعونة الله على أن نكون بستانيين مهرة ، فننمى النبات ونعنى بريها لئلا يصيبها الجفاف ، ولكى يخرج منها الزهر فواحاً يبهج ربنا ، فيقصد هذا البستان ليتنعم به ويستريح فيه » .

وطريقة تريزا الاستبطانية لم تكن تعرفها رابعة ، فرابعة كانت تصلى صلاة حقيقية إسلامية وتكثر من الصلاة التعبدية هذه ، فكانت كما قيل تصلى ألف ركعة فى اليوم . وتريزا صلاتها عقلية أى تأملية ، وكانت تخلـو إلى نفسها فى مصلاتها وتوحى إلى نفسها وتتقمص شخصية المسيح ، والتقمص وسيلة من وســائل استبطان ذات الآخر ، **وإيزنشتاين** ـ أبو مخرجى المسرح ومعلم التمثيل فى كتــابه عن **فن الممثل** ـ ينصح بـالتقمص ، وهو أن يتعين الممثل بالدور الذى يلعبه ويرى نفسه فيــه اليوم كله ، بل مدة تمثيله للدور على المسرح ولو استغرق ذلك منــه الشهور . وكـانت تريـزا تفعل ذلك حتى قيل فيها إن المسيح استغـرقها تماماً وأنــه حلّ فيها على الحقيقة ، وحالها فى ذلك كحــال الحلاّج عندما ردّ على أحد ســائليه بأنه ما فى جبته إلا الله . وهكذا كانت تـريزا ، فلقد عدمت جسمها ونحلت واستحالت روحاً هى المسيح ، تفكر به ، وتشعر وتعيش هذا الدور معظم اليوم . وكانت تأتيها الرؤى تلقائية وتشاهد المسيح ويتحدث إليها . وتقول تريزا عن موضوع تأملاتها . لنتأمل سراً من أسرار الآلام ـ يسوع مربوطاً على العمود مثــلاً فالعقل يمضى باحثاً عن دوافع هذا التعذيب ، وعن الآلام والحزن الذى عاناه جل جلاله فى تلك الوحدة وأمور أخرى كثيرة يمكن أن يستخرجها العقل من هذا المشهد إذا كـان يعمل وكان مثقفاً . هذه هى طـريقة التأمل التى يجب أن يبدأ بها الجميع ويتابعوها وينتبهوا إليها ، وهى طـريق مأمونة وممتازة إلى أن يقودهم الرب إلى

أحوال أخرى أفضل . وقد يستفيد البعض من تصورهم أنفسهم فى جهنم ويحزنهم ذلك ، أو يتصورون الموت . وقد يكره البعض أن يخوضوا فى ذلك ويلجأون للتأمل فى قوة الله وعظمته فى الخلائق ، وفى الحب الذى يحبنا به والذى عليه كل مخلوقاته .

ومن رأى تريزا أنه لابد للمبتدىء من معلم خبير ، فإن لم يكن المعلم خبيرًا فإنه يرتكب أخطاء كثيرة . وتريزا تنتقد النقص الذى عليه كتاباتها لعجزها عن الكتابة بطريقة واضحة ، ومن ثم تلجأ إلى الكثير من الشرح . وفى مناجاتها تحتاج إلى المزيد من الكلمات لتعبر عن نفسها ، تقول . يا ربى ! ياخيرى العميم ! ما أن أنطق باسمك أناديك حتى تفيض دموعى وأشعر بمسرة كبرى تعم نفسى . أنت يا رب تقول إن نعيمك مع بنى البشر وتريد أن تقيم معنا ، وإذا لم نأت ذنباً تمتعنا بعشرتك وتسر أنت ربى بعشرتنا ، وكلما سمعت هذه الآية شعرت بالتعزية الكبرى حتى عندما كنت ضالة » .

وتعرب تريزا عن تنعمها بحالة تأمل السكينة وهى أرفع حالات التأمل ، وترغب كالقديس بطرس أن يكون مقامها الدائم فى تأمل السكينة ، وتصف أحوالها فى هذا المقام بأنه شرارة صغيرة من حب الله الحقيقى يبدأ الرب بإشعالها فى النفوس ، ويريد منها أن تفهم تدريجياً طبيعة هذا الحب الذى فيه الألم والسرور معاً ، وتقول إن التأمل عمل من أعمال الإرادة توظف فيه العقل ، والإرادة توقظ الحب وتزكيه لتحقيق فعل المحبة . وفى التأمل تكون راحة النفس أثناء السكون ، ويتنحى العقل بعلومه ويبادر إلى شكر الله بعبارات مختارة ، إلا أن الإرادة فى هدوئها تقوم بواجب الشكر أكثر مما يستطيع العقل . نعم إن الإيمان عمل من أعمال الإرادة وليس العقل . وفى مرحلة من التأمل تَسْبُتُ كل القوى ولكنها لاتتعطل تماماً ، وتكون هناك المسرة والمتعة والعذوبة بما يفوق الوصف ، وهى حالة ليست فى نظرها سوى موت عن كل أشياء العالم واستمتاع بالله . وتقول إنها لا تجد عبارات تفصح بها عن حالتها ، ولا طريقة تبينها بها ، فالنفس ذاتها لاتدرى عنها ، ولا تدرى أتتكلم أو تصمت ، وهل تضحك أو تبكى ، وإنه لهذيان مجيد وجنون سماوى تتعلم فيه الحكمة الحقيقية وإنها لطريقة تستمع فيها النفس أيما استمتاع ، وتكون قوى النفس مؤهلة فيها كليا للانشغال بالله ، ولا تجرؤ على إتيان حركة ، وتود النفس أن تجاهر

بالتسبيح لله ولكنهـا لاتتمالك ذاتها ، ويسيطر عليها اضطراب عذب ، فكـان الله فى عونى ! كيف تكون نفسى وهذه حالها ؟ لكم تود نفسى لو تكون كلها ألسنة تلهج بذكر الله !

وتقول تريزا عن هذه الحالة إنها تلهم قول الشعر ، وتعرف من كان يقوله فيها رغم أنه لم يكن شاعـراً ، ولكن النفس تنظم الشعر والعقل ليس له دور فيه ، وتحكى أبيـات الشعر عن **الألم السار** ، وتشكو إلى الله هذا **الألم العذب** ، وكم يود الشاعر لو يتمزق نفساً وجسداً ليبين كم هو سعيد ويستمتع بهذا الألم العذب !

وتريـزا تبدو فى هذه السطور وكأنها التجسيـد لمقولات **الدكتور بدوى** فى الديالكتيك الوجودى الـذى يجمع طرفى التوتر فى وحـدة . وتشخص تريزا حالتهـا هذه بأنها جنون أو هوس دينى ، وتحثّ أتبـاعها بأن يصابوا بمثل مـا هى مصابة بـه ، وتسأل الله أن يصيب النـاس جميعاً بهذا الجنـون ، وتقول : لنكن كلنـا مجانين حبـاً فى الله ولنستسلم كليـاً بين ذراعى اللـه ، فإن أراد ن يذهب بنفـوسنا إلى السماء فليـذهب ، وإذا إراد أن يمضـى بها إلى الجحيم فلا ألم ينزل بها إن مضت مع خيرها الأعظم !

وهذا **المقام** الذى تحكى عنـه تريـزا هو التســليم لله والـرضا بحكمه وبما تـأتى به المقادير ، وحتى لـو أراد أن ينزع منا الحياة أو نعيش ألف سنة رضينا بـالأمر ، والمحب لله ينبغى أن تكون إرادته هـى إرادة الله !

وفى أعلى المقامات **مقام الاتحاد بالله** ، وتعرّفـه تريـزا فتقول هـو أن يصير الاثنـان واحداً . وتشرح هـذه الحال بعبارات قويـة فتقول : وفيها النفس تبحث عن اللـه وتشعر فى غمـرة من المتعة عـذبة ، وكأن بها جميعـا خوراً ويصيبهـا بعض الإغماء ، وتخونها قواهـا البدنيـة فتعجز عن تحريك اليديـن لو أرادت إلا بجهد جهيـد ، وتَغمُض العينان من غير أن تـريد إغماضـهما ، و إذا بقيتـا مفتـوحتين فلا تـرى شيئـاً ، وإن قـرأت فـلا تحسن التلفظ بحـرف ، وحتى لا تعرفـه ، فترى الحرف غير أن العقل لا يسعفهـا بالمعـرفة ، فـلا تحسن القراءة ولو أرادت ذلك ، وتسمع ولكنها لا تعى ما تسمــع ، وتتلاشى كل قوى البدن لتقوى النفس وتستطيع أنتستمتع أفضل استمتاع بمجـدها الذى هى فيـه باتحادها بـالله ، ويتم

ذلك بسرعة بحيث أن هـذه العلامات ، وتَعطُّل الحواس ، لا يلحظـان كفاية ، لسرعـة حدوث الظاهرة ، إلا أن المحب لله يدرك من فيض ما فيه من إنعام أن سطوع الشمس فى النفس كان شديدًا لأنها أذابت النفس تذويباً ! » .

وما تحكيه تريـزا أحسب أنه لأول مرة يحكى أحد الصوفية عن هـذه التجربة ويقرّبها هكذا لـلأفهام . وتتـوغل تريزا أكثـر فتقول إنها تعجـز عن الوصف لأنها لا تكـون نفسـها وتترك ذلك لله نفسه . وتقول إن الرب هو الذى كلمها وشرح لها بكلماته فقال : « إنها تذوب بـالكلية ـــ أى النفس ـ لتنـدمج بـالأكثر ، فـلا تعـود هى التى تحيا ، بل أنـا ، وبما أنها لا تستطيع أن تستوعب مـا تفهم فإنها وهى تفهم ... لا تفهم » . وهى أبلغ عبـارة فيما أعرف تشرح الاتحاد .

وتزيـد تريزا الشرح فتقول إن اللـه أكثر من ذلك حاضر حضوراً حقيقيـاً فى الأشياء . وتميز تريـزا بين الانجذاب أو الانخطاف والاتحاد ، « ففى **الانخطاف** تبدو النفس كأنها لا تبعث الحياة فى الجسد فتقل حـرارته ويتخلله البرد بعذوبة ولـذة بالغتين ، وأما فى **الاتحاد** فنكون فى طبيعتنا ونقاوم بعـض المقاومة ، وأما فى **الانخطاف** فكأن نسراً يتخطفك فيحملك على جنـاحيه وتـرى نفسك محمـولاً ولا تعـرف إلى أين ، ولئن شعرنـا بلـذة إلا أن ضعف طبيعتنا تجعلنا خـائفين فى البدء ، فيلزم أن تكون النفس مقـدامة وجريئة وعازمـة لتخاطر بكل شىء ، وليحدث مـا يحدث ، ولتستسلم بين يدى الله ، ولتترهب بطيبة خـاطر إلى حيث تُحمل ، لأنك تُحمل رغماً عنك . وكان ذلك عنـدما يحدث لى أقاومه بعض المقـاومة مخافة أن أكون مخدوعة وتحت تأثير الشيطان ، فكنت من فرط مقاومتى تخور قواى وكأنى أصارع جباراً ، وكانت المقاومة مستحيلة أحياناً ، لأن العصف كان يشمل نفسى ثم رأسى غالباً فى أثر ذلك فلا أتمكن من أن أسيطر على الموقف ، وأحيانـاً كان يحمل جسمى كله فيدفعه عن الأرض » .

وتريزا كما نرى تخوض تجارب صوفية حقيقيـة وتغوص فى التجربة وتصفها كعالِـم نفس ، وإن تكن لغتها غير علمية . وحال **الانخطاف** هذه هى نفسـها التى يشرحـها الصوفية المسلمون ويطلقون عليها **الانجذاب**، أو الاستلاب ، أو الذهاب ، ويفسرهـا **السراج الطوسى**

بأنها أن يُخالَط قلب العبد من عظمة الله فيذهب عقله أو قلبه عن حس المحسوسات بمشاهدة ما شاهد ، ثم يذهب عن ذهابه . وما يقوله السراج ويحتاج إلى المزيد من الشرح تقوله تريزا ببساطة ووضوح ، وهذا هو الفرق بينها وبين رابعة ، فرابعة لا تتعمد أن تشرح أحوالاً ، ولا تكتب تجاربها لتغوص فيها وتستبطن ذاتها ، ومن هذا الوجه فإن **تريزا تفضل رابعة** ، ومن ناحية أخرى فإن رابعة كانت وجدانية ، وكانت أحوالها تلهمها الرفيع من الشعر ، وهى الحالة التى وصفتها تريزا خير وصف حين قالت إن المرء فيها يكون بحيث يقول الشعر طواعية حتى وإن لم يكن شاعراً .

ويصدق على **تريزا ورابعة** قول تريزا « إن أقوالى فى حياتى الخاصة من عندى ، وأقوالى فيما لا يخصنى من حياتى تتناول حياة الله فىّ » ، وحياة الصوفية أرفع من كل كلام أو شعر يقال .

وتذكر تريزا أنها لما حرمت القراءة باللغات لجهلها خاطبها الله · لا تحزنى فإنى سأعطيك كتاباً حياً . وحياة رابعة وتريزا هى هذا الكتاب الحى ، فلقد غمرهما الله بحبه فاستغنتا عن كل كتاب ، وكان الله عز وجل هو الكتاب الحقيقى الذى وجدتا فيه الحقائق كلها .

وتختتم تريزا بهذا القول الرائع · تبارك هذا الكتاب الذى يطبع فينا ما يجب أن نقرأ ونفعل فلا يصيبنا النسيان .

ومن فيض ذلك الكتاب كان شعر رابعة وكتابات تريزا ، ولم تكن أى منهما بغيّاً أغلت فى الإثم وتابت وأصرت على الاستغفار ، فبمثل هذه الكلمات التى نطقتا بها كتب التصوف تاريخه وقام كعلم من علوم الشريعة .

ولست أرى إلا أن **الدكتور بدوى** قد تجنى على رابعة وتريزا وأرادهما نمطين من أنماط فلسفته ، فراح يفسر على هواه أقوالهما وتجاربهما ، حتى أنى لأظن أنه لم يقرأ تريزا ، ولكنه قرأ رأى النقاد فيها غالباً وتفسيراتهم ، فنصب من هذه الأقوال نموذجا لرابعة ، وذلك ظلم وأى ظلم من الدكتور العالم والفيلسوف الكبير !

والآن ما هو رأى العلم فى توبة البعض ، وهل من الممكن أن تتوب بائعة الهوى أو الزانية الواغلــة فى الإثم والمعصية ، وأن تكون أيضــاً صوفية مترهبة صــاحبة مدرســة ومبادىء ، وصانعــة قيم ، ومعلمة ، ومربيــة لأرفع أخلاق يمكن أن يتخلّق بها إنســان ، وهى الأخلاق الصوفية ؟

أقول هل من الممكن ذلك ؟

سنرى فى الفصل القادم ...

★★★

الفصل السابع

رأى العلم فى إمكان توبة الآثمة الوالغة فى الإثم وأن تكون من أولياء الله

★★★

الإثم الذى ينسبه الدكتور بدوى لرابعة العدوية يرجعه إلى عدة عوامل ويشخّصه بشكل لا لبس فيه فهو يقول « إنها اندفعت فى طريق الشهوات إلى مدى بعيد ، وغرقت فى بحر الشهوات ، واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة ، وتطرّفت فى فجورها وحبها للدنيا ، واندفعت فى طريق الإثم إلى حد بالغ الإفراط » . ويرجع الدكتور هذه الحالة عندها إلى :

١ ـ الحرية التى تحصلت لها بعد عتقها .

٢ ـ الحياة الفنية التى حيتها باحترافها العزف على الناى والإطراب ، فما كان من الممكن أن تكون بمنجاة عن ألوان الإغراء فيها بأنواع الأحابيل التى تنصب لمثيلاتها فى هذا المضمار .

٣ ـ اليأس من عاطفة اندفعت فيها نحو شخص ثم خاب رجاؤها فيه .

٤ ـ تجربة حب مخفق استشرف إلى سراب زواج أو ما إليه .

٥ ـ تجربة يائسة من دنيا الناس .

غير أنه يؤكد على تجربة **الحب المخفق** أكثر من أى من الأسباب الأخرى حيث أنها تتحدث فى قصيدتها التى مطلعها « ياسرورى ومنيتى » عن هذا الحبيب الذى يبدو أنه « كان موسيقياً يتكسب من إحياء الحفلات فى مختلف البلدان ، فكانت مضطرة أن تلاحقه فى الأماكن التى كان ينتقل بينها فاضطرت إلى التشتت فى فسيح البلاد » .

أنت لــــولاك يـــا حيـــاتــى وأنسى   مـــــــا تشتتُ فى فسيـح البـــــلاد

وكذلك فإنــه يرجع الصور الشعريــة فى مناجاتها لربها « إلهى ! أنارت النجــوم ونامت العيون وغلّقت الملـوك أبوابها ، وخــلا كل حبيب بحبيبه ، وهــذا مقامى بين يــديك » إلى أيام غرامهــا الآثم مع هذا الحبيب حيث كـانت لها معه « لياليهــا الحُمْر بين مخارف النخيل على ضفاف الأُبلّة وقد غفلت عيون الرقباء من الناس ومن الشرطة خاصة » كما يتبين فى عبارتها ذات الدلالة الكبيرة « وغلقت الملوك أبوابها ، أى اختفى سلطان الحاكم وأصبح فى وسعها أن تختلى بحبيبها تساقيــه ما تود من اللذات المحـرمة . وتأمّلْ خصوصـاً الشوق المتحسّــر فى قولها وخلا كل حبيب بحبيبه ـ ففيه قشعريرة قلب طالما نَعِم بهذه اللحظات العالية » .

وهذا التشخيص لانحراف رابعة المزعوم يعده علماء النفس والطب النفسى من الحالات المرضية التى لاشك فيهــا ، ويرجعه **كينزى** فى كتابه « **السلوك الجنسى عند الأنثى** » إلى أسباب عـدة تؤهل المرأة لأن تندفع فى طـريق الإثم وتوغل فيه وتصر عليــه ، ومن ذلك تدنى البيئة الاجتماعية التى تعيش فيها المرأة والتى تـربّت عليها   وينبه عالم آخر مثل **ريتشارد سيمون** فى كتابه الجامع « **فهم السلوك الإنســانى فى الصحة والمرض** » إلى تأثير الجيتو على انحراف البنات بخاصة .

والملاحظ أن الدكتور بدوى قدم لكتاب رابعة بما يفيد أنها كانت من أبوين فقيرين فقراً مدقعــاً ، وأنه من المحتمل أنهما كانــا من أصول أجنبية ، والموالى فى البصرة كانــوا يسكنون أحياء خاصة مهملة بشدة وغير صالحة ، وذلك حقيقى ومستمر حتى الآن ويسمونها هناك « **العشيش** » ، لأنها تتكـون من مجموعــة من العشش والأكواخ ، وتفـرخ فيها الجريمــة والانحراف ويعانى منهــا الأبناء سوء التوافق فى حياتهم المستقبلة ، ويتعلمــون منها الحقد الاجتماعى ، وتمتلىء قلوبهم بالحزل ، وتفـرغ البنات طاقاتهن العـدوانية فى الجنس توقعن فيه الرجال خصوصاً من الطبقة العالية .

ويلاحظ علماء النفس ارتباط انحراف البنات بتــدنى المستوى التعليمى والثقافى وعدم وجــود الوازع الــدينى نتيجة ســوء التربيــة والخلافات العــائلية والطــلاق وسوء الأحــوال المعيشية والسكنية والخدمات الاجتماعية والصحية .

ومن رأى **فيليب سولومون وفيرنون باتشى** فى موسوعتهما فى « **الطب النفسى** » أنـه لابد كـذلك أن تكون هنـاك مؤثـرات بيولـوچية تسبب الانحـراف ، وسوء وظيفـة المخ والجهاز العصبى المركزى والإفرازات الهرمونية .

وهناك إجماع بين علماء الطب النفسى على أن الإناث عموماً أقل إتياناً للإنحراف وأكثر ميـلاً إلى العفة ، وأن الانحـرافات التى يأتيهـا الذكـور أكثر تنـوعاً ، فـاللواط ، والتشبّـه ، والفيتيشية ، والتطلّـع ، وغواية الأولاد ، والـدقر ، والتخنث ، كل ذلـك وغيره يكاد أن يقتصر على الذكور دون الإناث ، وأن الغوايـة والحض على الانحراف السبب فيهما دائماً من ناحية الذكور .

وتلعب الأسبـاب النفسيـة دوراً حـاسماً فى رأى علماء التحليل النفسى ، ومن ذلك أن البنات فى مثل حالة رابعة كما يشخّصها الدكتـور بدوى ، لابد أن يعانين من صراعات حادة تظهـر آثـارهـا اضطـراباً فى السلـوك والتفكير ، وعـدم نضج الشـخصية وقصـورهـا الاجتماعى . وغـالباً مـا يكون سبب انحـراف البنت ـ كـالانحراف المزعـوم لرابعـة ـ هـو اضطرابـات عصبية تصـاب بها وتسـتفحل معها مع استمـرارها فى حيـاة الانحراف لمدة طـويلة ، وتميل إلى أن تصـاب من جرّائهـا بالفُصـام . والكثير من البنات الـلاتى يمارسن الفجـور مصابـات بالشـخصيـة الفُصاميـة ، وأغلبهن يعـانين من تدنّى مسـتوى الذكـاء وضحالة العواطف واضطرابها وعدم نضجها .

فهل كانت رابعة كذلك ؟ وهل هناك فى حياتها مايدل على مثل ما أشرنا إليه ؟

ولنفترض أن حالـة رابعة هـى إحدى الحالات التى تعرض على طبيب نفسـانى أو عالم نفس أو محلل نفسـانى ، فالإجـراء معها هو أن يبحـث فى تاريخ الحالة ويستمـع إلى أقوال المحيطين بها ومـا يمكن أن يشكـو منه أفـراد عـائلتهـا ، ويستعرض أقـوالها واعترافـاتها وشروحها وتعليقاتها على مختلف المواقف .

ولقد جمعْتُ فى الفصل الثـانى كل ما استطعت أن أجمعه عن رابعـة من كلام المؤرخين العارفين ، والإجماع على أن رابعة كانت ولية من أولياء الله ، وكانت عابدة خاشعة ، وأظهرت

التدين فى طفولتها الباكرة كما فى حكاية العطار عنها مع أبيها ، وكانت شديدة التدين فى **المراهقة** ويظهر ذلك من حكاياتها التى يرويها العطار أيضاً مع عابر السبيل الذى نظرها فى الطريق ، وصلاتها ، والنور الذى كان يحيط بها والذى بسببه أطلق مخدومها سراحها ، ثم فى شبابها **طَلَبَها للزواج** عبد الواحد بن زيد الصوفى الورع الزاهد المتبتل ، **وخطبها** محمد بن سليمان الهاشمى أمير البصرة وكان معروفاً بالتقوى والصلاح ، ولم يتقدم لخطبتها إلا بعد أن استشار أهل المشورة من الصالحين فأشاروا عليه برابعة ، **فهل كان من المعقول أن يكون خاطبوها على هذا القدر والتقوى والسلطة والجاه وأن تكون رابعة من النساء ذوات الماضى الشائن ؟ !**

ثم إن أقوال رابعة ومحاوراتها لرجال الفكر والدين والدنيا تدل على ذكاء عال جداً ، ووعى وحس دينيين ، وشخصية متميزة من كافة النواحى . ولم تعرف عن رابعة أية شائنة ، لا فى سلوكها ، ولا فى أقوالها ، ولا فى محيطها من النساء والرجال ، ولم نعثر على نص واحد يدينها إلا حكايتين إحداهما عند **اليافعى** والأخرى عند **لسان الدين الخطيب** ، والحكايتان ليس فيهما من قريب أو بعيد أن رابعة متهمة فى شرفها أو والغة فى الإثم ، أو أنها كانت تقتات قوت الحواس ، وإذا كانت تعزف على الناى وتغنى ، ومع الشهادات السابقة لها من كل منْ أرّخوا لسيرتها من الأئمة والمشاهير فإنها لابد أن تكون من المنشدات المتدينات .

ومنذ وعت البشرية تاريخها فإن الإنسان كان عازفاً لآلة موسيقية ، وقد يستخدمها فى مجال التعبّد ، كما قد يستخدمها فى مجال اللهو ، ومجال رابعة هو مجال التعبّد بالإجماع ، وعزفها على الناى وإنشادها يُحسَب لها ولا يُحسَب عليها . ومن بداية التاريخ البشرى كان العزف مصحوباً بالكلام ، ولم تعرف البشرية الموسيقى الخالصة إلا فى القرن الخامس عشر الميلادى مع اكتشاف الهارمونى ، فبدأت كتابة الموسيقى لتعزف على الآلات ، و تطور ذلك الفن فى أوروبا خاصة منذ ذلك الحين . وقبل ذلك كنا نحن العربَ والأوروبيين سواء ، بصرف النظر عن روحنا الشرقية أو روحهم الغربية على عكس ما يقول الدكتور بدوى . وكان عصر الباروك هو العصر الذهبى للموسيقى الخالصة ، والموسيقى لأية آلة وفى أى زمان ومكان تُعزف للمتعة ، سواء كانت متعة حسية أو روحية . والحب هو موضوع

الموسيقى المصاحَبة بالغناء أو الخالصة . وحتى أعمال **باخ** ، والدوافع لها ، وما يحكمها من روابط وما تقوم عليه من تراكيب ، قوامها الحب . **وباخ** ، نفسه هو الذى يقول عن آلات النفخ أنها تسره أكثر من غيرها ، وحلاوتها تذكّره بتجربته مع الحب . وكل الموسيقات العظيمة كانت مشبوبة بالعاطفة ، ورابعة إذ تقرض الشعر وتعزف الناى ـ وهو آلة نفخ ـ وتنشد ، إنما يضعها ذلك فى مرتبة عالية من التحضّر ويميزها بروح فنية متسامية .

ومن تصانيف علم النفس فى الشخصية ما يقال له **النمط الدينى أو الميتافيزيقى** ، ومنه نوعان : نوع **عقلانى** ويمكن أن ندرج فيه مثلاً **القديس أوغسطين وتريزا الأفيلية وبولس الرسول** ، ونوع **وجدانى** ومنه **رابعة العدوية والبسطامى والحلاج** . والتعبير بلغة الحب كان عن الأشواق الدينية منذ بداية البشرية ، فالأوائل كانوا يتعبدون للفَرْج وللقضيب ، ورسوماتهم الدينية والدراما الدينية فيهما من ذلك الكثير ، وقد ترقّت العواطف البشرية بتأثير الدين وبما فرضه من أوجه التحاريم أو التابو ، غير أن اللاشعور كان يجد طريقه دائماً حتى فى أسمى المواقف تديناً ، فكانت الأشواق إلى السماء ، وإلى الاتصال بالله ، والتعبير عن المحبة له والأنس به ، والغيبة فى تجلياته ، والسُكْر فى شهوده .

والتجربة الدينية الممتعة التى تدخلها الشخصية الدينية باستمرار وتطلبها فى اتصالها بالناس وبالكون ،بخلاف التجربة التى تدخلها الشخصية من النمط الحسى الشهوانى والذى يطلب المتعة الجنسية الشبقة فى كل ما يتصل به من أمور الحياة . وينطبق النمط الحسى الشهوانى على البغايا والمخالطات أو المشاعيات وضحيات الغواية . وهناك سيكولوجية خاصة بالغواية من ناحية الرجل الغاوى والمرأة المغواة أو الضحية ، وكلاهما سعى للآخر بالجاذبية ، وما كان يمكن أن تكون المرأة ضحية إلا لأن لها دورها الإيجابى فى الغواية أيضاً بحكم ملامحها وطريقتها فى الكلام وتكوينها الجسمى وملابسها الفاضحة . **ولم تكن رابعة بها أى من هذه الأمور لتكون ضحية غواية من حبيب أصابها من حبها له أن فقدت التفكير السليم ، وباعت دينها وشرفها وماضيها المعروف بالصلاح عن أبيها وأمها** ، ولقد كانت شهرة أبيها أنه العابد ، وكانت له رؤى وكرامات كما كانت لرابعة كرامات منذ طفولتها .

وفى علم النفس الـدينى أن التجربة الـدينية لابـد لها من استعدادات شـخصيـة ذهنية ونفسية ، وتـوجهات واهتمامـات واتجاهات وميـول مسبقة . ولابـد أن تكون للشـخصيـة الدينيـة نوازع وأشواق تهفـو بها إلى التفكير فى الكون وخالقـه وتستشعر عظمة اللـه فيه ، ويسمى فرويد ذلك **بالحس الكـونى cosmic sense** ، ويسميـه آخـرون **بالحس الميتافيزيقى** ، وذلك الحس الغالب هو الذى يجعل الشخصية تضفى التفسيرات الصوفية على التجارب الحياتية وتخلص منها بمعان ومشاعر تتسامى بالشخصية فترهف بها الذات ويكون لها مزاج روحى يرفعها باستمرار ويوجدها أمام الله .

والطفلة رابعة التى تحذر أباهـا من الحرام ، ثم **المراهِقة رابعة** التى تشكـو حالها لـربها كعادة المراهقـات فى الشكوى ، تبلغ شأواً بعيـداً فى النضج الفكرى والـدينى عندمـا تخاطب الله بما يعنى أنها لا يهمهـا كل ما يعرض لها من مشـاكل وسوء معاملـة طالما أنها تستشعر أنـه راض عنها ، أى راضٍ عن ردود فعلهـا على كل ذلك ، فهى لا تتصرف أبدًا بما يغضبه وكانت تضع رضاه فى المحل الأول من أى سلوك تأتيه .

ويقول علماء النفس : **إن الشخصية المتدينة** تتميز **بأنـا أعلى متطور** ، وأن تطوره **أسرع** من كل أجـزاء الجهـاز النفسى ، والأنـا الأعلى الأخلاقـى أو الدينى يكـون أصـلاً فى الشخصية المتدينة **أكبر** من سـواه عنـد الأشخاص غير المتـدينين ، وهـو **أقدر** على النمـو والامتثـال للتربيـة الدينيـة والأخـلاقيـة عنـد الشخصيـة المتدينـة منـه عنـد غيرهـا من الشخصيات .

والبغى أو المخالطـة أو الفاجرة تتـوب بالعلاج النفسى أو بـالمعاناة الصـادمة ، ولكن توبتها لا تكون سوى امتناع عن الفعل الشـائن ، إلا أنها لا تكون مؤهلة لكى تكون صوفية لها أقوال ومذهب ومبادىء ومدرسة . والصراعات التى قـد تدخلها الفاجرة لن تأتيها أصلاً إلا إذا كـانت تحت تأثيرات من شـخصيـة تحبهـا فتنحرف عن طـريق الفجـور إلى طـريق الصلاح ، ومع ذلك تظل التائبة مهددة بالعودة إلى طريق الفجور لو عانت ضغوطًا تعود بها القهقَرى وتنكص بها إلى سيرتها القديمة .

ومن أشق الأمـور فى الطب النفسى أن تتـوب الفـاجـرة ، وتحتـاج للتـوبـة أن تكـون مستبصرة بحالتهـا وراغبة فى التـوبة ، وأن يـوجد إلى جـوارها المرشـد عالى الهمـة ، واسـع الثقافة ، شـديد الإيمان برسالته كما تقول تـريزا ، الذى يساعدها على التـوبة ، ويقوى من أناها ، ويصلح ما بـه من شروخ ، ويسد ما أصابه من فجوات ، ويـدعمه ، ويحتاج ذلك إلى سنـوات . ولقد احتـاج **القديس أوغسطين إلى عشر** سنـوات من القـراءة المتواصلـة فى الأفلاطونية المحدثة والاستماع إلى **القديس أمبروز** والمحاورات مع أساطين المسيحية ، لكى يقتنع بالمسيحيـة ويعتنقها ، ويتنكب الطـريق القديم ، ويترك عشيقتـه ، ويترهب ، ويعتزل الحياة الجنسيـة . وقبل كل ذلك كـان للقديس أوغسطين شخصيـة قوية ، وذهـن وقّـاد ، وفلسفـة يصدر عنهـا فى سلـوكـه ، ونفس مشرئبة إلى المعـالى وتهفـو بـاستمرار للتعـالى والاتصـال بالمتعـالى الذى هـو الله . وهـو يحكى عن تجربته الـدينية حـديثه الشـيّق فى **اعترافاته** ، فنفهم أنه فى كل مـا كان يفعل قبل التدين والـرهبنة كان ينشـد المطلق والمتعالى ويشتاق للدخـول فى تجربة مع اللامتناهى ، فالاستعداد هـو الأساس دائماً فى التصـوف ، ولم يتصـوف **الفضيل بن عياض** قـاطع الطريق لمجـرد أنه استمع إلى الآيـة : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾ ، فلو لم يكن يعرف ربـه قبل سمـاع الآية ، بل ويعرف الآية معرفته لأولاده بل أشد ، لما قال قولته « يا رب قد آن » .

ويحدثنا علم النفس عن الانحراف بالصدفـة والانحراف بالفطرة ، وانحراف **الفضيل** قبل التصوف كان بتأثير البيئة ، ولكن فطرتـه الإيمانية هى التى غلبت تأثيرات البيئة ، وما كـان ينقصـه سـوى أن يسمع هـذا الهاتف يـدعـوه فيترك كل شىء ويمضى فى الإيمان . وفطرته هذه هى التى بها يقول « إنى لأعصى الله فأعرف ذلك فى خُلُق حمارى وخادمى » . ومع ذلك **فالفضيل بن عياض** لم يكن فى التصوف مثل رابعة ، ولا ارتقى إلى ما ارتقت إليه ، ولا عرف ما عرفته وذاق ما ذاقته ، **فالفضيل** التائب بخلاف رابعة ، شهيدة العشق الإلهى ، والمُحبَّة الصـوفية ، وشتّان بين مكـانة رابعة ومكـانة **الفضيل** ، وقـد دخل **الفضيل** باب الشهرة من طريق التوبة ، وإنما دخلت رابعـة مجال الشهرة من أوسع أبوابها وهى المَحبة ، وأخصها باب العشق ولقد سألوها : أترين من تعبدين ؟ قالت : لو كنت لا أراه لما عبدته » ، فهى تراه بقلبهـا ، وتسمى هذا العلم المتحصل من ذلك **بالعلم الروحى** ، وتقول عنه : إن

ثمرة العلم الروحى هى أن تصرف وجهك عن المخلوق كيما توجهــه إلى الله الخالق وحده ، لأن المعرفة هى معرفة بالله » .

ورابعة روحانية قد غلب حب الله على قلبها وأهوائها وإرادتها ، ووقعت عليها الخلة من الله ، فأين ذلك من **الفضيل بن عياض** ! فلابد إذن أن رابعة كـانت بفطرتها واستعدادها وتربيتهـا ، والقدوة التى كانت لها فى أبيهـا وأمها ، ومجاهداتها مع أقـرانها أمثال **الحسن البصرى** ، **وعبد الواحد بن زيد** ، **ورياح القيسى** ، **وسفيان الثورى** ، كانت مؤهلة تماماً لكى تكون رابعة التى دخل اسمها التاريخ ونعـرفها ويشهد لها القاصى والدانى ، حتى أن **ابن تيمية** قد شـهد لها وكذّبَ ما قيل عنها من أساسه .

وإذن ، فلا يمكن علمياً أن تكون رابعة فاجرة كما يدعى الدكتور بدوى . ولعمرى كيف تسنى له أن يقذفها بما قذفها بـه والله تعالى يقول فى كتابه . ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ .

(سورة النور الآيات ٤ ـ ٥) .

والمحصنة هى العفيفة ، والبيان فى الآيتين عن القاذف للمحصنة ، فإذا لم يأت بأربعة شهود فيجلـد ثمانين جلدة ، ولا تقبل له شهـادة ، ويُقضَى فيه بالفسق ، أى لا يكـون عدلاً عند الله ولا عند الناس إلا أن يتوب ويصلح .

ويقول الله تعالى : ﴿ **إن الذين جاءوا بـالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل ، امـرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم لـه عذاب عظيم** ﴾ .

(سورة النور . الآية ١١) .

وكان نزول هــذه الآية فى السيدة **عائشة** حين رماها أهل الإفـك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت ، ومعنى أنهم عصبة أى جماعـة تتجاوز الواحد أو الاثنين ، وقد

تقدمهم كبيرهم رأس المنافقين **عبد الله بن أبى سلول** ، الذى كان يجمعهم ويستوشيهم ، حتى دخل ذلك فى أذهـان بعض المسلمين فتكلمـوا بـه وجـوّزه آخرون إلى أن نـزل القـرآن يدحض الفرية .

ويقول اللـه تعالى : **﴿ لـولا إذ سمعتموه ظن المؤمنـون والمؤمنـات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ، لولا جاءوا عليـه بأربعة شهداء ، فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكـذّابون . ولـولا فضل الله عليكم ورحمته فى الـدنيا والآخـرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفوهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبـونه هينـاً وهـو عند الله عظيم . يعظكم الله أن تعـودوا لمثلـه أبداً إن كـنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الـذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾** .

(سورة النور . الآيات من ١٣ ـ ١٩)

والمعنى أنه كان الأحـرى بالمؤمنين أن يحسنوا الظن بأنفسهم ولا يصدقـوا ما سمعوه من افتراءات على الأعـراض ، طالما أنها لم تثبت ولم يقم عليهـا الدليل الـدامغ ، وقد مـالأتم الخائضين بأن خضتم معهم ورويتم عن بعضكم البعض وقلتم بألسنتكم مـا ليس لكم به علم ، وتحسبونـه هينًا وهو عنـد الله عظيم . وكان الواجب أن تقـولوا لاينبغى أن نذكـر ما سمعناه لأحد لأنه البهتان ، والله ينهاكم أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ، ويحذركم من الذين يحبـون أن يلطخوا سمعة المؤمنين ، وأن يقال عن مجتمعـاتهم أنها مجتمعات تشيع فيها الفـاحشة وفى الحديث الشريف . إن الرجل ليتكلم بـالكلمة من سخط الله لا يـدرى ما تبلغ ، يهوى بها فى نار أبعد مما بين السماء والأرض » . وفى الحديـث أيضاً : « لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه فى بيته » . وهـو ما كان ينبغى على **الدكتور بدوى** أن يتوخاه ، فليس مـا ذكره عن رابعـة من التفلسف فى شىء . وكان الأحـرى بغيره من المفكرين أن يصـوّبوه وقت ظهـور كتـابه ، والحق أن كثيرين قـد كتبوا نـاقدين للكتـاب مثل **الدكتورة سعـاد عبد الرازق** ، **والأستاذ طه عبد الباقى سرور** ، غير أنهم لم ينبهوا إلى حكم الشريعة فيما أتـاه الدكتور .

وخطورة هذه الاتهامات التى ساقها أن آخرين وقد اعتبروه من الثقات قد شايعوه عليها واعتبروها حقائق ، فكتبت سنية قراعة كتابها **عروس الزهد رابعة العدوية** ، واخترعت لحياتها قصة ملفقة مضمونها افتراءات الدكتور وأقامت منها مغنية فى حانة ، ومحظية عند أحد التجار يتنازعها منافسوه ويكيدون لبعضهم بسببها . واستحسن القصة أحد المنتجين فصاغوها فيلماً جعلوا عليه ممثلة لم يكن لها من الحضور والشخصية ما يتوافق وعظمة رابعة ، وظنوا أنهم لو أشركوا فى الفيلم سيدة الغناء العربى **أم كلثوم** لتقوم بدور رابعة كمغنية فإن ذلك سيحقق لهم النجاح ، وقد نسوا أن غناء **أم كلثوم** لابد أن تتهايأ معه الممثلة ، وأن يأتى تمثيلها على نفس القدر من امتياز الغناء ، ولولا **أم كلثوم** وشعر **طاهر أبو فاشا** لافتقد الفيلم كل المقومات التى كان ينبغى أن تتوافر لعمل كبير كهذا .

ولقد كان طاهر أبو فاشا صوفياً فى القصائد **الست** التى قدمها ، وأحسب أنه عاش حياة رابعة الحقيقية حتى أننا لنقرأ قصيدته **عَرفْت الهوى** فكأن رابعة هى التى صاغتها ، وكأن الزيادة التى أضافها على أبياتها الأربعة المشهورة هى من نسج رابعة نفسها . وكم كانت رائعة أم كلثوم وهى تصور بصوتها المتعبد وعواطفها الجياشة الألحان التى وُضِعت لهذه الأشعار الإلهية ، وكأن الجميع : أم كلثوم ، وأبو فاشا ، ورياض السنباطى ، وكمال الطويل ، ومحمد الموجى ، جوقة من العباقرة تلبّستهم روح رابعة ، وحلّت بهم كراماتها وبركاتها ، فجاءت الأغانى الست من آيات الإبداع .

يقول **أبو فاشا** على لسان رابعة :

عرفت الهوى مذ عرفت هواكَ ... وأغلقت قلبى عمن عداكا
وقمت أناديك يا مَنْ ترى ... خفايا القلوب ولسنا نراكا
أحبك حبين حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى ... فشُغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهلٌ له ... فكشفُك للحُجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

★★★

أحبـــــك حبين حـــــب الهوى وحبـــــاً لأنك أهـل لــــذاكـــا
وأشتـــاقُ شـــوقين : شـــوقَ النـــوى وشـــوقـاً لقـــرب الخطى مِنْ حماكـــا
فأمـــا الــذى هــو شـــوق النـــوى فَمَسْرى الــدمــوع لطــول نــواكـــا
وأمـــا اشتيـــاقى لقــــرب الحِمى فنـــارُ حيـــاةٍ فنـت فى ضيـــاكـــا
فـــــلا الحمــــــد فى ذا ولا ذاك لى ولكـن لك الحمــــــد فى ذا وذاكـــــا

★★★

ويقول :

غـــريبٌ على بـــاب الـرجـــاء طـــريح يـنـــاديك مـــوصـول الجوى وينـــوح
يهون عـــذاب الجسم والـــروح ســـالم فكيف وروح المستهـــام جـــــروح
وليس الــذى يشكو الصبــابــة عاشقـاً ومـــا كل بـــاكٍ فى الغـــرام قـــريح
ولى فى طـــريق الشـــوق والليل هـــائمٌ معـــــالم تخفَــى تـــــارةً وتلـــوح
ولى فى مقـام الـــوجـد حـــالٌ ولــوعـــةٌ ودمـعٌ أدارى فى الهوى ويبـــــوح
وأنت وجـــودى فى شهـــودى وغيبتى وسرّك نـــور النـــور أو هـــو رُوح
ومـــا دخلـتْ إلا إليك مـــــواجـــدى وداعى الهوى بالوالهـــــين يصيح
بسرّ الهوى يغـــدو وفيـــه يـــروح غـــريبٌ على بـــاب الـرجـــاء طـــريح

★★★

ســـألـــت عـــن الحب أهـــل الهوى سقـــاة الــدمــوع نــدامى الجوى
فقـــالـــوا حنـــانك مـن شجـــوه ومِـن جــــــــــدّه بـك أو لهوه
ومِـن كـــــدر الليـل أو صفـــــوه سلى الطير إن شئِـت عن شَـــــدْوه
ففـى شـــــدوه همســـــات الهوى وبـــــــــرْح الحنين وشرْخ الجوى

★★★

ورحت إلى الطير أشكو الجوى وأسأله سرّ ذاك الجوى
فقال حنانكِ من جمره ومن صحو ساقيه أو سُكرِه
ومن نهيه فيكِ أو أمرِه

★★★

سَلِ الليل إن شئتِ عن سرّه ففي الليل يُبْعَث أهل الهوى
وفي الليل يكمن سرّ الجوى

★★★

ولما طواني الدجى والجوى لقيت الهوى وعرفت الهوى
وتلك النجيمات سُمّارُه وتحت خيام الدجى ناره
وفي كل شيء يلوح الهوى ولكن لمن ذاق طعم الهوى

★★★

ويقول :

لغيرك ما مددت يدا وغيُرك لا يفيض نَدا
وليس يضيق بابُك بى فكيف ترد من قصدا
وركنك لم يزل صمدا فكيف تذود من وردا
ولطفك يا خفى اللطف إنْ عادى الزمان عَدَى
على قلبى وضعتُ يدا ونحوك قد مددتُ يدا
سرى ليلى بغير هدى ولا أدرى لأى مدى
يطاردنى الأسى أبدا ويرعانى الجوى أبدا
وأطوى البيد طاوية كأنى فى الفضاء صَدَى

نهارى والهجير لَظَـــــــى   وليلى والظـــــــــلام رَدى
فـــــواكبـــــدى إذ أُضحـى   وإن أمُسـى فـــــواكبـــــدى
وليـس ســـــواك لى سنـــــد   فقـــــدت الأهل والسنـــــدا

ويقول :

على عينـــــى بكـــــت عينـــــى   على روحـــــى جنـــــت روحـــــى
هـــــواك وبُعـــــد مـــــا بينـى   وبينـك ســـــرُّ تبريحى
على عينـــــى ، على روحـــــى   فـــواغـــوثـــاه يـــا غـــوثـــاه
ومـن طـــــول النـــــوى   أواه آه آه
صحـــــا مـن شجـــــوه كأسى   وقـــد نـــام الخليّـــونـــا
وكيـف أفـــــر مـن نفسى   إذا هـــام المحبـــونـــا
على نفســـى جنـــت نفســـى   فيـــا ويـــلاه يـــا ويـــلاه
ومـن طـــــول النـــــوى   أواه آه آه
حيـــائى منك يبعـــــدنـى   وداعـى الشـــوق يُـــدنينـى
ووجـــــه الصفـح يخجلنـى   ويقتلنـــى ويحيينـــى
وأيـــــامـى تقـــــاضينـى   على مـــا كـــان وأسفـــاه
ومـن طـــــول النـــــوى   أواه آه آه
خلـــوت إليك يـــا ربى   وقلـت عســـــاك تقبلنـى
فما بـــــالى أرى ذنبى   وأيـــامـى تطـــاردنـى
مـــددت يـــدى فخـــذ بيـــدى   إليـك ومنـك يـــا ربـــاه
ومـن طـــــول النـــــوى   أواه آه آه

★★★

رحم الله طاهر أبو فاشا وأم كلثوم !

الفصل الثامن

رابعة فى ضوء التحليل النفسى

★★★

إن مفتاح شخصية رابعة يكمن فى أحوالها وطوارقها النفسية ، فى خوفها وأنسها ، وشوقها وحبها وطمأنينتها ورجائها ، وقبضها وبسطها ، وتهيبها وتواجدها ، وفنائها وبقائها ، وغيبتها وحضورها ، وصحوها وسكرها ، وذوقها وشربها ، ومكاشفاتها ومشاهداتها . وأعماق نفسيتها يفسرها أنها صوفية ، وللتصوف سيكولوجية لا يحسن التحدث فيها إلا الصوفية أنفسهم ، ولعل أستاذ التحليل النفسى فى التصوف هو **المحاسبى** بلا منازع ، واسمه **المحاسبى** لأنه كان شديد المراقبة لنفسه .

والأحوال فى التصوف معان ترد على القلب وتحل فيه ، فإن كانت كالبروق وزالت فى وقتها فهى **الطوارق** ، وإن استقرت فيه ودامت فهى **الأحوال** قد تمكنت وطبعت الصوفى ، والصوفى إنسان عابد **homo religioso** ، وهو فى معراج الترقى فى القمة ، فالصوفى يتسامى بغرائزه وحاجاته ويتحول بطاقته الشهوية إلى تربية ذاته ، فإن ترقى عن ذلك فإنه يتحول بها إلى الله فتشغله محبته لله عن نفسه . والمعاملة إذا صارت إلى المحبة تستريح الجوارح بها ، ويتحصل للصوفى اليقين ، وتتحقق له الطمأنينة .

ورابعة راعت سرها من خواطر نفسها ومشغوليات الأسرة وعوارض الجسم المذمومة . وتمكنت رابعة من المجاهدة حتى صارت لها بمثابة الوطن تجد فيها لذة قلبها وتتذوق لها حلاوة . ويروى عن رابعة أنها كانت تصلى فى اليوم ألف ركعة ، وكانت تستغفر وتبكى حتى ليكون دمعها مثل المستنقع تحتها . وكانت تستلذ بالصلاة وترتاح لها نفسها، وتتوسل إلى الله وتناجيه وتعاتبه فى رجاء ، وتأنس به عن الأهل والولد . والألم الصوفى نتيجة المجاهدات الطويلة والمنهكة قد يتحمله البعض وقد يتخفف منه آخرون ، ولكن رابعة وهى الأنثى كانت

تستعذب الألم ، والإناث عموماً بهن **ماسوشية** ظاهرة ، بمعنى أنهن بـالفطرة قادرات على احتمال الألم ، ولولا ذلك ما تطلب الأنثى الحمل المرة بعد المرة رغم ما فيه من مشقة وعُسر تعانيهما وتجد لهما حلاوة فى قلبها . وفى الألم الصوفى يقول **محمد بن واسع** : كابدت الليل عشرين سنة فتنعمت به عشرين سنة » . وسألوا **رياحاً القيسى** فى حضرة رابعة . هل طالت بك الليالى والأيـام بالشوق إلى لقـاء الله ؟ فسكت ولكن رابعـة أسرعت بالجواب : أمـا أنا فنعم! » . فكانت رابعة تكابـد الشوق لله ، وتتعذب فى شوقها . وكـانت راضية بعذاباتها فى حبها لله ، فلما قال **سفيان الثورى** عندها يومـاً : اللهم ارض عنى ؟ قالت له . أما تستحى أن تطلب رضا من لست عنه بـراض ؟ ! ـ فهى راضية دائماً ، وحالها فى الـرضا أنها تسرها منه تعالى المصيبـة كما تسرها النعمة . سئلت : متى يكون العبد راضيًـا ؟ فقالت · إذا سرته المصيبة كما سرته النعمـة ! ـ وأحوالها فى محبة الله حتى لينسيهـا هذا الحب نفسها ، فهى تفنى فى أحوال أنسها بالله عن ذاتها حتى لتدخل شظية فى عينها وهى تسجد فما تدرى بها ولا تتوجع . وكانـت إذا ذكر اسم الله فى أحوال أُنسها تتـوجد وتبكى وتصرخ حتى ليغشى عليها . وهى تتوجد إذا عصفت الرياح واضطربت الأمواج وأشرقت الشمس بنورها واظلمت الدنيا فظهـرت النجوم بلألائها . وقد تبكى وتتـوقد حاستها الشعريـة فتسبّح لعظمة الله . تقـول . سيدى ! بـك تقرّب المتقـربـون فى الخلوات ، ولعظمتك سبّحـت الحيتان فى البحـار الزاخرات ، ولجلال قـدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات ! أنت الـذى سجد لك سواد الليل وضوء النهار ، والفُلك الـدّوار ، والبحر الزخّار ، والقمر النـوّار ، والنجم الزهّار ، وكل شىء عندك بمقدار ، لأنك الله العلى القهّار !

وفى البيتين اللتين تقول فيهما .

مـن ذاق حبـك لا يـــزال متيماً ... فـــرِح الفـــؤاد متيماً بَلْبـــال
مـن ذاق حبـك لا يُــــرَى متبسماً ... من طـــول حـــزن فى الحشـا إشعـــال

وتلخص رابعة أحـوالها بين البسط والقبض ، أو الفرح والاكتئاب اللـذين يتراوحانها . وقـد يبدو أنها تعـانى من مرض نفســى مما يعـالجه أطباء النفـوس ، إلا أن الأحوال عنـد

الصوفية ليست من مجالات الطب النفسى ، وحبها ليس توهماً كالذى يعانى منه مرضى الوساوس .

وفى حكاية لأحد الزهّاد قيل إنه **الحسن البصرى** ، أنهما بقيا يوماً وليلة يتحدثان عن الطريق الروحى وأسرار الحق بحرارة بلغت حداً نسيا معه أنهما رجل وامرأة ، فلما انتهيا من النقاش ، يقول **الحسن البصرى** : شعرت أننى لم أكن إلا فقيراً بينما هى غنية بالإخلاص !

والإخلاص سمة رابعة المميزة لشخصيتها . وهى مخلصة عندما كانت طفلة وطلبت من أبيها أن لا يُؤْكلها إلا بالحلال ، ومخلصة أن ترضى بكل عذاب طالما أنها تستشعر رضا الله عنها ، ومخلصة فى توبتها عن نفسها والدنيا وتَفَرُّغها لربها وتجردها ، فلم تتزوج ولم تنجب ، ولم تُشغَل بشىء عن عبادتها . ويصفها **العطار** فيحسن الوصف إذ يقول « عشقها لله كان متأصلاً فى أعماق قلبها » . ولربما يصح أن نقول عن محبة رابعة لله أنه **عِشقٌ** بينما تَعلُّق **سمنون** بالله أنه **محبة** . وخصوصية محبة أو عشق رابعة لله تعالى أن رابعة أنثى ، والمحبة شُغل الأنثى ، لأنها عندما تحب فبِكِيانها كله .

ولعله لهذا تقول فى حبها لله هذه الأبيات المشهورة عنها .

أحبك حبين : حب الهوى — وحبًا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى — فذكر شغلت به عن سواكا
وأما الذى أنت أهل له — فكشفك الحُجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولاذاك لى — ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

فحبها لله فيه معنى المحبة الإنسية التى يَعرف عنها البشر ، وفيه كذلك تلك المحبة التى تفوق ذلك وتتجاوز كل وصف ، لأنها من أسرار مقام المشاهدة ، وفيها تقول رابعة . إلهى ! إن قلبى مضطرب وسط هذه الدهشة ! » - والأمر مع رابعة الأنثى أنها تتزيد المحبة المؤلمة لها ، تقول . إلهى أغرقتنى فى حبك حتى لا يشغلنى شىء عنك ! » - وهى من فرط تمنيها أن

لا يشغلها شيء عن ربها تطلب منه « **الفقر الروحى** » وتفسره منسوباً لله تعالى بأنه « عاطفة خوف من غضب لله يجعلها فى طريق الأولياء » ، ورابعة يتراوحها **الخوف من الله والمحبة لله** .

ولعله أن يكون مقصود الصوفية من قولهم « الله فينا » ليس هو **الحلول** بالمعنى المتداول ، ولكنه **الأنا الأعلى** الذى يمثل الله فى الإنسان ، ولأنه الأنا الآمر فالإنسان يخشاه ، ولأنه متعال فهو يحبه . ورابعة فى قبضها تقول : إلهى ! أتحرق بالنار قلبًا يحبك ؟ » ـ وكانت كلما سمعت النار تصيح وتسقط ، وسمعها **مالك بن دينار** تقول · يا رب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟ » ـ وفى بسطها تطلب أن تشاهد وجهه وتسأله تعالى أن يريها درجة السعادة التى يصل إليها العاشقون لله . وتباهى بحبها فيسألونها : أى رابعة ! أتحبين الله تعالى ؟ فتصرخ : أجل أحبه ! أحبه حقًا حبًا يمنعنى من الاشتغال بكراهية ما سواه ! » ـ وترى فى المنام الرسول ﷺ يسألها · يا رابعة ! أتحبيننى ؟ فتقول : يا رسول الله ﷺ ! وهل ثمت من لا يحبك ؟ ولكن حبى لله تعالى قد ملأ قلبى إلى حد لم يجعل ثمت مكاناً لمحبة غيره أو كراهيته ! »

ورسالة الحب هى رسالة المرأة ، وليس بالمستغرب أن تكون المحبة هى حال رابعة ، وإنما محبة رابعة فى الذُّرَى ، وعامة الناس محبتهن للدنيا ، والقلوب مجبولة كما يقول رسول لله ﷺ على حب من يحسن إليها وبُغض من يسىء إليها . ولكن محبة رابعة متناسبة مع ترقى رابعة فى مدراج العبادة وارتفاع قامتها فى الإنسانية ، وحبها لله لذلك هو حب الصادقين والمتحققين . ودراسة رابعة نفسياً ، أو سيكولوچية رابعة ، مجالها لهذا السبب فى علم النفس التكاملى ، **والإنسان الكامل** هو العابد الذى عرف ربه فأحبه ، وذاق من محبته تعالى لخلقه فأحبهم لحبه ، ومُلىء قلبه فطار بالله طرباً وهام إليه اشتياقاً كما يقول الخراز . وكان الرسول ﷺ يقول : « إنه ليُغان على قلبى حتى استغفر الله تعالى فى اليوم سبعين مرة » . فكان ﷺ فى الترقى من أحواله ، فإذا ارتقى من حالة إلى حالة أعلى مما كان فيها يلاحظ ما ارتقى عنه ويعده غْيناً ، كما يعد ما ارتقى إليه ، فكانت أحواله فى تزايد .

ورابعة تقول . يا إلهى ! إذا كنت أعبدك خوف النار فأحرقنى بنارها ، أو طمعاً فى الجنة

فحرّمها علىّ ! وإذا كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك! » . وسبيلها ذاك أو **معراجها الروحى** تقول فيه إنه الطريق الذى اكتشفته ، وهو السبيل السوى . وهى لم تعرف غير الله فى حياتها ، وكانت معه بقلبها وجسمها وروحها ونفسها . وما كانت تعرف النوم ، وكان يمر بها الأسبوع ولم تتناول طعاماً ولم توقد سراجاً ، وإنما هى فى شغل دائم مولعة بالصوم والصلاة . وهى تقول على لسان محبوبها « يا رابعة ! إن شئت أن تكونى دائمًا مولعة بى فعليك أن تتخذى من ترك الدنيا صناعتك الدائمة ، ولن تنالى الوَله حتى يكون لك ترك الدنيا ، فالوله من أجل الله ليس مجاناً » . ومن أجل الله تشتتت فى البلاد ، وهاجرت فى أرض الله الواسعة ، وكانت راحتها فى خلوتها فى حضرة الله الذى لم تجد عن هواه عوضاً ، وهواه هو **عظمتها** ، وهو أيضاً كما تقول **محنتها** ، وأقصى أمنياتها أن يجود الله بالوصل .

وتعبيرات رابعة نسائية خالصة ، فلم يكن تصوفها استرجالاً أو تعويضاً عن النقص الذى تستشعره فى نفسها كأنثى كما يقول عالم النفس **أدلر** ، ولكنه كمال تطلبه لنفسها . وشخصية رابعة من هذا النمط الذى من دأبه التجرّد ، ويختار المعنوى على الحسّى ، فإذا سألوها عن شوقها للجنة قالت : الجار قبل الدار ! » . وهى **ملامتية** : لا تحب أن يظهر عملها ، وتقول : ما ظهر من عملى فلا أعده شيئًا » . ومن فرط أنوثتها كان خطابها لمن تأتنس بإيمانه « حبيبى » ، وقد نادت به اللص الذى دخل بيتها سارقاً بعد أن تاب على يديها وسمعته يبكى فى صلاته ، ولم يعتبر عبد الرحمن الجامى أنوثتها نقصاً فيها ، ولم يعد طريقتها استرجالاً ، فقال عنها : **العارفة الواصلة إلى مراتب الرجال** » ، وهى شهادة رجل تضاف إلى شهادات كثيرة من أهل الرأى وشيوخ الطريقة ، فقد قال فيها **سفيان الثورى : المؤدبة التى ما أرتاح لمجلس أحد مثلما ارتاح لمجلسها** » .

ورابعة المرأة والصوفية قيل فيها أنها« **فى المحبة رائعة** » وقد شربت من كأسها وخمرتها حتى الثمالة ، وسمعت الكثير من العتاب لها على حبها وإخلاصها لهذا الحب حتى قالت هذه الأبيات المنسوبة لها :

كأسى وخمرى والنديم ثلاثة وأنا المشوقة فى المحبة : رابعه
كأس المسرة والنعيم يديرها ساقى المدام على المدى متتابعه
فإذا نظرت فلا أرى إلا له وإذا حضرت فلا أرى إلا معه
ياعاذلى ! إنى أحب جماله تا الله ما أُذنى لعَذلك سامعه
كم بتّ من حُرَقى وفرط تعلّقى أُجرى عيوناً من عيونى الدامعه
لا عبرتى ترقأ ولا وصلى له يبقى ولا عينى القريحة هاجعه

وقد وصف **الغزالى** حال رابعة فقال: إن حبها لرب الدار ، أى الدنيا شغلها عن الدار وزينتها ، بل عن كل شىء سواه ، حتى عن نفسها ، ومثلها مثل العاشق المستهتر بمعشوقه ، المستوفى همه بالنظر إلى وجهه ، فإنه فى حالة الاستغراق يغفل عن نفسه ، ولا يحس بما يصيبه فى بدنه ، ويعبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه » . وهذا المعنى عند **الغزالى** يرفع عن رابعة أن تكون معاناتها من المرض النفسى الذى يطلق عليه **فقدان الشخصية Depersonalization** ، وفقدان الواقع **Derealization** . ويقول **الغزالى** : إن معنى أن رابعة قد فنيت عن نفسها أنها صارت مستغرقة بغير نفسها ، وصارت مهمومة بالله ، ولم يبق منها متسع لغيره أو لنفسها ، وهذه الحالة هى التى توصل إلى قرة عين لا يُتصوَر أن تخطر فى هذا العالم على قلب بشر » .

★★★

الفصل التاسع

قضية زواج رابعة، والمحبة
والخلة عندها، والشطح المتهمة به

★★★

لم يختلف الأقدمون فى أمر زواج رابعة ، ويبدو إن المحدثين وحدهم هم الذين أثاروا القضية وجعلوا من زواجها مشكلة ، وكان الدكتور بدوى أيضاً هو المشكك فى الأخبار التى افترضت زواجها ، واعتمد فى ذلك على خلط المؤرخين بينها وبين رابعة الشامية ، وأن رابعة كما أورد المؤرخون عنها قد خُطِبت لأكثر من واحد ، وفى كل مرة كانت ترفض فكرة الزواج من أصلها .

وتؤكد **الدكتورة سعاد عبد الرازق** على خلاف الدكتور بدوى أن رابعة تزوجت ولم تخطب إلا بعد أن مات زوجها ، وتفترض أن زوجها كان **رياحاً القيسى** ، وتقول إن رياحاً قد توفى بين عام ١٧٧ وعام ١٧٩ هـ ، أى فى تاريخ سابق على وفاة رابعة بحوالى عشرة أو خمسة عشرة عامًا ، وذكرت فى وفاتها أنها عاشت يقينًا ما يقرب من خمسة وثمانين عاماً ، ومعنى ذلك أن عبد الواحد بن زيد ومحمد بن سليمان الهاشمى لم يتقدما لخطبتها إلا وهى فى سن السبعين أو الخامسة والسبعين بعد أن توفى زوجها وذلك ما لا يقبله عقل ويمجه الذوق !

وطالما أن هذه المسألة من المسائل التى ينبغى أن يتوفر لها مؤرخ فأرى أن نتركها لنتناول بالشرح ما هو أهم ، وهو رأى رابعة فى الزواج ، أو ما أطلق عليه الدكتور بدوى **نظرية رابعة فى الزواج** . وعنده إذا صحت الأخبار التى تروى عن الحسن البصرى ومالك بن دينار ، والتى تؤكد عدم زواجهما عن مبدأ فإن الدعوة إلى **التجريد** أى عدم الزواج تكون

قد وجدت فى عصر سابق على رابعة . وقد دعا بهذه الدعوة الصوفية الذين اعتقدوها لما رأوه من عدم توافق الجمع بين التأهل وبين ممارسة حياة الزهد . ولم يعدموا فى القرآن آيات يمكن تأويلها بحيث تؤيد وجهة نظرهم . غير أن رابعة هى التى ضربت بسهم وافر فى سبيل تقنين عدم الزواج عند الصوفية ، وكان لها أثرها الحاسم فى هذا التوجه ، لأنه صار بها بمثابة القاعدة التى كان من الصعب على الصوفية من بعد الخروج عنها ، وذلك لأن رابعة امرأة ، وغاية المرأة فى الحياة هى الزواج ، وهو عندها أهم مما هو عند الرجل فإذا كانت وهى المرأة حريصة على عدم الزواج ، فما أبلغها من قدوة عند الصوفية . وكانت لمسئلة خطبتها مرتين دلالتها على قوة نفسها فى هذا الباب ،وكان جوابها على عبد الواحد بن زيد ــ بعد أن حجبته أياماً ولم تشأ أن تراه بعد أن سمعت منه هذا المنكر فى نظرها ونظر كل صوفى حقيقى وهو طلبها للزواج منه ــ « يا شهوانى ! أطلبُ شهوانية مثلك ! أى شىء رأيتَ فىّ من آلة الشهوة ؟ » . كما كان جوابها على أمير البصرة محمد بن سليمان الهاشمى وقد خطبها على صداق مقداره مائة ألف . « إن الزهد فى الدنيا راحة البدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزَن ، فهيْء لمزادك ، وقدّمْ لمعادك ، وكن وصيًا لنفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقسموا تركتك ، وصُمْ الدهر واجعل فِطْرَك الموت . وأما أنا فلو خَوّلنى الله أمثال ما حُزْتَ وأضعافه لم يسرّنى أن أشتغل عن الله طرفة عين ! » ، وفى رواية أخرى « ما سرّنى أنك لى عبد وأن كل مالك لى ، وأنك شغلتنى عن الله طرفة عين » . فرابعة إذن نذرت نفسها لله ، وإذا كان الزواج الحق هو زواج الحب ، وحبيبها الوحيد هو الله فإذا كان لها أن تقترن بأحد ــ والكلام هنا للدكتور بدوى ــ أفبغير الله تستطيع الاقتران ؟ هنا تأتى نظريتها فى الحب فتؤيد نظريتها فى الزواج ، وهذا هو الجديد حقاً فى مذهب رابعة فى التجرّد والعزوبة (!!) . ونظرية رابعة فى الحب يدخل فيها معنى الخُلّة ، ويفسر تطور نظرية الحَجّ إلى حد إسقاطه ، إذ يمكن أن يُفسَّر على أنه كان على وجه الخلة بينها وبين الله » .

واستخلاص رأى رابعة فى الزواج ينبغى أن يكون فى إطار المذهب الصوفى والتراث الإسلامى ، والأصل فى الإسلام أن **الزواج فرض مع الحاجة ، وسُنّة على الكفاية** ، والأحاديث تترى تحض على الزواج مثل « من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا » ، و « إذا أتاكم من تَرْضوْن دينه وأمانته فانكحوه ، ألاّ تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد

كبير » ، وفى الخبر من نكح لله وأنكح لله استحق ولايته . ـ وهذا أدنى حال تُنال به الولاية لأنها مقامات ، ولكل مقام عمل من الصالحات .

وقد رأى كثير من الصوفية أن التزويج له شروط لا تتوافر فيهم ، واتهم الفقهاء بشر ابن الحارث بترك السنة ، ويعنون بها الزواج ، فدافع عن نفسه بأنه مشغول بالفرض عن السنة ، وقال . ما منعنى من ذلك إلا الآية فى كتاب الله التى تقول ﴿ **ولهن مثل الذى عليهن** ﴾ وعلمى أنى لن أقوم بذلك » . وقال فى مجال المقارنة بينه وبين **الإمام أحمد بن حنبل** أنه ، أى الإمام ، يفضله بثلاث « بطلب الحلال لنفسه ولغيره ، وأنا أطلب الحلال لنفسى ، واتساعه للنكاح وضيقى عنه ، وقد جُعل إماما للعامة وأنا أطلب الوحدة لنفسى » .

وكان **أبو طالب المكي** يقول : الأفضل للمريد ترك التزويج إذا أمن الفتنة ، واعتاد العصمة ، ولم تنازعه نفسه إلى معصية ، ولم تترادف خواطر النساء على قلبه فيتشتت بها همّه ، وتقطعه عن حُسن الإقبال على الخدمة ، وما لم يجمح بصره إلى محظور ، وتخالطه الشهوة وتستولى عليه . ومتى وقعت هذه المعانى فإنها تغير القلب عن الخشوع ، وتُدخِل عليه النقصان . ومتى لم يُبْتَلَ العبد بها فإن الخلوة أفضل المعانى ، وفيها يجد لذة الوجود وحلاوة المعاملة ، ويُقبِل على نفسه ويشتغل بحاله ولا يهتم بحال غيره ، فيحمل حاله على حال غيره فيقصّر ، أو يقوم بحكم آخر فيعجز ، ويعالج شيطاناً آخر مع شيطانه ، وتنضم نفس أخرى إلى نفسه » .

« وهناك من الأسباب الكثيرة ما يمنع الصوفى من الزواج ، منها أن المكاسب قد فسدت فليس يُنال أكثرها إلا بمعصية ، وهو مسئول من أين اكتسبه وفيما أنفقه . ومنها أن أكثر النساء قليلات الدين والصلاح ، والأغلب عليهن الجهل والهوى ، فلا يأمن أن ينقاد لهن ، أو يمانعهن ، فيتنغص عليه عيشه . وإن كان المتأهل فقيراً لقى شدة وجهداً وعنتاً وكداً ولم يأمن دخول الآفات عليه . وقيل إن العيال عقوبة شهوة الحلال . **ويذكر إبراهيم بن أدهم** أن من تعود أفخاذ النساء لا يفلح . **ويقول الحسن البصرى** إذا أراد الله بعبد خيراً فى الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد » .

وعلى ذلك لم تتزوج رابعة إلا من هذا المنطلق :

أولاً : لأنها لم تكن ترى فيها ما يمكن أن يشتهيه الرجل .

وثانياً: لأنها كانت زاهدة فى الدنيا ، فكيف يمكن أن يكون لها فيها الأهل والولد ؟

وثالثاً: لأنها كانت فى قلق وكرب من الآخرة ، فكيف تحتاج إلى الزوج وتتفرغ له كما تقول ؟

ورابعاً : أنها كانت تجد راحتها فى خلوتها أو كما تقول .

راحتى يا إخوتى فى خلوتى وحبيبى دائماً فى حضرتى
لم أجد عن هواه عِوضاً وهواه فى البريا محنتى

إلى أن تقول

قد هجرت الخلق جميعاً أرتجى منك وصلاً فهو أقصى منيتى

فهى **مشغولة** بالله عن الزواج ، ومن غير المستطاع أن تخدم سيدين ، وقد نصحت محمد بن هشام أن ينصرف عن الدنيا بدلاً من الزواج ، وأن يتهيأ لأمور الآخرة ، وأن ويصوم الدهر حتى يكون الموت فطره . وذلك يؤدى بنا إلى **السبب الخامس** فى عدم إقبالها على الزواج .

أنها قد صيرت الموت فطرها على الحقيقة ، فأماتت منها شهواتها !

ومن الطريف أن **محمد بن زكريا الرازى** يعلّق على مثل ذلك أن الامتناع عن الزواج والجماع ـ لضرب من التفلسف ـ يبرّد البدن ، ويعسر الحركة ، ويوقع الكآبة فى النفس بلا سبب ، فتعرض للممتنع أعراض الماليخوليا ، فتقل شهيته وهضمه . **وينقل عنه ابن الجوزى** ويؤكد أن ترك النكاح للصوفى فيه مخاطرة للبدن والدين وليس من الصحة فى شىء ، وقد يدفع بالتارك إلى الشذوذ الجنسى .

ومعنى قول رابعة تصيير الموت فطراً أنها ما عادت تشتهى الرجال . **وفى موسوعة أيزنك للطب النفسى** أن عدم اشتغال المرأة بأمور الزواج والنكاح يفسد طبعها ويستحدث امتناع الحيض والتبويض فيها ، فلا تعود بها حاجة إلى الرجل . وقد درس **أيزنك** ذلك فى النساء السجينات والراهبات والنساء المشتغلات بالمهن الكبرى التى تصرفهن عن الزواج ، **والتفسير النفسى** لذلك أن الطاقة الشهوية التى يمكن أن تصرفها المرأة على زوجها وأولادها كانت رابعة تصرفها فى توجهاتها الصوفية وأشواقها الربّانية ، ولذلك قالت بالمحبة **، وذلك هو سبب ارتباط المحبة عندها بترك الزواج .**

ومحبة رابعة من نوع خاص ، وهى محبة معنوية وليست حسية ، وقد ذكروا فى تفسير المحبة المعنوية الخفية : أنها صفة خاصة فى المحبوب تطابق مثلها عند المحب وتحمله على المحبة ، وهذه المحبة يدق فهمها على العقل كما يدق معنى التعاشق بين حجر المغناطيس والحديد والدليل على وجودها أنه قد توجد المحبة المفرطة بين شخصين من غير أن نعقل لها سبباً ظاهراً . والأسباب التى توجب المحبة معروفة ، وكلها ترجع إما لإحسان من المحبوب إلى المحب ، وإما لكمال المحبوب فى ذاته باتصافه بالجمال الظاهر أو الباطن من أجل شغف النفس بحب من اتصف بهذه الصفات التى هى أسباب المحبة . وأما هذه المحبة المعنوية فليس لها سبب من هذه الأسباب ، فرابعة لا تحب الله من أجل ثواب الجنة أو مخافة عقاب النار ، ولا تحبه لإحسانه وتفضّله عليها ، ولكنها تحبه لذلك وأكثر منه . وعندما تقول إن حبها له هو حب الهوى ، وحب هو أهل له وهو كشفه للحُجب حتى تراه ، فإن هذه المشاهدة لن نفهمها نحن لأن من عرف ذاق ، ومن لم يعرف لم يذق كما تقول هى ، ومحبتها لله إذن تدق على الفهم ، ولا يصل إليها الفكر ، وليس لها من تعليل سوى أنها من تأثير التعارف الذى جعله الله تعالى بين القلوب ولا يعلمه سواه ، ولهذا تقول رابعة :

فما الحمد فى ذا ولاذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ورابعة فى هذه الأبيات قد كشفت سر محبتها لمن يعرف . ولن يعرف إلا من كان الحق تعالى سمعه وبصره ، فَفَنِيَ فيه تعالى ، وغاب عن الكل برؤية مُوجِد الكل . والله يحب خلقه كما قال : ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ (سورة المائدة : الآية ٥٤) ، فدلّ على أن محبته تعالى سبقت محبتهم ، بل هى شرط فيها .

ومحبة المحبين لله عموماً هى ميل النفس الناقصة إلى إدراك ما فى إدراكه كمال ، ليحصل لها بهذا الإدراك الكمال الذى فقدته فى ذاتها ، إذ فى جوهرها محبة الكمال والتطبّع به إلى أن تبلغ فيه النهاية . وإذا كانت محبة العبد لله بهذه الصفة فليست كذلك محبة الله للعبد ، لأن كل جمال وكمال وبهاء وجلال ودوام بقاء فى العالم مستفاد منه ، وموجود به ، فلا يكون منه التفات إلى غيره ، لاستغنائه بكمال ذاته عن كمال غيره ، فليس له نظر إلا إلى ذاته ولا محبة إلاّ لها . والوجود كله هو فعل الله ، ولذا فهو يحبه ، والله إذ يحبه فلا يحب على الحقيقة إلا ذاته ، لوجود الأفعال كلها به وعنه . فمحبة الله لعبده هى الحقيقة وبها تكون محبة العبد ، ولو لم تكن محبة الله لم تكن فى العالم محبة أصلاً ، فهى النسبة الكبرى التى تنتهى إليها كل نسبة . فإذا قلنا إن رابعة العدوية كانت العاشقة لله فلا تثريب على ذلك ، لأنها فعلا كانت كذلك ، فمحبتها لله بلغت الذروة ، والعشق هو أقصى درجات المحبة ، وتندرج فيه كل مقامات المحبة ، ومعنى العشق أن ذات المحب استغرقتها ذات المحبوب ، فلم يشعر بنفسه ، وشغله عنها شهود محبوبه . ورابعة كانت كذلك فكيف يمكن لمثلها أن تتزوج ؟

ولا ينبغى أن نقول مثل مقالة الدكتور بدوى « **أن رابعة قد اقترنت بالله** » فذلك ما يصلح للمسيحية ، لوجود الناسوت بالله ممتزجاً باللاهوت ، فأمكن من ثم أن يتصور المسيحى إمكان اتحاده هو نفسه بالله . وأما العشق الصوفى الإلهى عند رابعة فهو اتحاد عقلى يوجب غفلة المحب عن الشعور بجملته ، شُغلاً منه بشهود محبوبه ، وذلك تفسير أبيات رابعة :

أحبك حبين : حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا
فأمّا الذى هو حب الهوى ... فذِكْر شُغِلتُ به عن سواكا
وأمّا الذى أنت أهلٌ له ... فكشفُك للحُجب حتى أراكا

وقد قيل أن **العشق جنون إلهى** يعنى أن العشق لا يُدَبَّر بعقل ، ولا تجرى فيه أمور العاشق على ما يوجب صلاح بدنه ، بل خرابه وتشويهه ، لأن شهود الصفات الروحية كلما

قويت على المحب تتخّرب منه الصورة الجسمانية وتتشوش هيئته الآدمية . ولقد قالوا فى رابعة بعد أن أحالها العشق إلى حال شديد من الهزال وأسرع السُقم إلى جسمها ، أنها كانت كالشَنّ تكاد تسقط ، فلا عجب أن تحولت إلى روحانية حتى لَيَأْمَن الحيوان إليها وتستأنس بها الغزلان فتصطف حولها فى رواية العطار ، فما تكاد تبصر الحسن البصرى قادماً من بعيد حتى تفر جميعها من أمام رابعة ، وذلك ما جعل الحسن تدب الغيرة فى قلبه ، وهو أيضاً ما يجعل **الدكتور بدوى** تدب الغيرة فى قلبه ، فيقول عن كراماتها : أنها من الأنواع المشهورة المألوفة فى الترجمات الخيالية للصوفية والقديسين ، وأن العملية التى أنتجتها واحدة ، وأنه لم يسقها فى كتابه إيماناً منه بأنها قد وقعت « فهيهات هيهات أن يخطر هذا ببالنا إذ نحن ننكر الكرامات والخوارق أياً كان مصدرها » !!!

★★★

ورابعة العدوية إذن قد رفضت الزواج من منطق مذهبها فى المحبة ، أو بالأحرى مذهبها فى العشق الإلهى ، ويرتبط بذلك قولها فى الخُلّة ، فيورد الزبيدى أنها القائلة .

وتخللتَ مسلك الروح منى ... وبه سُمّى الخليل خليلا
فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثى ... إذا ما سكتُّ كنتَ الغليلا

ثم يقول أنها كانت فى وَجْدِها تذكر الأُنس وترتفع إلى وصف معنى الخُلة فى قولها السائر :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدّثى ... وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى
فالجسمُ منى للجليس مؤانسٌ ... وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى

والخلة التى انتهت إليها فى معراجها الروحى هى كما يقول **المكى** صاحب **القوت** مقام يزيد على مقام المحبة . ومعنى الأبيات التى تسوقها رابعة فى الخلة أنها أى رابعة قد تخللتها

شمائل المحبوب الروحانية فتكيفت بها روحها ونفسها وجملتها الإنسانية ، فصارت أعضاؤها تتحرك بإرادة الله سبحانه لا بإرادتها عن نفسها ، واستحالت عليها المخالفة له .

ومقام **الخلة** هذا الذى ترقّت إليه رابعة بعد مقام المحبة ليس بعده المزيد ، فهذا أعلى المقامات ، وهو مقام قال **أبو يزيد البسطامى** أنه أقام فيه ووصف أحواله . وقال **أبو طالب المكى** إن **شقيقاً وابن أدهم البلخيين** كانت لهما مطالعات فى معانى الخلة ، وسلكا باب الفيض فى هذا الطريق وليس فوق الخلة **إلا درجة النبوة** ، ومقام الخلة لا يكون إلا مقام المحبوبين . وفى الخبر أن الله عز وجل أوحى إلى أوليائه إنما اتخذ لخلتى من لا يفتر عن ذكرى ، ولا يكون له غيرى ولا يؤثر علىّ شيئاً من خلقى . وإن حُرّق بالنار لم يجد لحرق النار وجعاً . وإن قُطِّع بالمناشير لم يجد للمس الحديد ألماً .

والخلة كما نبّه الرسول لا تكون من الله إلا لأوليائه ، والله سبحانه وتعالى إذا رفع عبدًا جاوز به الحد . **وتكلم الجنيد** عن الخلة فقال : هى غاية الحب ، وهى مقام عزيز يستغرق العقول ويُنسِى النفوس ، وهو من أعلى علوم المعرفة بالله تعالى . وفى هذا المقام يعلم العبد أن الله عز وجل يحبه فيقول العبد « بحقى عليك وبجاهى عندك » . ويقول الله تعالى « بحبك لى » .

وأصحاب الخلة هم المستأنِسون بالله تعالى ، وهم جلساء الله ، قد رفع الحشمة بينه وبينهم ، وزالت الوحشة ، فهم يتكلمون بأشياء هى عند العامة كُفْر بالله تعالى ، لما قد علموا أن الله تعالى يحبهم ، وأن لهم عند الله تعالى جاهًا ومنزلة .

وفى ضوء هذا التفسير للخلة ، وفى إطار هذا المعنى يمكن تأويل قول **البسطامى** « سبحانى ما أعظم شأنى » ، وقوله « جزت بحراً وقف الأنبياء بساحله » ، وقول رابعة « لو وضعت خمارى ما بقى بها أحد » ، وقد وصف **ابن خلدون** هذه الكلمات وأمثالها بأنها كشفية ، بمعنى أن حال الغيبة والسُكْر استولت على القائل فتكلم بما ليس فيه كلام ، ولعل ذلك يفسر كل **شطحات** رابعة من أمثال :

أتحرقنى بالنار ياغاية المنى فأين رجائى منك أين مخافتى ؟!

وقولها · « يـا إلهى إنْ بعثتَ بى يوم البعث إلى النـار ، لأذعتُ سراً يبعـد النـــار عنى بألف سنة ! » ، و « إلهى ! إذا بعثتَ بى إلى النار يوم البعث فسأصرخ نائحة : ربى ! يا من أحبه كل هذا الحب ! أهكذا تعـامل من يحبونك » ، وسؤالها « يا رب ! أما كـان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟ » ، وقـولها « أنا ذاهبة إلى السماء حتى أُلقِي بالنـار فى الجنة وأصُبّ الماء فى الجحيم ، فلا تبقى الواحدة ولا الأخرى ، ويظهر المقصود ، فينظر العبد إلى الله دون رجاء ولا خوف ، ويعبدونه على هذا النحو ، وذلك أنه لو لم يكن ثمة رجاء فى الجنة ، وخوف من الجحيم ، أفما كانوا يعبدون الحق ويطيعونه ؟ » ، وقولها « عُرِضتْ علىّ الجنة فملتُ بقلبى إليها ، فأحسب أن مولاى غار علىّ فعـاتبنى ، فله العتبى ! » ، وقولهـــا « لا أريد الكعبـــة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها ؟ » .

ولعله بسبب هـذه الشطحات عندهـا وعند غيرها ممن قـالوا بالخلـة ، انتقد **الملطى** الروحانية فى كتابه « **التنبيه والردّ على أهل الأهواء والبدع** » ـ وقد أدرج ضمنهم رابعة العدويـة ، وقال فيهم : إنهم زعمـوا أن حب الله غلب على قلـوبهم وأهوائهم وإرادتهم حتى كان حبـه أغلب الأشياء عليهم ، فإذا كـان عندهم وكانـوا عنده بهذه المنـزلة ، وقعت عليهم الخلة من الله ، فجعل لهم السرقة والزنا وشرب الخمـر والفواحش كلها على وجه الخلة التى بينهم وبين الله ، لا على وجه الحلال ، ولكن على وجه الخلـة كما يحل للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه » . وقد جعل الملطى منهم رياحاً وكليباً .

وأيضاً فإن **ابن عربى** عاب على رابعة مقالتها لمّا سمعت قارئاً يقرأ « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون » ، قالت « مساكين ! أهل الجنة فى شغل هم وأزواجهم ! » ، فقال ابن عربى · إنها ما عرفت ، وإنها لمسكينة ، فإنما شُغْل أهل الجنـة إنما هو بالله » ، وقال : وهذا من مكر الله الخفى بالعارفين فى تجريح الغير ببادى الرأى والتعريض فى حق نفوسهم وهم منزهون عن ذلك » . ومع ذلك فإن **ابن عربى** فى مواضع أخرى قد مدح رابعة وقال : إنها فى رتبة **الشيخ عبد القادر الجيلانى** ، فقال : السائرون إلى الله بعـزائم الأمور المشروعة على قسمين · طائفـة ربطت همتها على أن الرسول إنما جـاء منبهاً ومعلماً بالطـريق الموصلة إلى جنـاب الحق ، فإذا أعطى العلم بـذلك زال من الطـريق وخلّى بينهم وبين اللـه ، فهـؤلاء إذا

سارعوا ســابقوا إلى الخيرات ولم يروا أمامهم قد م أحد من المخلـوقين ، لأنهم قد أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق ؛ والطائفة الأخـرى جعلوا من نفوسهم أنهم لا سبيل إليه تعالى إلا والـرسـول ﷺ هـو الحاجب ، فلا يشهـدون أمـراً إلا وأقدام الـرسول ﷺ بين أيـديهم . والحالة الأولى هى حالة عبد القاهر وأبى السعود بن شبل ورابعة ومن جرى مجراهم .

وأيضًا فإن **ابن تيمية** فى **مجموعة الرسائل والمسائل** قد دافع عن رابعة فى قولها عن البيت أنه الصنم المعبـود فى الأرض ، وكذّب أن تكـون رابعة قد قـالت بذلك ، فـالمسلمون لا يعبدون البيت وإنما رب البيت ، بالطواف به والصلاة إليه . وكذلك كذّب أن تكون قـد قالت « والله ما ولجه الله ولا خلا منه » ولا فـرق بين ذلك البيت وغيره فى هذا المعنى ، فلأى مزية يُطاف به ويُصَلَّى إليـه ويُـحج دون غيره من البيوت ! » .وذكر أن قول من قـال ذلك ــ وهو ليس رابعة ــ « ما ولج الله البيت » كلام صحيح ، وأما قوله « ما خلا منه » فإنْ أراد أن ذاته حالّة فيه أو ما يشبه هذا المعنى فهو بـاطل ، وهو مناقض لقوله ما ولج فيه ، وإن أراد به أن الاتحاد ملازم له لم يتجدد له ولوج ، ولم يزل غير حال فيه ، فهذا مع أنه كُفر وباطل ، فإنه يوجب ألا يكون للبيت مزية على غيره من البيوت ، إذ الموجودات كلها عندهم كذلك .

★★★

ويذهب **ابن تيمية** إلى ما تذهب إليه رابعة فى **المحبة** فيقول : إن جميع المشايخ وأئمة التصوف مجمعـون على أن الله محبوب لـذاته محبة حقيقيـة ، بل هى أكمل محبة ، غير أن صاحب المحبـة لا ينبغى أن ينساق فى محبته للـه إلى حد يفقـد فيه الخشية من اللـه ، فإنه ينبغى أن يكـون على الدوام على مخافـة منه ، فيرجـوه القبـول فيما يُلزم بـه نفســـه من الطاعـات ومقام المحبة إذن مقيد بـالخوف والرجاء دائماً ، وقد كـان ذلك دأب رابعة ، فلما سألها أحدهم أن تدعو له قالت « من أنا يرحمك الله ! أطِعْ ربك وادعه فإنه يجيب المضطر » . وقالت لسفيـان الثورى . إنما أنت أيام معدودة ، فإذا ذهب يـومٌ ذهب بعضُك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل ، فاعملْ ! » . وخشيتهـا من الله والآخرة هى التى قيل فيها أنها عاشت أربعين سنة لا ترفع رأسها حياءً من اللـه ، وأنها ما كانت تسمع أذاناً قط إلاّ وتذكر يوم القيامة ، ولا كانت تذوق الحر إلاّ وتـذكر يوم الحشر ، وقد جعلت إرادتها من إرادة الله

وتقـول . لست إلا عبدة وليس لى أن أتصرف وفق أهـواء قلبى ، لأنى إذا أردت ولم يرد هـو لكان هذا منى جحودًا ! » .وابن تيمية يقول : إنه ليس أغلظ من الدعوى ، ولا طريق أقرب إلى الله من الافتقـار ، وأن أصل كل خير فى الدنيـا والآخرة هو الخوف من اللـه ، ومن أجل ذلك تقول رابعة إنها **حارسة رباط** ، ولكن بمعنى آخـر ، ذلك أنها لا تـدع شيئاً يخرج ممـا فى داخلها ، ولا تدع شيئـاً يدخل مما هو خـارج ، ولم تعرف غير الله ، وحبها لله تعـالى قد ملأ قلبها فلم يعد فيه مكان لمحبة غيره أو كراهيته . غير أن ابن تيمية كان لا يرى إطلاقاً تسمية **العشق** على الله تعالى ، وعنـده أن أدنى ما فيه بدعة وضـلال ، وأنـه فيما نُصّ فيه من ذكر المحبة الكفايـة ، والخلة والمحبة صفتان لله تعـالى موصوفًا بهما ، ولا تـدخل أوصافه تحت التكييف والتشبيـه . ويورد ابـن تيمية كـلام **القشيرى** من مشـايخ الصوفيـة أن العشق مجاوزة للحد فى المحبـة ، والحق سبحانه لا يـوصف بالعشـق لأنه لا يـوصف بأنه يجاوز الحد ، فلا يقال إن عبداً جاوز الحد فى محبة الله ، فلا يوصف الحق بأنه يُعْشَق .

ولا العبـد فى صفته بأنـه يَعْشِقَ ، والمشكلـة فى رابعـة أنها كانت تـرتقى بكل المفـاهيم والمعـاملات الصـوفية من المحسـوسـات إلى المعقولات نتيجـة تهذيبها لنفسهـا وارتقائهـا ورياضـاتها . والعاشق بمفهوم رابعة إذ وصل إلى درجة العشق فى حبه ارتقى منها إلى المكانة الأسمى ، وهى فى حالة العشق الإلهى أن تتوق نفســه إلى الله ، وتحن إليه كما يحن العاشق إلى معشوقـه، وهذا هو الحب الحق والعشق الخالـد الذى تسمـو إليه النفس الناطقـة عند بلوغها أقصى ما تصبـو إليه من الكمال . وفى الخبر أن الحسن البصرى لمّا سأل رابعة · هل تتزوجين ؟ فأجابته : الزواجُ ضرورى لمن له الخيار ، أما أنا فلا خيار لى فى نفسى . إنى لربى وفى ظل أوامره ، ولا قيمة لشخصـى ! » ـ فقال الحسن · فكيف بلغت هذه الـدرجة ؟ قالت . بفنائى بـالكلية ! ولعله لذلك وصفهـا فريد الـدين العطار الشاعر الصـوفى فقال إنها . ذات الخدر الخاص ، المستورة بستر الإخـلاص ، المتقدة بنـار العشق والاشتياق ، المتحـرقة إلى القُرب والاحتراق ، الفانية فى الوصال ، كأنها مريم ثـانية ، عذراء بتول ، صافية صفية ، إنها رابعة العدوية !

رحم الله رابعة والعطار !!

الفصل العاشر

معراج رابعة الروحى من أحوالها ومقاماتها

★★★

السعادة القصوى والدائمة هى مطلب ذوى العقول والنفوس الكاملة ، وليس إدراكها بالحواس الظاهرة ، لأن كل لذات المحسوسات بائنة ومنقطعة . والسعادة القصوى والدائمة لا يتحصلها إلا أقل القليل فى الملأ الأعلى ، بمشاهدة الأنوار القدسية والتلذذ بمطالعة الجمال الأَسْنَى والذين يتحصلونها تحوطهم منذ البداية العناية الربانية ، وتيسر لهم الرياضة التى بها تُدرك المعارف الإلهية ، فتنطبع بالفضائل من محبة الحق ومعرفته ، والشوق إلى جمال حضرته ، فيصير لها ذلك خُلقاً وعادة . والله تعالى أعطى كل جسم نفساً تليق باستعداده الذى خلقه فيه من الكمال والنقص والقوة والضعف . ولقد قيل إن النفوس ثلاثة : مطمئنة وأمّارة ولوّامة فالمطمئنة خُلِقت متيقظة من ذاتها ، مقبلة على بارئها بالفطرة ، ومُعرِضة عمن سواه ، وهذه هى نفس خواص الأصفياء ، أشرق عليها نور الحق فجذبها إليه فعكفت عليه ، والأمّارة يغلب عليها حب المحسوسات والشهوات الجسدية ، فأنكرت اللذات الروحية والمدارك العقلية ، فهى محجوبة عن الله ومطروده من جنابه ، واللوّامة أقبلت على المحسوسات فلم تُسْتَغْرق فيها ، وكانت لها من اليقظة والفطنة ما تدرك به لذة المعانى العقلية ، وتطلب الفضائل ، فكان لها نظرٌ إلى الأعلى بقدر يقظتها ، ونظرٌ إلى الأسفل بقدر ميلها إلى الشهوات الطبيعية . وهى وإن كانت محجوبة عن كثير من الحقائق الربانية فإنها يمكن أن تتزكى بالرياضة وتلحق بالسعداء .

ورابعة كانت من أول مشهد التقينا بها فيه وهى طفلة ، يظهر أن لها النَفْس الفاضلة التى تشير إلى أنها إنسانة علوية ، قد خلقت فيها الأهلية للاتصال بالملأ الأعلى ، وتقول عن نفسها « أتيت من العالم الآخر وذاهبة إليه ، وأعمل فى الدنيا عمل الآخرة » ، وتقول : « والطريق إلى الله لا بد فيه من القلب المتيقظ ، فإذا استيقظتَ رأيتَ الطريق بعيون القلب وكان فى وسعك بلوغ المقام » .

وأحوال رابعة ومقاماتها فى الخوف ، والحزن ، والرجاء ، والقرب ، والهيبة ، والأنس ، والشوق ، والمحبة ، والعشق ، وفى التوبة والفقر والصبر ، وإسقاط التدبير والتوكل والرضا ، يظهر فيها جميعا أنها ربّانية تحفظ الله فى سرائرها ، وتراقب الحق بالحق ، وتسأل الله الرعاية ، فإذا سألوها أن تدعو لهم قالت : « أطعْ ربك واعبده ، وادعوه فإنه يجيب المضطر » وتقول « أشتعلْ كالشمعة وأضىْء للناس ، وابدأ بأن تكون متجرداً ثم أعمل ، فإن فعلت هذين صرت نحيلاً كالشَعْرة إن كنت تريد ألا يذهب جهدك سدى ». واعتقادها أنها كما تكون فى الدنيا ستكون فى الآخرة ، وتقول « ومن يهمل فى الدنيا أن يسبّح بحمد الله لحظة وينوح ويبكى على حاله ، فإنه فى الآخرة سيبكى لدرجة أن يثير الشفقة على نفسه » .

ورابعة لذلك منذ طفولتها تخشى الله ، وتخاف الموت والنار ، ويكبر معها خوفها وخشيتها ويستحيلان إلى هيبة من الله ، ثم إلى حياء . وتقترب أكثر فتترك الدنيا فى اقترابها ، فطريق الدنيا وطريق الله متعاكسان . ورابعة فى مجاهداتها محزونة ومكروبة ومهمومة ، وافتتانها بالله ورجاؤها فيه ومحبتها له تيسر لها الطريق ، ومقامها فى المحبة راسخ حتى لَتُذْكَر بالمحبة . وقيل فيها أنها من الواصلين والعارفين ، والوصول معرفة ولا محبة إلا عن معرفة ، ومن كان بالله أعرف كان له أخوف ، والمعرفة توجب الحياء والتعظيم لله . والمعرفة للعارف مرآة إذا نظر فيها تجلّى له الله ، ورابعة تقول عن نفسها : « لم أعرف غير الله ولم أنسه مرة » وتقول : « لا حديث خير من الحديث عن المعرفة » . وفى المعرفة افتقار إلى الله واستغناء به، ومن عرفه سبحانه انقطع فلم تعد له علاقة ، وذهبت عنه رغبة الأشياء . ومن عرفه سبحانه كان أكثر الناس تحيراً فيه ، ويقول ذو النون « أعرف الناس بالله أشدهم تحيراً فيه ودهشة » ، وتقول رابعة تناجى ربها : « ماذا تريد من هذه الحائرة المسكينة ؟ ! وتقول « ليس للمحب وحبيبه بَيْن ، وإنما هو تعلّقٌ عن شوق ، ووصفٌ عن ذوق ، فمن ذاق عرف ، ومن وصف اتصف . وكيف تصف شيئًا أنت فى حضرته غائب ، وبوجوده دائب ، وبشهوده ذاهب ، وبصحوك منه سكران ، وبفراغك له ملآن ، وبسرورك له ولهان ، فالهيبة تخرس اللسان عن الإخبار ، والحيرة توقف الجبان عن الإظهار ، والغيرة تحجب الأبصار عن الأغيار ، والدهشة تعقل العقول عن الإقرار ، فما ثم إلاّ دهشة دائمة ، وحيرة لازمة ، وقلوب هائمة ، وأسرار كاتمة ، وأجساد من السقم غير سالمة ، والمحبة

بدولتها الصارمة في القلوب حاكمة » . وذلك هو حال رابعة ، إذن . فما أقل ما قالت ، وقليلها يغنى عن الكثير ، وهى فى المحبة والمعرفة الموجزة والرائعة ، والشبيه يهفو إلى الشبيه ، ورابعة تقول « الموافقة شرط فى الصحبة » ، وتحكى عن سلوكها فى الطريق فتقول : رأيته يقول لصاحبه فى الغار « لا تحزن إن الله معنا ، ما ظنك باثنين إن الله ثالثهما ؟ ـ فتقدمت إلى خلوة الغار بأقدام المبايعة » ، ومن يومها صارت لله ، وبالله ، وفى الله ، ومن الله ، أو كما تقول :

فإذا نظرتُ فلا أرى إلاّ له وإذا حضرتُ فلا أُرَى إلا معه

فإذا ذكّروها بالدنيا وأن لا تنسى نصيبها فيها قالت . « لاتُذكّرونى بشىء ليس بشىء » .

وتقول فى علمها إنه « **العلم الروحى** » ، وتقول « ثمرته أن تصرف وجهها عن المخلوق كيما توجهه إلى الله الخالق وحده » ، وتقول « مهمتى الآن أن أتأمل القدرة ، وأنا منذ عرفت الله صرفت وجهى عن كل مخلوق » ، وتصف العارف المحب لله بأنه « الأزوم الخفيف الزاد مثل النملة ، لا يأكل فى اليوم إلا تمرة » .وطريقتها كما تصفها هى « الطريق السوى » منذ أن اكتشفته ، وما فعلته فيه أو قالته « هو ما كان عليها أن تفعله أو تقوله » ، وتقول « قيل لك طهّر روحك ، لكنك دائب على تعمير جسدك ، ألا فلتكن لباطنك عليك حُرْمة ! » وتضرب المثل برجل « أشعل الروح فى نفسه فقال لذلك : إذا أكلْتَ لقمة فاجلس واضرب جسدك ! » .

ورابعة فى الزهد مضرب المثل ،ومقامها فيه هو المقام الأرفع ، « فكانت لا تأكل بالأسبوع ، وتنسى الجوع ، وكانت خلاله لا تجلس ولا يفتر ذكرها لله ، تصوم وتصلى ، فإذا خفعت من الجوع وانهارت ساقها وسرى « التكسّر فى أعضائها فلا تتناول سوى الماء » . ويُحكى أن قطًا دخل فقلب كوز الماء وبقى كبدها ظمآن مشتعلاً من تأوه القلب كما يقول **العطار** ، ويجيئها الهاتف يقول : « لاتحزنى . إن شئتِ أن تكونى مولعة بالله فعليكْ أن تتخذى من ترك الدنيا صناعتك الدائمة » . ولقد فعلت ، فأحبت وأخلصت لماّ عرفت ، ومن لم يعرف لم يحب . والمحبة ثمرة المعرفة ، والمعرفة علّة المحبة وسببها ، وهى متقدمة على المحبة بالسبب ، والمحبة متقدمة عليها بالشرف ، وحينئذ يكون المحب هو نفس العارف ، والعارف هو عين المحب ، فتأكيد المعرفة يثمر المحبة ، وتأكيد المحبة يدفع إلى المزيد من المعرفة ، فتتجلى للمحب أوصاف المحبوب . وما دامت المحبة يدوم التجلى ، وما دام التجلى

تدوم المحبة ، وتستمر هذه الواردات على قلب المحب فيعرف فيحب ، ويحب فيعرف ، وتتحد فيه من هذا الشهود والتجلى محبة العارف ومعرفة المحب ، ويصار كل واحد مُوّلدًا للآخر . وهذا هو حال رابعة ، حال المحب العارف ، والعارف المحب ، وكانت فيه « رائعة » كما وصفها متصوفة زمانها .

والمعرفة والمحبة أصل كل المقامات والأحوال ، وجميعها مندرجة تحتها ، فهى إما وسيلة إليها أو ثمرة من ثمراتها ، كالخوف والرجاء ، والإرادة والشوق ، والزهد والصبر ، ولرضا والتوكل . وكانت رابعة « يغلب عليها مرة الحب ، ومرة يغلب عليها الأُنْس ، ومرة يغلب عليها الخوف » ، وتتقلب بين الأحوال وترتقى فى المقامات . وفى المحبة تكمن سيكولوجيتها ، وأنوثتها مفتاح محبتها ، والمحب لا يحب إلا بعد العلم بكمال ذات المحبوب ، ثم يتأكد هذا العلم عنده ويتوالى فيكون معرفة ، فتنبعث عن ذلك الإرادة ، ثم الشوق إلى جمال وكمال الذات الإلهية ، ثم يلزم عن المحب الصبر على شدة الطلب ، وينبعث له أثناء ذلك خوف الحجاب ، ورجاء القرب والوصال ، ثم يتحصل عن المحبة الرضا بجميع مراد المحبوب ، والزهد فيما سواه ، واعتقاد وحدانيته ، وانفراده بصفات الكمال ، وإسناد كل تدبير إليه ، بالتفويض له والتوكل عليه .

وأول مقامات المحبة عند رابعة هو **الألفة** التى توجبها المعرفة ، المعبر عنها بالإيمان المنتج للمحبة ، وكانت رابعة فى إيمانها فى القمة ، فلقد عرفت الله وآمنت به منذ كانت فى الخامسة من عمرها وصحبته ثمانين سنة ، والألفة تتخلل منها شمائل المحبوب ، فتتكيف بها نفس المحب ، فتتحرك أعضاؤه عن إرادة المحبوب . تقول رابعة .

وتخللتَ مسلك الروح منى ... ولذا سُمّى الخليل خليلا
فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثى ... وإذا ما سكتُ كنتَ الغليلا

وتقول :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدّثى ... وأبحتُ جسمى مَن أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانسٌ ... وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى

ولم يكن التخلل إلا للصفاء والخلوص عن كل عارض زائد ، فيكون انطباع المحب بشمائل المحبوب ، والأُنْس معناه السرور بشهوده ، والرضا بقربه ، والأُنْس يقتضى الطمأنينة ، وفى الرضا يكون إسقاط الجزع ، ومن يصبر فى الله ولله لا يجزع ، ولا يقنط ، ولا يشكو . وقيل معنى الرضا غيبة المحب عن الإحساس بالألم ، والصبر فى تحمل المشقة . ولقد قيل فى رابعة إنها كانت تصلى فسجدت على البوارى ، فدخلت قطعة قصب فى عينها فلم تشعر بها إلى أن انصرفت من الصلاة ، وقيل أيضاً إن رأسها ضرب ركن الجدار فأدماه فلم تلتفت لذلك ، فقيل لها أما تحسين الألم ، فقالت : « شغلى بموافقة مراده فيما جرى شَغَلَنى عن الإحساس بما ترونه » . وقالوا إن مالك بن دينار والحسن البصرى وشقيقاً البلخى اجتمعوا عندها فتحدثوا فى الإخلاص ، فقال **الحسن البصرى** : ليس بصادق فى دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه . فقالت رابعة : هذا غرور . وقال **البلخى** : ليس بصادق فى دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه . فقالت رابعة : هناك ما هو خير من هذا . فقال **ابن دينار** : ليس بصادق فى دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه . فصاحت رابعة : هناك ما هو أفضل من هذا ـ ليس بصادق فى دعواه من لم ينس الضرب فى مشاهدة مولاه ! مثل نسوة مصر اللائى نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف » . ولقد سئل مرة **السرى السقطى** : هل يجد المحب طعم الألم ؟ فقال لا ، وقيل : وإن ضُرِب بالسيف ؟ قال : وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة على ضربة ! ـ وكذلك حُكى أن **بشر بن الحارث** قال : رأيت شخصاً ببغداد قد ضُرب ألف سوط ولم يتكلم ، فلما حمل إلى السجن تبعتُه فسألته عن سكوته فقال : معشوقى الذى كنت أُضْرب من أجله كان أمامى ينظر إلىّ . قلت له : فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر ؟ فزعق الرجل زعقة وخرّ ميتاً ! ـ وسُمعت **حيونة** رفيقة رابعة على الطريق تقول : من أحبَّ الله أَنِس ، ومنْ أنس طَرِبَ ، ومن طرب اشتاق ، ومن اشتاق وَلِه ، ومن وله خَرُم ، ومن خرم وصل ، ومن وصل اتصل ، ومن اتصل عرف ، ومن عرف قَرُب ، ومن قرب لم يرقد وتسورت عليه بوارق الأحزان ! ـ وتقول رابعة .

من ذاق حُبَّك لا يُرى متبسماً   من طول حزن فى الحشا إشعال

والرضا من أجّل مقامات رابعة ، ومن لا يصل فى معراجه إلى الرضا فما ذاق من لذة المحبة ، ومن يبلغ إليه ويرتقى عنه إلى استعذاب الألم فهو المحقق . وكانت رابعة المحققة ، فكم اشتاقت وتعذبت . وتقول : كم طالت بى الليالى والأيام بالشوق إلى لقاء الله ! » .

وتخشى أن يداخلها الشعور بالفرح فتقول : لا يكون حزنى أن أكون محزونة ، بل حزنى أنى ما كنت محزونة » . وترضى أن تكون محزونة طالما أن حزنها له ، وتكذّب حزن سفيان الثورى لأنه يطلب الدنيا ومسرور بها ، وتستغفر ربها أن لا تكون مخلصة فى استغفارها ، وتتوب عن توبتها مخافة عدم الإخلاص . وخوفها من الله يقبضها ، ورجاؤها فيه يبسطها ، وتخاف أن يرد عليها عملها ، وتبكى إذا ذُكّرت بالنار ، وتنتفض وتصيبها رعدة إذا ذكّرت بالموت ، وتقول : يارب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟ ! وتقول أيضاً : إلهى ! أتحرق بالنار قلباً يحبك ؟ ! ـ ومن أجل ذلك تلتزم المراقبة ، وتديم الإطراق ، وتستجمع الهم ، وتفكر بشدة فى الله ، وتعرض عمن سواه ، ولا تلتفت إلى الخلق ، ولا تصغى لأحاديثهم ، ولا تحفل بهم ، ولا تعتذر إليهم . وقد رأينا كيف كذّبت الثورى ، وأنّبت ابن زيد ، وعنّفت الهاشمى . وتستغنى بالله عن الناس وتناجيه ، وأعذب ما فى الخلوة**مناجاة الله** ، وأعذب أقوال رابعة فى المناجاة ، فهو يتمثل لها وتسمع عنه ، وتصغى بقلبها لما يقول ، ولقد سمعته فى أسْرها يقول : « لا تحزنى ! ففى يوم الحساب يتطلع المقرّبون فى السماء إليك ويحسدونك على ما ستكونين فيه » ، وسمعته عند مناجاتها له تقول أتحرق قلباً يحبك ! فهتف بها الهاتف . ما كنا نفعل هكذا فلا تظنى بنا ظن السوء » .
وكانت فى طريقها إلى الكعبة فقالت تنادى ربها وقد أتعبها السير فى الصحراء : إلهى ! إن قلبى مضطرب وسط هذه الدهشة ، وأنا لبنة (يعنى ضعيفة) ، والكعبة حجر ، وما أريده هو أن أشاهد وجهك ! » ، يعنى أنها لا تريد الكعبة للكعبة وإنما للمشاهدة الإلهية ، فكأنها لتتمنى أن تتم المشاهدة فى مكانها بدلاً من الكعبة ، وقد ناداها الصوت من عند الله يقول : يا رابعة ! أتعملين وحدك ما يقتضى دم الدنيا كلها ؟ إن موسى لـما أراد أن يشاهد وجهنا لم نُلق إلا ذرة من نورنا على الجبل فخر صعقاً » . ثم سمعت الصوت مرة أخرى حين بلغت الكعبة : ماذا تريدين يا رابعة ؟ إذا كنت تريديننى فسأتجلى لك بكل جلالى فتذوبين تواً كما يذوب الماء » . وأجابت : إلهى ! ليس لى من الطاقة ما يُبلغنى هذه المرتبة ، ولست أطلب إلا ذرة من الفقر الروحى » . فقال الصوت . أى رابعة ! إن الفقر عاطفة خوف من غضبنا جعلناها فى طريق الأولياء ، ولكن إذا لم يبق عليهم ليبلغوا إلينا إلا قيد شعرة فقد يحدث أن يَفسَد أمرهم فى الحال ويُنّحوا عن الغاية ، أما أنت فلا تزالين فى داخل السبعين حجاباً (أو مقاما) ، فطالما لم تخرجى من تحتها وتضعى قدمك فى طريقنا فإنك لن تقدرى على الحديث عن الفقراء » . وقال الصوت : يا رابعة ! انظرى إلى الأعلى » . فلما نظرت إلى الأعلى رأت بحراً

من الدم معلقاً فى الهواء . وصاح الصوت : يا رابعة ! إن هـذا البحر من دموع الدم الساقطة من عيون أولئك الذين أحبونا وسعوا إلينا ، ومنذ المقام الأول قضى عليهم إلى حد أنه لم يبق من أشخاصهم أثـر فى هذا العالم أو فى الآخرة » . فقالت رابعـة : إلهى ! دعنى أرى مثلا على درجة السعـادة التى يصل إليها هـؤلاء العشاق .... » . فما أتمت العبارة إلا وأتـاها الحيض ولم تعد طاهرة ، فناداها الصوت : إن المرتبـة الأولى التى يبلغها العشاق يمثلها تماماً إنسان (يعنى رابعة) تقلّب على أضلاعه سبع سنوات كيما يزور جداراً من اللبن (يعنى الكعبة) ، فلما اقترب من هذا الجدار أغلق الطريق على نفسه نتيجـة عائق نشأ عن شخصه » . (يعنى أنها حاضت ولم تعد طاهرة وليس لها أن تكمل الحج حتى تطهر) . فلما يئست رابعة قالت · إلهى ! لا تدعنى كى أبقى فى بيتى ، ولا تريد أن تقبلنى فى بيتك ! فإما أن تدعنى أقيم هادئة فى بيتى بالبصرة ، أو اسمح لى أن أدخل الكعبة وهى منزلك ! ولقد فتشت عنك قبل أن أحنى رأسى أمام الكعبـة ، دعنى إذن أذهب فلست جديرة بدخـول بيتك! » . ثم عادت إلى البصرة وأقامت فى خلوتها وانقطعت للعبادة .

وهذه المنـاجيات لا يؤمن بها إلا من ذاق لـذتها وعلم اطّلاع الله على سرّ قلبـه وشهوده لباطن أمـره ، والمحب لله يتمثل له سبحـانه فى كل شىء يشـاهده ويسمعه ويـوحى إليه ، وكأنه الرقيب يرعى خواطره وناظره ولسانه فإذا حدّث فعنه ، وإذا استمع فمنه ، وإن لاحظ فإياه ، وليس من نصيب لغير الله ظاهراً وباطناً .

★★★

وكانت رابعـة تحترز من هذه المنـاجيات وتقـول لنفسها : يجب على المرءألاّ يغتر بحيل الشيطان ! » . وتكاد تكون هذه النجوى النفسية هى خاصية رابعة ، حتى أنها عندما تحكى حكاية اللص معها تسمع المنادى يهتف بـاللص : « يالص ! لا جدوى من محاولاتك ، فمنذ عهد طويل ورابعة قد وكلت إلينا السهـر عليها ، ولا نسمح بدخول حتى إبليس فى خلوتها ! وأنت أيها اللص تريد أن تسرق خمارها ؟ ألا فلتعلم أيها الشقى أنه حينما يكون أحد أحبائنا غارقاً فى النوم فهناك صديق يسهر على أمره ! » .

والمناجاة ربما تكون من الله تعالى على الحقيقة فهى من كرامات الأولياء ، وربما تكون رؤى صادقـة ، وهى جزء من النبـوة كما يقول الحديث ، وربما تكون مـن أحاديث النفس حينما تستشرف المعالى ، وتـرتقى فى الإيمان ، وتستبطن ذاتها فتكشف دخائلهـا وتكون لها من ذاتها العليـا رفيقاً يهديها وتستضىء بنـوره ، فتسمعـه من داخلها وممـا حولها وقـد

تخارج منها ، وهى كرامة أخرى كالكـرامات . وقد حكت رابعة عن نفسـها أنها صامت سبع ليال وسبعـة أيام متـوالية دون أن تتناول شيئـاً ولا تنام الليل ، منقطعـة إلى الصلاة ، وفى الليلة الثامنة قالت لها نفسها الأمّارة بـالسوء وهى تنوح : يا رابعة ! إلى متى تعذبيننى هكذا دون هـوادة ؟ وخـلال هذا الحديث النفسـى سمعت طرقـاً على البـاب ، وفتحت فـرأت من يعطيها طعـاماً ، أخـذته ونحّته لتشعل المصبـاح ، فجاء قط أكلـه ، ورأت ما حـدث للطعام فسعت إلى الماء فأنطفأ المصباح ، وانكسرت جـرّة الماء ، فزفـرت وصرخت · إلهى ! ماذا أردت بهذه المسكينة ! » . فسمعت صوتاً يقول : يا رابعة ! لو شئت أعطيناك الدنيا بأسرها ، ولكن يجب من أجل هذا أن ننزع الحب الذى فى قلبك لنا ، لأن حبنا وحب الدنيا لا يجتمعان معاً » . فقالت رابعة معلّقة . لـما سمعت أنى أُخاطَب على هذا النحو نزعتُ من قلبى كل تعلق بأمور الدنيا ، وصرفت نظرى عن كل الدنيويات » . أى أنها كانت تصدق رُؤاها وتقول : وهأنذا قد أمضيت ثلاثين عامـاً لم أُصلّ فيها دون أن أقول هذه الصلاة لعلها تكـون آخر صلواتى ! ولم أمّل من تكرار هذا القول . إلهى أغرقتنى فى حبك حتى لا يشغلنى شىء عنك ! » .

وتصديق رابعة لرؤاها نابع من إخـلاصها ، ولم يكن ذلك من هذيان الجوع كما يقول **ابن الجوزى** ، وهو يذكر لرابعة أنها كانت تحذر الأشيـاء التى ظاهرها الكرامة وتخاف أن تكون من تلبيس أبليس ، ويحكى عنها أنها لماً سُئلت : لما لا تأذنين للناس يدخلون عليك ؟ ـ قالت : وما أرجو من الناس ؟ إن أتونى حكوا عنى ما لم أفعل ! » . وقالت أيضاً : يبلغنى أنهم يقولـون إنى أجد الـدراهم تحت مُصلاّى ، ويُطَبخ لى القدر بـدون نار ، ولـو رأيتُ مثل هذا لفزعت منه » . وقيل لها : إن الناس يكثرون فيك القول ، ويقولون إن رابعة تصيب فى منزلها الطعام والشراب ،فهل تجدين شيئـاً فيه ؟ قالت : لـو وجدت فى منزلى شيئاً مـا مسسته ولا وضعت يدى عليـه » . وحكت رابعة عن نفسها أنها أصبحت صـائمة فى يوم بـارد ، قالت : فنازعتنى نفسى إلى شىء من الطعام الساخن أفطر عليه ، وكان عندى شحم ،فقلت : لو كان عندى بصل أو كـراث عالجته ! فإذا عصفـور قد جاء فسقط على المثقب فى منقـاره بصلة ، فلمارأيتـه أضربت عما أردتُ ، وخفت أن يكون من الشيطـان » . وذلك إخلاص رابعـة · لم يجعلها تصدق ما ترى فى مواقف ، وصدّقت ما تسمع فى مواقف أخرى ، وعدم التصديق فى الأولى أنها يمكن أن تكون خداع النفس أو ألاعيب الشيطـان ، لأنها منافية للعقل أو للشرع ، وتصديقها فى الثانية أنها عكس ذلك ، وتؤكد خصـالها الطيبة ونواياها الحسنة وطموحاتها الدينية وأشواقها الإلهية .

★★★

الفصل الحادى عشر

النقد الموجه لفكر رابعة ومسلكها

★★★

توجه النقد لرابعة باعتبارها **صوفية**، ثم **لأغلاط** نُسبت إليها ، إما لأنها ارتكبتها فعلاً وإما لأن مؤرخيها قد وصفوها بصفات ورسموا لها صورة استوجبت من العلماء مساءلتها أو مساءلتهم . وكما يقول **ابن الجوزى** « وما علينا من القائل والفاعل ، وإنما نؤدى بذلك أمانة العلم ، وما يزال العلماء يبيّن كل واحد منهم غَلَط صاحبه ، قصداً لبيان الحق لا لإظهار عيب الغلط ، ولا اعتبار بقول جاهل قد يقول . كيف يُرَدُّ على فلان الزاهد المتُبرّك به ، غير أن الإنقياد إنما يكون إلى ما جاءت به الشريعة لا إلى الأشخاص ، وقد يكون الولى من أهل الجنة ولكن له غلطات فلا تمنع منزلته بيان الله .

★★★

وقد **غالى** مؤرخو رابعة فيما رووه عنها من حكايات مع كبار صوفية عصرها ، فأظهروهم بأقل من حقيقة ما لهم من منزلة عند المسلمين بعامة والصوفية بخاصة . ومن هؤلاء من لم تُعرف له هنة ، وليس فى حياته شائبة ، ويُذكر دائماً بالخير ، ولم تكن له شطحات ،كالحسن البصرى ، وإبراهيم بن أدهم ، وعبد الواحد بن زيد ، ومالك بن دينار ، ورياح القيسى ، ومما يروى فى ذلك قول رابعة لعبد الواحد بن زيد : « **يا شهوانى ! أطلب شهوانية مثلك !** » ، وقولها لسفيان الثورى « **لا تكذب ! أنت متلطخ بالدنيا ، ولو كنت حزيناً ما هَنَأك عيش ! إنما أنت أيام معدودة ، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل !** » . وقولها هذا الأخير أخذته من الحسن البصرى وهو ليس لها أصلاً ، فقد قيل عن صالح المرى أن الحسن قال : **يا ابن آدم ! إنما أنت أياماً ، كلما ذهب يوم ذهب بعضك** » . ولقد شابهت الحسن فى خطابها إلى محمد بن سليمان الهاشمى أمير البصرة ، فقد كتب الحسن البصرى إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز : « **أن رأس ما هو مُصْلِحُك ومُصْلح به على يدك : الزهد فى الدنيا** ... » وكتبت رابعة إلى

الهاشمى « أن الزهد فى الدنيا راحة البدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن » . وفى القصة التى يروونها عنها مع اللص ، قالوا أنه لما لـذّت له الصلاة ما برح يصلى إلى آخر الليل ، فلما كان وقت السحر دخلت عليه رابعة فوجدته ساجداً يقول فى سجوده معاتباً نفسه :

إذا مـا قـال لى ربى	أمـا استحييت تعصينى
وتخفى الـذنب مـنْ خَلْقى	وبالعصيان تـأتينى
فما قـولى لـه لمّا	يعـاتبنى ويُقصينى ؟ !

وهذه الأبيات نفسها يذكرها **ابن الجوزى** منسوبة إلى **أحمد بن حنبل** ، فقد روى فى معرض الغناء عند الصوفية أن لهم قصائد منها هذه القصيدة ، وكان إنشادها يتسبب فى بكائهم .

★★★

ويبدو أن مـا كان يؤخـذ على رابعة هو أنها كـانت تقول الشعر فى المحبـة ، ولها سابق خبرة فى الإنشاد ، فحتى لو كان غناؤهـا به للتأثير بالتحبيب فى الدين وليس بالترهيب ، فإن القول بذلك كمن يقول إنى أنظر إلى هـذه المرأة المستحسنة لأتفكر فى صنعة الله . ثم إن هذا الشعر الـذى يحكى عن العشق ويقع الهيمان به يقل فيه وجود شىء يشـار به إلى الخالق ، وقـد جلَ الخالق تبـارك وتعـالى أن يقال فى حقـه أنـه يَعْشق أو يُعْشق ، وإنما نصيبنـا من معرفته الهيبة والتعظيم فقط !

★★★

ويبدو أن رابعـة لما أعلنت توبتهـا ، كما يقول النقـاد، إنما فعلت عزوفًـا عن الغناء أو الضرب على الدف أو الطبل أو العزف على النـاى كما روى ، إذ اعتبرت ذلك من البدع التى لا تجوز فهجرتها ، ولو كانت من **المغبّرة** وهم الذين يغبرون بذكر الله بالدعاء والتضرع ، فإن التغبير أيضا مكروه . ويروى الزجّاج فى تفسير تسميتهم **بالمغَبرة** ، أنه لتزهيدهم الناس فى الفانى فى الدنيا وترغيبهم فى الآخرة لكن الرسـول كان يقول : عليكم بالسواد الأعظم ، فإنه من شذّ فى النار ، وقال : من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية ، ولعله لهذا تابت رابعة ! .

وقيل إن **الحسن البصرى** كان يكره الدفوف ، ويقول إنها ليست من سُنّة المرسلين ، وكان **أحمد بن حنبل** يكره الطبل ، ويذكر **أبو نعيم** أن المرخص به هو الترنّم ، وكان الصوفية الكبار يترنمون ، وقد روى عن **السلمى** أنه قال إن **سعد بن عبد الله الدمشقى** كانت له جارية قوّاله للفقراء ، أى للصوفية ، وكانت تقول لهم القصائد . وذكر **أبو طالب المكى** أن **مروان القاضى** كانت له جوار يُسمعن التلحين قد أعدهن للصوفية . وكانت **لعطاء** جاريتان تلحنان ، وكان إخوانه يسمعون التلحين منهما ... فلعلّ رابعة كما ذكروا عنها من المطربات والعازفات فعلاً مع كونها زاهدة ؟ أقول لعلها كانت كذلك . ويذكر **ابن الجوزى** أنه لا بأس من سماع المنشدين على أن يؤخذ ما ينشدونه على مقصوده فيُنتفع به ، ولا ينكر أن يسمع الإنسان بيتاً من الشعر أو حكمة فيأخذها إشارة فيزعجه معناها لا أن يطرب من الصوت المطرب ... ومع ذلك فإن رابعة لم يُعرف منها شعر إلا فى **المحبة** ، وتُدرج ضمن **عشاق الصوفية** ، ويقول عنهم **ابن الجوزى** إن ما يدّعيه هؤلاء من محبة الله هو وهم توهموه وتركّبت منه صورة أُنس ، فإذا غابت من العقل أقلقهم الشوق إليها ، فنالهم الوجد وحرّك الهيمان الهواجس الرديئة والعوارض التى يجب بحكم الشرع محوها من القلوب كما يجب كسر الأصنام ، ولقد رأوا من ذلك قولها :

كأسى وخمرى والنديم ثلاثة	**وأنا المشوقة فى المحبة : رابعة**
كأس المسرة والنعيم يديرها	**ساقى المدام على المدى متتابعة**
فإذا نظرت فلا أُرَى إلا له	**وإذا حضرت فلا أُرَى إلا معه**
يا عاذلى إنى أحب جماله	**تا الله ما أُذْنى لعذلِك سامعه**
كم بِتُّ من حُرقى وفرط تعلقى	**أُجرى عيوناً من عيونى الدامعة**
لا عبرتى تُرقأ ولا وصلى له	**يبقى ولا عينى القريحة هاجعه**

★★★

ومثل ذلك الشعر ما كنا نتأوله لولا أنهم ربطوا بينه وبين نثرها التى تحكى فيه صراحة

عن حبها لله وعشقها له ، كقولها عندما سألوها : **أتحبين الله ؟** أجابت . نعم أحبه حقًا ! وما عرفت سواه » . ومع ذلك ففى شعرها كثير من التثريب مثل قولها :

ولقـــد جعلتك فى الفـــؤاد محدّثى وأبحت جسمى من أراد جلـــوسى

فـــالجسـم منى للجليس مـــؤانس وحبيـب قلبى فى الفـــؤاد أنيسى

فقالوا · إباحية حلولية متزندقة ؛ ونسبوا إليها أنها القائلة ·

وارحمتـــا للعـــاشقين ! قلـــوبهم فى تيـــه ميـــدان المحبـــة هـــائمـــه

فقالوا الله تعالى يقول : ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ وليس العشق بأكثر من المحبة ، وقال **القاضى أبو يعلى** وقد ذهبت الحلولية إلى أن الله عز وجل يُعشَق ' .

★★★

وقيل غلطت رابعة إذ تلتقى بالرجال وتسمع لهم ويسمعون لها فى المحبة ، وقد روى أن **الحسن البصرى ورياحاً القيسى** كانا كثيراً ما يبيتان عندها للصلاة وللحديث فى المعرفة . وذكر **الثورى** أنه ما كان يرتاح عند أحد مثل راحته عندها ، وذلك لا يجوز ، شرعاً على أنه يروى عنها أيضًا أنها التقت **ذا النون** فى تيه إسرائيل فقـــالت « ما للرجال ومخاطبة النساء » ... أقول وكان الأحرى بها أن يكون ذلك دأبها مع الآخرين .

★★★

وغلطت رابعة بإعراضها عن **العلم** شُغلاً **بالزهد** ، فقد استبدلت الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وقد عابت على **سفيان الثورى** أنه كان يشتغل **بالحديث** واعتبرت ذلك منه ميلاً إلى الدنيا ، فلما تركت العلم وانفردت بالرياضات على مقتضى الصوفية لم يكن بها صبر عن الكلام فى الدين فتكلمت بواقعاتها فغلطت أغاليط قبيحة كما قيل ، فلما سألوها هل تحبين الرسول ﷺ قالت . إن حبى لله شغلنى عن حب غيره ، فلم يعد ثمة مكان لمحبة غيره » . وسألوها هل تكرهين الشيطان ؟ فقالت . إن حبى لله منعنى من الاشتغال بكراهية الشيطان » . وسألوها أترين من تعبدينه ؟ فأجابت لو كنت لا أراه لما عبدته » . وتلك

أغلاظ إنفردت بها كما قيل ، وساقت فيها الشرع على مقتضى علمها بالنظر إلى ما لاحظت به أعمالها ، واتفق لها من اللطف بما يشبه الكرامات .

★★★

وقد كانت تقول إنها ترى **الجان والحور** فانبسطت فى دعواها . وتطاولت على الله عز وجل فسألته : أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟» . وقالت : أتحرق بالنار قلباً يحبك ؟» . وأمسكت فى إحدى يديها ناراً وفى الأخرى ماء وادعت أنها ذاهبة إلى السماء ، « حتى ألقى بالنار فى الجنة وأصبّ الماء فى الجحيم ، فلا تبقى الواحدة ولا الأخرى » . وذلك منها تحقير لما عظّم الله من أمر **الجنة والنار** . وكانت تقول ما عبدتك رغبةً فى جنتك ، وليس هذا ما قطعت عمرى فى السلوك إليه ! » . وقالت : إذا كنت أعبدك خوف النار فأحرقنى بنارها ، أو طمعًا فى الجنة فحرّمها علىّ ! » . وقالت : عُرِضت على الجنة فملت بقلبى إليها فأحسب أن مولاى غار علىّ فعاتبنى فله العُتْبى » . فقيل كيف لها أن تصب الماء على نار وقودها الناس والحجارة ، وقد قال فيها الرسول ﷺ : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من حرّ جهنم » . وقد روى أنه قال : « يا جبرائيل مالى أرى ميكائيل لا يضحك ؟ فقال . ما ضحك جبرائيل مذ خُلقت النار ، وماجفّت لى عين مذ خُلقت جهنم ، مخافة أن أعصى الله فيجعلنى فيها ! » . فإذا كانت هذه حال الملائكة وهم الأطهار من الدنس ، وهذا انزعاجهم من النار ـ فكيف تهون على رابعة فتقول إنها ستطفئها بالماء ، فتظهر الجهل بقدر هذه النار ؟ !

★★★

وقالت رابعة : إلهى ! كل ما قدّرته لى من خير فى هذه الدنيا أعطه لأعدائك . وكل ما قدّرته لى فى الجنة امنحه لأصدقائك » ، وتلك دعوة باطلة ، لأن الله قد توعد الفُجّار بالعذاب ، وشرع العذاب للمخالفين . وقولها « ما قدّرته لى فى الجنة » قطعٌ لنفسها بأنها من أهل الجنة وذلك كفر ويروى أنها قالت عن قول الله « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون » ، « مساكين أهل الجنة ! فى شغل هم بأزواجهم ! » . وقد عاب **ابن عربى** عليها مقالتها وقال إنها ما عرفت! إنها لمسكينة ! فإنما شغلهم بالله ! » . ورَدّ ذلك منها إلى « مكر الله الخفى بالعارفين » .

★★★

ومن شطحات قولها **بالكعبة** « لا أريد الكعبة بل رب الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها ؟ » ولم تشأ أن تنظر إليها وقالت فيها : الصنم المعبود فى الأرض ! والله ما ولجه الله ولا خلا منه » ، وذلك مخالفٌ لما أمر به الله عز وجل من الحج لبيته وتوقيره ، فقال : ﴿ **ولله على الناس حج البيت منإاستطاع إليه سبيلا** ﴾ ، وقال : ﴿**وأتموا الحج والعمرة لله**﴾ ، وقال : ﴿ **ولا فسوق ولا جدال فى الحج** ﴾ .

★★★

وقيل غلطت رابعة حين خُطبت وامتنعت عن **الزواج** بدعوى أن الزواج يميل إلى الدنيا ، ولا خيار لها فى نفسها فإنها لله بها ، وقد لعن الرسول ﷺ المترجلات من النساء المتشبهات بالرجال ، والمتبتلات من النساء اللاتى يقلن لا نتزوج ، وليست العزوبة من أمر الإسلام فى شىء ، **وابن عباس** يقول : إن خير هذه الأمة كان أكثرها نساء » . ولو ترك الناس الزواج ما كان لهم أولاد ، فلم يغزوا ويجاهدوا ويعملوا ، وكان النبى ﷺ يختار الزواج ويحث عليه ونهى عن التبتل . وإذا كان الزواج أليق بالرجل فهو ألزم للمرأة ، وكانت رابعة تقول : إن أُنسها بالله ، مع أن الله هو الذى يقول : ﴿ **وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها** ﴾ ، فهل إذا قبلت رابعة الزواج امتثالا لأمر الله والتزاماً بسنته ، أتراها تكون قد خرجت عن الأنس بالله وعن السُنّة!

★★★

وقيل غالت رابعة إذ إعتزلت الدنيا بدعوى الاشتغال بالله ، فسكنت كوخاً ، وافترشت حصيراً ، وتجرّدت من كل مال ، وجلست على بساط الفقر ، مع أن الله لم يحرّم زينته على الناس ، وجعل المال قواماً لها ، وكان الرسول يدعو لأصحابه بأن يُكثر الله أموالهم وأولادهم ويبارك فيهم ، ولما سأله **كعب بن مالك** · يا رسول الله ـ أمن توبتى أن أنخلع من مالى صدقةً إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ ؟ قال « أمسك بعض مالك فهو خير لك » ، وذلك على خلاف ما اعتقدته رابعة من أن المال حجاب وعقوبة .

★★★

وكانت رابعة لا تجد ما تأكل ، فتظل بالأسبوع على جوعها ، فتضعف حتى لتتداعى ساقاها ، ووصفت بأنها كالشَنّ . وهذا خطأ كما قيل ، لأنها إذا أكلت وتقوّت على القيام كان أكلها عبادة ، لأنه يعين على العبادة ، وليس من العقل ولا من الدين ترك ما تحتاج إليه النفس من المطعم والمشرب فشدّدت فيما ابتدعت .

★★★

ومن أغلاطها أنها قالت لرياح القيسى لما رأته يُقبّل صبياً من أهله · ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره ؟ وكأن طلب الأولاد يشغل عن الله ، وهو سبحانه الذى يقول . ﴿ **وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم** ﴾ ، ورسوله ﷺ يقول · « تناكحوا تناسلوا » ، وقد طلب الأنبياء الأولاد ، فقال تعالى حكاية عنهم . ﴿ **ربِّ هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء** ﴾ ، و ﴿ **رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى** ﴾ .

وذلك بعض ما نذكره من أغلاط قيل إن رابعة وقعت فيها وأُخذت عليها ، ووُجه لها بسببها النقد ، ولم نر أن نردّ عليها فقد فعلنا ذلك فيما سبق من أبواب ، واللهَ نسأل أن يغفر لها ، ولمن عاب عليها ، وأن يغفر لنا فيما أوردناه أو قصّرنا فيه أو عجزنا عن بيانه .

★★★

الفصل الثانى عشر

رجالٌ ونساءٌ حول رابعة

★★★

يلفت الانتباه فى حياة رابعة العدوية هذا الجمع الكبير من الصوفية من الرجال والنساء من حولها ، على عكس ما نجد عند **تريزا الأڤيلية** التى يزعم **الدكتور بدوى** أنها شبيهة رابعة فى المسيحية . وبحسب المتاح من المراجع فإن أكثر ما يروى عنها من حكايات مدارها **الحسن البصرى** ، ثم خادمتها **عبدة بنت أبى شوال** ، ثم **سفيان الثورى** ، **فمالك بن دينار** ، **فرياح القيسى** ،**فعبد الواحد بن زيد** ، **فحيّونة** ، **فشقيق البلخى** ، **فإبراهيم بن أدهم** ، **ثم ذو النون المصرى** ، وهناك أكثر من **ثلاثين** شخصية فى حياتها كلهم من الرجال إلا امرأتين .

★★★

١ ـ الحسن البصرى

★★★

أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن ، الفقيه الزاهد ، كان عالماً عالياً رفيعاً ، ثقةً مأموناً عابداً ناسكاً فصيحاً وسيماً ، وله مواعظ اشتهرت عنه . وأبوه كان فارسياً وسبى فى فتح العراق . وقيل إن أمه كانت جارية **لأم سلمة** زوج النبى ﷺ فبعثت أم سلمة جاريتها فى حاجة لها ، فبكى الحسن وهو طفل ، وكان بكاؤه شديداً فرقّ له قلب أم سلمة رضى الله عنها ، فأخذته ووضعته فى حجرها ليسكت ، وألقمته ثديها ، فقيل إنه درّ عليه فشرب منه . وقيل إنّ ما بلغه الحسن من الحكمة إنما كان من اللبن الذى شربه من أم سلمة زوج رسول الله ﷺ ، ومايزال يعى الحكمة حتى نطق بها . وكان إذا ذكر عند أبى محمد بن على بن الحسين يقول . ذلك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء » . وقيل فى أوصافه النفسية : إنه أشبه الناس سريرةً بعلانية ، وأشبه قولاً بفعل وإن قعد على أمر قام به ، وإن قام على أمر قعد عليه ، وإن أمر بأمر أعمل الناس به ، وإن نهى عن شىء كان أترك الناس له .

وقال عنه أبو طالب المكى · إنه أول من أنهج علم التصوف ، وفتّق الألسنة به ، ونطق بمعانيه ، وأظهر أنواره ، وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمعوه من أحد من إخوانه .

وقيل إن الزهد انتهى إلى ثمانية من التابعين ، فمنهم الحسن بن أبى الحسن ، « فما رأينا أحداً من الناس أطول حزناً منه ، وما كنا نراه إلا أنه حديث عهد بمصيبة » .

ومن أقواله

« والله ما من الناس أدرك القرن الأول وأصبح بين ظهرانيكم إلا أصبح مغموماً وأمسى مغموماً ، ولقد أدركت سبعين بدرياً ، أكثر لباسهم الصوف ، ولو رأيتموهم قلتم مجانين ، ولو رأوا خياركم لقالوا ما لهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا شِراركم لقالوا مايؤمن هؤلاء بيوم الحساب . ولقد رأيت أقواماً كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه ، ولقد رأيت أقواماً يسمى أحدهم وما يجد عنده إلا قوتاً فيقول لا أجعل هذا كله فى بطنى ، لأجعلن بعضه لله عز وجل ، فيتصدق ببعضه وإن كان هو أحوج ممن يتصدق عليه . وأدركت أقواماً ماطوى لأحدهم فى بيته ثوب قط ، ولا أمر فى أهله بصنعة طعام قط ، وما جعل بينه وبين الأرض شيئًا قط » .

وكان يتمثل بهذين البيتين ، أحدهما فى أول النهار ، والآخر فى آخر النهار :

يسر الفتى ما كان قدّم من تقى — إذا عرف الداء الذى هو قاتله

وما الدنيا بباقية لحى — ولا حى على الدنيا بباق

ولما حضره الموت دخل عليه رجال من أصحابه ، وطلبوا أن يزوّدهم بكلمات تنفعهم ، فقال·

إنى مزودكم بثلاث كلمات . مانهيتم عنه من أمر فكونوا من أترك الناس له ، وما أمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به ، واعلموا أن خُطاكم خطوتان ، خطوة لكم وخطوة عليكم ، فانظروا أين تغدون وأين تروحون » .

وتوفى رحمة الله سنة ١١٠ هـ ، وكانت رابعة فى نحو الخامسة عشر أو العشرين ، وربما تكون قد عرفته فى مجالسه ، وتاريخ ميلاد رابعة ووفاتها من الأمور المختلف عليها ، فمن قائل أنها توفيت سنة ١٣٥ هـ ، ومن قائل أن وفاتها سنة ١٨٠ أو ١٨٥ هـ . وقد

رفض البعض حكاياتها مع الحسن البصرى لعدم إمكان إدراكها له ، وزكّى البعض هذه الحكايات . وقيل إن من أورد لها حكايات مع البصرى إنما كان يقصد الجمع بين هاتين الشخصيتين الكبيرتين فى تاريخ التصوف ، ولتمجيد رابعة على حساب الحسن ، حيث أظهرتها هذه الحكايات بمنزلة أعلى من منزلة الحسن .

ويذكر الدكتور **بدوى** أن نظرية رابعة فى الزواج تتأيد بنظريات رجال عصرها فيه ، وعلى رأسهم الحسن البصرى ، رائد حركة الزهادة فى ذلك العهد ، ولم يكن يرى الزواج بالنسبة إلى الزاهد بل إلى العبد الصالح ، وقال « إذا أراد الله بعبد خيراً فى الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد » . وفى هذا ما يدل على أن نزعة تقرير العزوبة كانت بمثابة الفرض على من يريد أن ينقطع لله ويبلغ منزلة الصدّيقين . غير أنا وجدنا **الأصبهانى** صاحب **حلية الأولياء** قد ذكر فى تأريخه للحسن البصرى أن ابنه جاءه وهو فى مجلسه يطلب إليه أن يصلح سهمه الذى انكسر ، ويبدو أن هذا الابن كان اسمه سعيد ، وأنه لذلك كان يكنى أبا سعيد ، فهل كان الحسن يدعو إلى ما لا يطيقه على نفسه فى حياته ، أم أن هذه الروايات عنه مختلقة ، خاصة أن الحسن كان يقول على وجه المقارنة أنه أدرك أقواماً كانوا آأمر الناس بالمعروف ، وآخذهم به ، وأنهى الناس عن المنكر وأتركهم له . وأنه قد صار إلى أقوام آأمر الناس بالمعروف وأبعدهم منه ، وأنهى الناس عن المنكر وأوقعهم فيه ، ويتساءل . كيف الحياة مع هؤلاء ؟ ولربما لذلك يتناقض قوله الأول مع قوله الثانى . ويذكر الإمام **أحمد بن حنبل** أن العزوبة ليست من أمر الإسلام فى شىء ، وأن النبى ﷺ تزوج أربع عشرة امرأة ، ومات عن تسع ، وكان يصبح وما عندهن شىء ، وكان يختار النكاح ويحث عليه وينهى عن التبتل ، فمن رغب عن فعل النبى ﷺ فهو على غير حق ، والنبى ﷺ قال « حُبّب إلىّ النساء » ، وقال « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار أنفقته فى الصدقة ، ودينار أنفقته على عيالك ، أفضلها الدينار الذى أنفقته على عيالك[1] » ، وقد روى عن الحسن مع رابعة أنه دخل عليها وجماعة من الزهاد فعرضوا عليها الزواج ممن تختار منهم ، فلما استفسرت عن أعلمهم قالوا لها الحسن البصرى ، فطلبت إليه أن يجيبها على أربع مسائل فتكون له أهل ، فقال لها سلى فأنا مجيبك إن وفقنى الله ، ومعنى الحكاية أن الحسن كان من دعاة الزواج ، وأنه قد خطب رابعة فيمن تقدّم لخطبتها ، على عكس ما يذهب إليه **الدكتور بدوى** .

★★★

٢ ـ عبدة بنت أبى شوال

★★★

كانت عبدة تخدم رابعة ، وقيل إنها كانت من خير إماء الله . ومعظم ما وصلنا عن حياة رابعة الخاصة وصلنا عن طريقها ، وقد تناولتها فى صلاتها ، ونُسكها ، وتهجدها ، وقيامها الليل ، وطعامها ، ومسكنها ، ولباسها ، وموتها ، فقالت :

« كانت رابعة تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهى فزعة : يانفس ! كم تنامين وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور ! » . فكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت . فلما حضرتها الوفاة دعتنى فقالت : ياعبدة ! لاتؤذنى بموتى أحداً ، ولفّينى فى جُبتى هذه ! » . فكفّناها فى تلك الجبة ، وخمار صوف كانت تلبسه . وقالت عبدة · رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها فى منامى ، عليها حلة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً أحسن منه ، فقالت : يارابعة ! ما فعلت بالجبة التى كفّناك فيها ، والخمار الصوف ؟ ـ قالت . إنه والله نُزع منى ، وأُبدلتُ هذا الذى ترينه علىّ ، وطويت أكفانى وخُتم عليها ورُفعت فى عليين ، ليكمل لى بها ثوابها يوم القيامة » . ـ قلت : لهذا كنت تعملين أيام الدنيا ! ـ قالت : وما هذا عندما رأيت من كرامة الله لأوليائه ! » . ـ قلت : فمرينى بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل ! ـ قالت : عليك بكثرة ذكره . أوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك .

وتقوم **طريقة** عبدة على الذكر ، وربما كان إنشغالها به هو الذى جعلها تحلم برابعة توصيها بالذكر ، والنبى ﷺ كان يقول « سبق المفردون » ، قيل ومن المفردون يا رسول الله ، قال : « الذاكرون كثيرًا والذاكرات » ، والفرد هو الذى ليس معه غيره ، والذكر هو طرد الغفلة ، والفرق بين رابعة وعبدة أن رابعة كانت تستروح الأفكار ، وعبدة كانت تشغلها الأذكار ، ولذلك يحكى **الزبيدى** أن رابعة قالت يوماً : من يدلنا على حبيبنا ؟ يعنى أنها كانت تفكر فيه ، ومنها من ذلك حيرة ، فأجابتها عبدة بيقين . حبيبنا معنا ، ولكن الدنيا قطعتنا عنه ! » . وذلك **مقام المعية** ، ولم يكن يخفى على رابعة ، وإنما كانت كما يقول الزبيدى فى مقام الاستغراق الذى هو من نتائج المحبة ، وهو مقام القُرب الذى قد يتطلب من السالك من

يأخذ بيده ، فنبهتهـا عبدة خادمتها ، وردّت شوقهـا إلى الله إلى إنشغالها بالدنيـا فأفتقدته معها . ومن المفسرين من يستعظم على عبدة أن تنبه رابعة وهى « رأس فى المعرفة والمحبة » ، فقالوا إن مقالة رابعة تفكرٌ فى الله دون ما سواه ، وهذا هو الذكر بعينه ، وفيه قال النورى :

أريــد دوام الــذكـر من فــرط حبــه — فيـا عجباً من غيبــة الـذكـر فى الوجــد
وأعجب منــه غيبــة الـوجــد تــارة — وغيبــة عين الـذكـر فى القُـرب والبُعـد

أو أنهما قد استهلكتهما محبة اللـه ولم يبق لهما حظ ، وكانت محبة رابعــة محبة وَجْد فقالت مقـالتها ، بينما كانت محبــة عبدة إقراراً وهى أقل درجــة ، وفيها يدرك المُحــب عِلّة وجده ، ولا يُستغرق عن نفسه بالكلية ، فيذكّـره العقل بما فاته . وهو حال عبدة . وكانت فى صحبة سيدة العــارفات بالله والمحبـات له حتى وفاتها ، والسلوك مُعْـدٍ كما يقولون وإنما رابعة رائدة وعبـدة تابعة ، ويحكى أن رابعــة كانت تعتكف إبّـان الصيف فى بيت منعزل لا تفارقه فجـاءتها عبدة يوما تقول : سيـدتى ! غادرى هذا البيت وتعالى تأملى آثـار قدرة الله تعالى ، فأجابتها رابعة · بل أدخلى أنت وتعـالى وتأملى القدرة نفسها ، وتأمُلُ عبدة إذن كانت لموضوعات خلـق الله وبدائع صنعه فهى لم تزل فى مـرحلة الدهشة بينما تأمـل رابعة كان لذاتها ، وكان استبطانًا ، ولذلك قالت أبياتها المشهورة ·

أحبـــــك حبين : حـــــبَّ الهوى — وحبــــــاً لأنك أهـل لــــــذاكـــــا
فأمّـــــا الــــــذى هــــو حب الهوى — فــذِكــرٌ شُغِلت بــــه عن ســواكـــا
وأمّـــــا الــــــذى أنت أهـلٌ لـــــه — فلست أرى الكــــون حتى أراكــــا

ففى الحب الأول المعهود تذكر المحبوب ، ولكنهـا لا تنسى نفسها ولا الكون من حولها فيه . وفى الثانى كانت محبتها كما يقول **بن عبد الصمد** . التى تعمى وتصم ، أو تعمى عما سوى المحبوب فلا تطلب سواه ،فقالت قولتها من يدلنا على حبيبنا ؟!!

٣ ـ سفيان الثورى

★★★

أبو عبد الله سفيــان بن سعيد الثورى ، كانوا يسمــونه فى البصرة **أمير المؤمنين فى الحديث** . وقالـوا أئمة النــاس ثلاثة بعـد أصحاب رسول اللـه ﷺ · ابن عباس فى زمــانه ،

والشافعى فى زمانه ، وسفيان الثورى فى زمانه » . وفى وصف مجالس سفيان قال **ابن المبارك** : تعجبنى مجالسه . إذا شئت رأيته فى الورع ، وإذا شئت رأيته مصلياً ، وإذا شئت رأيته غائصاً فى الفقه » . وقال ابن عياش فى مصاحبته : إنى لأرى الرجل يصحب سفيان فيعظُم » . وقال **الطنافسى** : لا أذكر سفيان الثورى إلا وهو يُفتى » . ويقول **ابن مبارك** · إذا لقيت سفيان الثورى فلا تسأله عن شىء إلا عن رأيه » .

وسفيان إذن يَشرُف الناس بمعرفته ، ومجالسه فيها الفائدة لمن يؤمها ، ودرايته بالحديث لا يختلف بشأنها أحد ، إلا أن الحكايات التى تورده مع رابعة توقفه منها موقف المتلقى عنها والتلميذ الروحى لها ، وهذه الحكايات قد كتبها صوفية ، ويظهر فيها بوضوح أنهم يريدون أن يثبتوا أن **المتصوفة أفضل من الفقهاء والمحدثين** ، فالجلوس للحديث وعلو الإسناد فيه كله رياسة ودنيا ، وللنفس فى الجلوس للحديث لذة ، ورابعة لذلك تقول لسفيان عندما تسمعه يطلق زفرة ويهتف واحزناه : لا تكذب ! قل واقلة حزناه ! فلو كنت حزيناً ما هنأك عيش » . وتقول له مرة أخرى · إن السلامة ترك الدنيا وأنت غارق فيها » . وسمعته يقول اللهم أسألك رضاك ، فقالت : تسأل رضا من لست عنه براض! » . ولا عجب وهذا حالها معه أن تطلب من خادمتها مرة بعد أن ينصرف سفيان منَ عندها : إذا جاء هذا الشيخ وأصحابه فلا تأذنى لهم فإنى رأيتهم يحبون الدنيا . وهذا النفور أساسه أن رابعة تنطلق من فلسفة فى الحياة والدين مختلفة عن سفيان ، ومع أنه يرتاح إليها كثيراً ، ويطلق عليها اسم المُؤَدِبة إلا أنها كانت كثيرة النقد له ، ونلاحظ أن رابعة تسأل مرة عن حبها للرسول ﷺ فتقول قولتها المحيرة « إن حب الله قد ملأ قلبى إلى حد لم يجعل ثمة مكاناً لمحبة غيره أو كراهيته » ، ولاحظ كذلك قولها القاطع بأنه لا مكان فى قلبها لغير الله ، بما يعنى أنها لم تشتغل بمحبة الرسول ولا بعلم الحديث وإنما اشتغالها على الحقيقة بالله وبعلم الباطن ، فهى له ، وفى ظل أوامره ، ولا خيار لها فى نفسها . وعلم الباطن الذى هو شغلها يقول فيه الشبلى :

إذا طالبونى بعلم الورق ... برزت عليهم بعلم الخِرَق

وموجدة رابعة على سفيان أنه ليس من أهل الطريق . والعلم الذى تتيه به رابعة هو الذى قال فيه الإمام علىّ « سرّ من سرّ الله ، وحُكمٌ من أحكامه ، يقذفه فى قلوب من يشاء من أوليائه » ، وهو لذلك **علم وهبى** ، لا فضل لهم فيه . وأما علم سفيان فهو **علم كسبى** ، يبذل فيه العالم كل نفسه ، وكما يقول . إن المحدث قبل أن يكتب أو يقول الحديث عليه أن « يؤدّب

نفسه ويتعبّد قبل ذلك بعشرين عام » ، ولذلك فقد فسّـر البعض ، **كابن الجوزى** ، تسخيف الصوفية لهذا العلم بأنه بسبب ميلهم إلى الكسل وتبطّلهم وزهدهم فيما يكون به إرهاقهم .

ويذهب **ابن عربى** إلى تفسير أكثر موضوعية ، وفيه من التحليل الكثير فيقول : إن السائرين إلى الله بعـزائم الأمور على قسمين ، فطـائفة ربطت همتها على أن الـرسول إنما جـاء مُنبهاً ومُعلماً ، فإذا أعطى العلم بذلك زال من الطريق وخلّى بينهم وبين الله ، وهؤلاء إذا سابقوا إلى الخيرات سارعـوا فلم يروا أمامهم قدمـاً لأحد من المخلوقين ، لأنهم قد أزالـوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق . والطائفـة الأخرى جعلوا فى نفوسهم أنهم لا سبيـل لهم إلى الله تعالى إلا والرسول هو الحاجب ، فلا يشـهدون أمراً إلا وأقدام الرسول ﷺ بين أيديهم . والحالة الأولى هى حالـة عبد القـادر الجيلانى **ورابعة العدوية** وأبى السعـود بن شبل ومن جـــرى مجراهم ، والحالـة الثـانية التى لا يضرب ابن عـربى المثل لها هى حـالـة **سفيان الثورى** والمحدّثين بعامة ، أى أن رابعة صـار طريقهـا إلى الله مباشرة من غير حاجة للرسول ، بينما الثورى يتوسل إلى الله بـالرسول ، والموقفان متغايران ، ولذلك فبينما نجـد الثورى شديد الزهد ومكتفياً بخبزه وبقله ، وقد تمر الأيام عليه دون أن يتناول شيئًا من الطعام ـ وكانت رابعة مثله ـ إلا أن رابعـة كان موقفها واضحاً فتقول لـه : أفضل شىء يتقرب به العبد إلى الله ألا يطلب من الدنيـا والآخرة غيره » . وتقول : ما عبـدته خوفا من نـاره ولا حبا لجنته ، فأكون كـالأجير السوء ، إن خاف عمل ، أو إذا أعطى عمل ، بل عبدتـه حباً له وشوقـاً إليه . بينما سفيان يرى أن الزهد فى الـدنيا هو « قصر الأمل ليس بأكل الخشن ولا لبس الغـليظ » ويقول : الأفضل أن يكتسب الـرجل لعياله وأن تفوته الجماعـة فيصلى وحده ، من أن يترك عياله يتضرعون جوعاً ويتوكل على اللـه » . وكان يقول . كثرة النساء ليست من الدنيا ، لأن علياً رضى اللـه عنه من أزهد الصحـابة وكـان له أربع نسوة وتسع عشرة سريـة » . وكان سفيان متزوجاً هو نفسه ، وذلك كله عكس ما ذهبت إليه رابعة فى حياتها وتصوفها. وتسأل رابعة سفيان يومـاً : ماتعدون السخاء **فيكم** ؟ فيقول لها : أمـا عند أبناء الـدنيا فمن يجود بمالـه ، وعند أبنـاء الآخـرة منْ يجود بنفسه » . فتقـول رابعـة : أخطأتم ! » . فيسألها فما السخاء **عندكن** ؟ فتقول · أن تعبده حباً له لا طلبـاً لجزاء ولا مكافأة » . وأتساءل هل جواب سفيان فيه أن يطلب جزاء أو مكافأة حتى تقول رابعة أخطأتم وتصوّبه إلى ما صوبته إليه ؟ ويبدو أن سؤال رابعـة الذى فيه « **فيكم** » ، وسؤال سفيان الـذى فيه **عندكن** ، يعنى أنها كانت تسأل عن موقف الرجال من السخاء المُعبّـر عنه **بفيكم** ، فى مقابل موقف النساء المعبر

عنه **بعندكن** . والتضحية بـالنفس والمال هى أقصى ما يقـدمه الرجـل المؤمن من السخاء ، بينما عند المجتمع النسـائى لرابعة ، وهـو مجتمع صوفى من المنـاديات بالمحبـة الإلهية من أمثال حيّونة وعبـدة ،فإن السخاء هو أن تبذل المُحِبةُ لله نفْسَها فى هـذه المحبة ، فتستغرقها وتعيش بها ، فـلا تكـون أنثى ولا تتزوج ولا تنجب ، وتلك لعمـرى تضحيـة من المرأة وأى تضحيـة فى مجتمع كل تعاليمـه تقضى بـزواج المرأة وتحبب لها الإنجاب . ولم يعـرف عن رابعة وعبـدة وحيّونـة أنهن تزوجن ، وكُـنّ يرفضن فكرة الـــزواج من أسـاسها تفـرغاً لعبـادة الله .

وفى حكاية من حكايات رابعة مع سفيان أبصرها مريضة متهافتة وسألها أن تدعو الله لنفسها أن يخفف عنهـا ، فلم تفعل باعتبار أن مرضهـا من مشيئة الله ، فكيف تتوجـه إليه بالدعاء متجاهلة إرادته . وكانت رابعـة كالشأن مع الصوفية ترى فى التداوى والشكوى لله من المرض خروجاً من التـوكل ، وأما سفيان فقد صَحّ عنده أن رسـول الله مرض واشتكى وتداوى ولم يخرج بذلك من التوكل ، ولا يمكن أن يُفهم ذلك من المسلم إنْ فَعلَه على أنه تَبَرُمٌ منه لقضاء اللـه فيه . وكانت رابعة فى توكلها متجـردة تماماً حتى أنها لم تكن تمتلك سوى حصيرة وكوز وكفنها وثيابها الخَلِقة التى عليها ،وأما سفيـان فكان يقـول المـال فى زماننا (وهو نفسـه زمن رابعة) سـلاح للمؤمن ، ويقـول : لأنْ أخلف عشرة آلاف دينار أحـاسب عليها أحب من أن أحتاج إلى الناس » .

وتوفى رحمه الله ١٦١ هـ ، وكان ميلاده سنة ٩٧ هـ ، أى أنه إذ التقى برابعة كان مثل عمرها ، وكان ميلاده ووفاته بالبصرة ، وكان يقـال فيه أنه إذا ذُكّر بالموت لا يُنتَفع به أياماً من شدة ذهـوله واكتئـابه ، حتى أنـه كان إذا سئل عـن شـىء لم يقل سوى « لا أدرى ! لا أدرى ! » .

ومما يذكره **أبو نعيم** عن **أحمد بن أبـى الحوارى** وكـان من المحـدّثين عن كثير من الصوفية ، أن سفيـان الثورى قال : دخلت على بنت **أم حسّان الأسدية** ، وفى جبهتها مثل ركبة العنز من أثر السجود وليس به خفـاء ، فقلت لها · يابنت أم حسان ! ألا تأتين عبد الله بن شهاب بن عبـد الله فرَفَعْتِ إليه رقعة لعلّـه أن يعطيك من زكاة ماله مـّاتغيرين به بعض الحالة التى أرادهـا بك ؟ فدعت بمعجر لها فاعتجـرت به فقالت : ياسفيان ! لقـد كان لك فى قلبى رجحان كثير (أو كبير) ، فقـد ذهب الله برجحـانك من قلبى ! ياسفيـان ! تأمرنى أن أسأل الدنيـا من لا يملكها ؟ وعزتـه وجلاله إنى أستحى أن أسألـه الدنيا وهـو يملكها ! » .

ونفس الحكاية قيلت عن رابعة ، فقد روى **حماد بن زياد** أنها قالت : إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟ ! فكان هذا الجواب لأنه قال لها : سليني حاجتك » . وفى رواية أخرى أن جماعة من الصالحين ذهبوا لزيارة رابعة ، فلما رأوها وعليها أسمال ممزقة قالوا · أى رابعة ! كثير من الناس سيساعدونك إن طلبت منهم المساعدة . فأجابت : إنى أخجل من أن أسأل الناس شيئاً من متاع هذه الدنيا ، لأن شئون الدنيا ليست ملك أحد ، وما هى إلا عارية فى يد من هى فى يده ! » . وعن **أحمد بن أبى الحوارى** أيضاً فى رواية لأبى نعيم أن سفيان قال : وكان إذا جن عليها الليل (ويقصد بنت أم حسان) دخلت محراباً لها وأغلقت عليها ثم نادت إلهى ! خلا كل حبيب بحبيبه ، وأنا خالية بك يامحبوب ، أفما كان من سجن تسجن به من عصاك إلا جهنم ، ولا عذاب إلا النار ؟» . وهى نفس المعانى والكلمات التى تنسب لرابعة ، فقد قيل إنها كانت إذا صلّت العشاء قامت على سطح لها وشدّت عليها درعها وخمارها ثم قالت . إلهى ! أنارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ! » ، ثم تقبل عن صلاتها . وعن **مالك بن دينار** أنه أتى رابعة وهى تقول : أما كان لك يارب عقوبة ولا أدب غير النار ؟ ! » .

وفى الرواية عند أبى نعيم أن سفيان كان يعظ بنت أم حسان مثلما كان يفعل مع رابعة ، وكان يتلقى عنها ويقف منها موقف التلميذ الروحى كما كان مع رابعة . يقول سفيان : فدخلت عليها بعد ثلاث (ليال) فإذا الجوع قد أثّر فى وجهها ، فقلت لها . يابنت أم حسان ! إنك لن تؤتى أكثر مما أوتى موسى والخضر عليهما السلام إذ أتيا أهل القرية فاستطعما أهلها ، فقالت : ياسفيان ! قل الحمد لله ! فقلت الحمد لله ، فقالت : اعترف له بالشكر ! ـ قلت نعم ، قالت : وجب عليك من معرفة الشكر شكر ، وبمعرفة الشكرين شكر لا ينقضى أبداً » . قال سفيان . فَقَصُرَ والله علمى وفسد لسانى وما أقوم بشكر كلما اعترفت له بنعمة وجب علىّ بمعرفة النعمة شكر ، وبمعرفة الشكرين شكر ، فَولّيْتُ وأنا أريد الخروج ، فقالت . ياسفيان ! كفى بالمرء جهلًا أن يعُجَب بعمله ، وكفى بالمرء علماً أن يَخشى الله ! إعلم أنه لن تَنقّى القلوب من الرَدَى حتى تكون الهموم كلها فى الله هَمّاً واحداً » . قال سفيان : فَقَصُرْت والله إلى نفسى ! » .

★★★

٤ ـ مالك بن دينار

★★★

كنيته **أبو يحيى** ، فقد كـان فى حياتـه يعيش كالنبى يحيى ، فكـان يلبس إزار صوف وعباءة خفيفة ، فإذا كان الشتاء ففرو وكبل وعباءة ، وكان يقول لو صلح لى أن أعمد إلى بُرد لى فأقطعه باثنين فأتزر بقطعة وأرتدى بقطعـة ـ لفعلت ، وكان أدمه كل سنة ملحاً بفلسين ولا يأكل اللحم إلا يوم الأضحـى ومن أضـحيته . وكـان يتكسـب مـن شيئين ـ من عمل الخوص ونسخ القرآن . ودخل عليه جابر بن زيد وهو يكتب فقال له . يامالك ! مالك عمل إلا هـذا ؟ تنقل من كتـاب اللـه من ورقـة إلى ورقة ؟ هـذا واللـه الكسب الحلال ' وكـان يكتب المصاحف ولا يأخذ عليها أجراً أزيد من عمل يده ، ويكتب المصحف فى أربعة أشهر وما كان له من الدنيـا إلا درهمان ، درهم لورقة ، ودرهم ليشترى به خوصـاً يعمل به . وكان كثير الإطّلاع على الكتب المقـدسة والقديمـة فى اليهوديـة والمسيحية ، ويزور من أجلهـا الأديرة ، ويجلس إلى الرهبان ويتحدث بطـريقتهم ويقتبس من كتبهم فيقول · بحقٍ أقول لكم إن أكل الشعير والنـوم على المزابل مع الكـلاب لقليل فى طلـب الفـردوس ، وبلغنى أن عيسى عليـه السلام قال لأصحابه أجيعوا أنفسكم وأظمئوها وأعروها وأنصبوها لعل قلوبكم أن تعرف اللـه ' ، وأوحى الله إلى نبى من الأنبيـاء ـ ، وفى التـوراة ـ ، وفى الإنجيل ، وقـرأت فى بعض الكتب ، وقرأت فى الزبور ـ ، ومكتوب فى التوراة ـ . وكان فى زهده فى الغاية ، حتى أن أستاذه الحسن البصرى قال له . ما أطيق أن أفعل ما تفعله ! » .

ومن أقوالـه فى الزهـد · لولا أن يقول النـاس جُنّ للبست المسوح ووضعت الـرماد على رأسى أنادى فى الناس : من رآنى فلا يعص ربه عز وجل . ويقول : لو وجدت أعواناً ينادون فى سائر الدنيا كلها يأيها الناس النار ! النار ! لفعلت ! وقال : نظرت فى كل إثم فلم أجده إلا من حب المال ' والمؤمن والمنـافق لا يصطلحان حتـى يصطلح الذئب والحمل ! وكـان يبكى ويقول . يارب ! قد عرفت ساكن الجنة وساكن النار ، ففى أى الدارين مالك ؟ ولمّا رأى يوماً رجل يدفن جعل يقول : مالك غداً هكـذا يصير ' لمثل هذا اليوم كان دؤوب أبى يحيى ! وكان دائم الحزن والبكاء ويقول : الذى لا يحَزن يخرب ، كما أن البيت الذى لا يُسكن يخرب .

هذا هـو مالك بن دينار ، وهـذه حاله ، ولم يكن فى بيته عنـد وفاته سنـة ١٣١ هــ إلا

سرير أثل مرمول بالشريط ، وعليه قطعة بورى ، والوسادة قطعة كساء ، ولم يتزوج ، ولمّا سألوه أن يفعل أجاب : عجباً ! لقد طلقت الدنيا ثلاثاً ، ولو استطعت لطلقت نفسى !

ويرد اسم مالك فى بعض الروايات عن رابعة كرفيق لسفيان الثورى والحسن البصرى وشقيق البلخى ، ويُروَى عنه أنه قال : ذهبت إلى رابعة فوجدتها تشرب من جرة مكسورة وقد فرشت على الأرض حصيرة عتيقة ومخدتها من الطوب اللِّبن ، فقلت وقلبى يغلى : يارابعة ! لى أصدقاء أغنياء ، فإن سمحت لى سألتهم أن يعطونى شيئاً من أجلك ! » . أجابت . لقد أسأتَ القول يامالك ! إن الله تعالى هو الذى يرزقنى ويرزقهم ، أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء ؟ فإذا كانت هذه مشيئته فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا » .

وفى إحدى المرات وكان بصحبة الحسن والبلخى ، قال الحسن : ليس بصادق فى دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه . وقال البلخى : ليس بصادق فى دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه . وقال مالك · ليس بصادق فى دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه . فصاحت رابعة . ليس بصادق فى دعواه من لم ينس الضرب فى مشاهدة مولاه ـ مثل نسوة مصر اللائى نسين الآم أيديهن لما رأين وجه يوسف ! » . والروايتان ترسمان صورة لرابعة فى مقام أعلى من مقامات مالك والحسن والبلخى ، ومقامها هو **مقام المشاهدة** ، بينما مقام مالك مقام التواجد . وفى المشاهدة وصل بين رؤية القلب ورؤية العين وقربٌ مقرون باليقين . ومن شاهد الله بقلبه غاب عند وجود عظمة الله ، ولم يبق فى قلبه إلا الله عز وجل . وأما مالك فكان واجداً ، أى يجد فى الضرب تلذذ ، أى حلاوة ، وهو ما يعنيه الوجد . وكثرة مواجيده كانت سمة عليه ، فكان يبكى ويشهق حتى ليُغشَى عليه . ومن أقواله المشهورة فى ذلك أنهم لمّا سألوه أن يدعو قارئاً قال : إن الثكلى لا تحتاج إلى نائحة ! .

★★★

٥ ـ رياح القيسى

★★★

رياح بن عمرو القيسى ، بصرى زاهد ، ومتألّه كبير القدر ، سمع مالك بن دينار وحسّان بن أبى سنان وطائفة ، وكان قليل الحديث ، وكثير الخشية والمراقبة ، ويروى عن

رابعة ، ومن ذلك أن **الأبرد بن ضرار** قال له يـوماً : ياارياح ! هل طـالت بك الليالى والأيام ؟ فقال لـه : بمَ ؟ قال . بـالشوق إلى اللـه ؟ فسكت رياح ولم يـردّ على سؤاله حتـى أتى رابعة فقالت : مـا سألك ؟ فقال لها : سألنى هل طـالت بك الأيام والليـالى بالشوق إلى لقـاء الله ؟ فسألتْه رابعة· فقلت ماذا ؟ قـال . لم أقل نعم فأكذب ، ولم أقل لا فأهجن نفسى . ـ فصارت رابعة تخرق قميصها من وراء ثوبها وهى تقول : لكنى نعم !

وتقول **الدكتورة سعاد عبد الرازق** فى كتابها عن رابعة مايعنـى أن رياحاً قد تصرف فى الموضوع مع رابعة فى تقـديمها للأبرد كما لـو كان زوجها ، وقد ظهـرت غيرته عليها من طلبه لها أن تلثم وجهها وتستتر ، فهل كانت تبين على رياح من غير لثام دون استتار ؟ ومن رأى الدكتـورة أن رياحاً وقد عقـدت بينه وبين رابعة أواصر صـداقة متينة فإنه تـزوجها ، ولعله لذلك كـانت رابعة تكنى بالقيسية ، ولما مات رياح سنـة ١٧٠ أو ١٧٧ هـ ، وصارت رابعة أرملـة تقدم لخطبتهـا آخرون ، ومنهم عبـد الواحد بـن زيد والحسن البصرى وأمير البصرة كما تقول الرواية ، إلا أننا نرى أنه مادامت رابعة قد توفيت نحو سنة ١٨٥ هـ ، أى بعد وفاة رياح بثمانـى سنوات تقريباً ـ ، أو نحو ثلاث عشرة سنـة ، وكانت وقت وفاتها فى نحـو الثمانين ، فإنها من غير المعقـول أن تُخطـب وعمـرهـا ٦٧ أو ربما ٧٢ سنـة .، ومن التناقضـات فى الروايـات عن رياح أنه كـان زاهداً فى الزواج ويـدعو إلى التجـرد على مذهب أستاذه مالك بن دينـار . وينقل عنه قوله . لايبلغ العبد منزلـة الصدّيقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ويأوى إلى مزابل الكلاب ، ومع ذلك فقد ذكر **الشعرانى** فى طبقاته « باب العبّاد من النساء » امرأة رياح القيسى وكانت تقوم الليل كله ، فإذا مضى ربعه الأول ذهبت تقول لريـاح : قم ياريـاح ! فلا يقـوم ، فتقوم الربـع الأخير إلى تمام الليل ثم تأتيه وتقـول : قم ياارياح ! قـد مضى عسكر الليل وأنت نائم ، فليت شعرى من غرّنى بك يـاارياح ! ما أنت إلا جبار عنيد ! وكانت رضى الله عنها تأخذ تبنة من الأرض وتقول · والله للدنيا أهون علىّ من هذه ! وكانت إذا صلّت العشاء تطيبت ولبست ثيابها ثم تقول لزوجها ألك حاجة ؟ فإن قال لا ، نزعت ثيـاب زينتها وصلّت إلى الفجـر رضى الله عنها ، فهل تـراها هى نفسهـا رابعة ؟ ولماذا سكت المترجمون وكتبـوا عنهـا « امـرأة ريـاح القيسى » وكفى ؟ أسئلـة تحتـاج إلى إجابات !

ومما قيل من روايات تثير الحيرة وتزيد البلبلة أن رياحاً كان له صبى من أهله فنظرته

رابعة يضمـه ويقبله بما يعنـى أنه كان متـزوجاً ولـه أولاد ، وعندئذ قـالت رابعة : مـاكنت أحسب أن فى قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره تبارك اسمه ، فصرخ رياح وخرّ مغشياً عليه من وَجْده . ولمّا أفـاق ظل يمسح العرق عن وجهه وهو يقـول : رحمةٌ منه تعالى ألقاهـا فى قلوب العباد للأطفال ! وتـأنيب رابعة الذى أوجده يتضمن أن رياحاً مـا كان له أن يحب غير الله ، والعبـارة التى يجيب بها رياح هى دفـاع الصوفيـة المتأهلين ضـد المنتقدين عليهم فى أمـر الإنجاب عمومـا ، وكانت رابعة ضد الزواج والإنجاب ، فهل تـراها مع ذلك قبلت الزواج من رياح على نحو ما فهمت الدكتورة سعاد للنص الأسبق عن الأصبهانى فى الحلية ؟

ويذكر الدكتور بدوى أنه يفترض أن رابعة العدويـة وقد التقت برياح القيسى فى أول طريقها للتصـوف فتوسم فيها ميلاً إلى الحيـاة الطاهرة فحملها على اطّراح حيـاتها اللاهية عندما كانت تشتغل بالغناء والعزف ، ولعل فى هذا ما يفسر الصلة القوية التى قامت بينهما ، فقد يكـون العطف أخذه عليها فتمنى لها وهـو صاحب الطبيعـة الممتازة أن تسلك السبيل الذى سلكه هو . ولئن كانت المصادر لا تحدثنا عن وقوع هذا الحادث بالذات فإنها تشير إلى صلاتهما الوثيقة إلى أبعد حد ، فكانا يقضيـان الليل معاً فى بيتها إنقطاعاً للتهجد والعبادة ، ومثل هذه الأحداث كثيراً مـا تقع فى حياتنا ، فذو النفس النبيلة إذا ما تـوسم فى إحدى بنات الهوى روحاً سامية سرعـان ما يفكر فى إنقاذها مما هى فيـه ، فمن يدرى ؟ لعل هذا ما وقع بين رياح بن عمرو القيسى وصاحبتنا رابعة .

وقد أجبنا على فروض الدكتور فى حينها . والخطأ الأسـاسى الذى يرتكبه الدكتور هو أنه افترض أيضاً أن رابعة قد اندفعت فى طـريق الإثم نحو شخص ثم خاب رجاؤها فيه ، أو أنها اندفعت فى طريق الإثم إلى حد الإفراط وكان لزاماً على الدكتور بدوى أن يجد لرابعة من ينقذهـا مما تـردّت إليه ، مثلما افترض أنها قـد أثمت فـاخترع قصة تـوبتها على يـد رياح بدعوى صلتها الوثيقة به . ومع أن رابعة كما تقول الروايات كانت على صلة وثيقة بسفيان الثورى ، وكان كما يعبر عن ذلك نفسه يرتاح إليها كما لا يرتاح إلى أحد ، وأنها مؤدِّبة يسمع منها من المواعظ ما لا يسمعه من أحد ، وكان يبيت عندها ويصليان معا ويصومان ، وكذلك الحسن البصرى وقد عـرض عليها نفسه للزواج فيمن عـرض ، وكذلك عبد الواحـد بن زيد وغيرهم ، فلماذا إذن رياح القيسى هو الـذى يوكل إليه الدكتور مهمـة توبتها ؟ والتى يفهم منها فعـلاً وجود عـلاقة حميمـة من نـوع ما ، إلا أن هـذه الروايـة تقدم رابعـة فى صورة

العارفة وتجعل رياحاً تلميذاً لها يعود إليها ليعرف منها جواباً لما أستُغلق عليه فهمه والرد عليه . وهذه الرواية نفسها هى **أيضاً** التى جعلت **الدكتورة سعاد** ترجح أن ما كان بينهما هو علاقة زواج .وثمة أمر آخر تستند إليه **الدكتورة سعاد والدكتور بدوى** فيما أورداه عن خصوصية العلاقة بين رابعة ورياح وهو الخُلة . وقد أورد **أبو طالب المكى** صاحب **القوت** أن رابعة ارتفعت إلى وصف معنى الخلة ، وأن لها أقوالاً جيدة فى مقامها . وكذلك يورد **أبو الحسين الملطى** صاحب **التنبيه والرد على أهل الأهواء** أن رياحاً وكليباً كانا يقولان بالخلة ، وأنهما من الطائفة **الروحانية** ، ويزعمان أن حب الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم ، وأنهما لذلك قد وقعت عليهما الخُلة من الله ، فأبيح لهما أن يفعلا أى شىء حتى لو كان السرقة والزنا وشُرب الخمر والفواحش كلها ، لا على وجه الحلال وإنما على وجه الخُلة كما يحل للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه . وفكرة الخلة مأخوذة من خُلة **إبراهيم خليل الله** التى وردت فى القرآن ، وقد بيّن الرسول ﷺ فضل مقام الخلة ، وأنه لا يبلغه إلا أولياء الله الصالحون، وأنه مقام فوق مقام المحبة . ولو صدّقنا **الملطى** فإن رياحاً كان يقول بهذه المقالة ويدعو إليها ، وقيل فى رياح إنه كان قالياً للدنيا هارباً منها وراغباً فى الآخرة ومطّرحاً للكُلَف ، وكان إذا دخل المسجد بكى ، وإذا دخل بيته بكى ، وإذا دخل الجبانة بكى ، فيقال له « أنت دهرك فى مأتم ؟ » . فيقول : يحق لأهل المصائب والذنوب أن يكونوا هكذا ـ ¹ » . وأتخذ غُلا من حديد فإذا جنّه الليل وضعه فى عنقه وتضرع وبكى حتى يُصبح . **وفكرة الغل** هذه مأخوذة أيضاً من ارتباط الخلة بإبراهيم الخليل ، وإبراهيم عليه السلام هو صاحب قصة الذبيح فى الفكر الإسلامى التى نشأت منها فكرة **سائبة الله** ، وكان كثير من زهّاد البصرة فى عصر رياح يعتبرون أنفسهم سائبات لله ـ كما يقول **الدكتور على النشار** فكانوا يضعون مثل هذا الغل فى أعناقهم انتظاراً للذبح ، ويبكون ويتضرعون حتى الصباح .

ويستخلص **الدكتور بدوى** من علاقة رابعة ورياح الحميمة أنه ربما تأثرت رابعة فلسفياً برياح وانطبعت بها **فكرة الخلة** فقالت بها فى شعرها ، وبسببها تطورت **نظرية الحب** عندها إلى حد أنها أسقطته بسبب أعتبارها لنفسها فى مقام الخلة من ربها ولعله لهذا أيضاً كانت تكلم ربها وتعاتبه بما يشبه **التطاول** ، ولعله أيضاً سبب قولها فى النار إنها لن تحرق قلباً محباً وتوهمها رداً سماوياً عليه ، إذ تقول مخاطبة المولى عز وجل · « أتحرق قلباً

محباً ؟ فيأتيهـا الجواب · ما كنا نفعل هكـذا فلا تظنى بنا السـوء » . وارتباط هذه الـرواية بقصة إبراهيم عليه السلام وإلقائه فى النار فكانـت عليه برداً وسلاماً معروفة فى الإسلام ، فطالما أن الصوفى الـواصل قد بلغ الخلة التى كانـت لإبراهيم فإنه وقد صـار إلى مقامها لن تحرقه النار مثله وهو خليل الله .

وإننا لنستبعد أن يكون **المعنى الإباحى** الذى انصرفت إليـه الخلة هو مـا انتهى إليه حال وسلوك رياح أو رابعة ، وقد يكون هـذا المعنى قد اعتقده آخرون ، منحرفين بالخلة عن أصلها ، وذلك شأن كل المذاهب فى شتى العصور والأمصار ، فلن تعدو أرقاها وأصفاها أن تجد من يسىء إليها شرحـاً وتفسيراً وتطبـيقاً . ولم يكن كـذلك ريــاح ولا رابعة أبـداً رحمهما الله ! .

★★★

٦ ـ عبد الواحد بن زيد

★★★

كان زاهـدًا واعظًا ، وروى عن **الحسن البصرى** ، ورافـق **سفيان الثورى** ، **وفرقد السبخى** ، **ومحمد بن واسع** ، **ومالك بن دينار** ، **وصالح المرى** ، **وعُتبة الغلام** ، **وسلَمة الأسوارى** . وقيل إنـه أصيب بالفـالج فسأل الله أن يطلقـه فى وقت الوضـوء ، فإذا أراد أن يتوضأ انطلق ، وإذا رجع إلى سريره عاد إليه الفالج . ويبدو من حالته أن مرضـه كان نفسياً أو ما يسمى **بالشلل النفسى** ، وتوفى سنـة ١٧٧ هـ ، وكان أكثـر ما يميز شخصيتـه هو كثرة مـواجيده وهيـاجه النفسى حتى ليبكى ويتشنج فما يستطع أحـد أن يهدئه . ويروى **الحارث بن عبيد** أن عبد الـواحد كان يجلس إلى جـانبه فى مجلس مـالك بن دينار فلم يكن يفهم كثيراً من مواعظ مـالك لكثرة بكاء عبد الـواحد ، وفى وعظه كانت له طـريقة فى التحنن والإلقاء العاطفى المؤثر حتى ليؤخذ السـامعون ويُغشَى على بعضهم . ويُروَى أنه فى إحدى المرات نـاداه رجل من ناحيـة المسجد · كف عنـا يـا أبا عبيـدة فقد كشفت قنـاع قلبى ! ولم يتوقف عبد الواحـد واستمر فى وعظه والرجل يقول : كف عنا يا أبـا عبيدة فقد كشفت قناع قلبى ! وعبد الـواحد لا يقطع موعظتـه حتى حشرج الرجل حشرجة الموت ثم خـرجت نفسه

ومات . وقيل فى بثه أنه لو قُسِم على أهل البصرة لوسعهم ، وقيل إنه فى الليل كان كأنه فرس رهان مضمر يقوم إلى محرابه فكأنه إنسان مخاطب .

وكان عبد الواحد مِثل الكثير من أصحابه مطّلعاً على الكتب المقدسة ، ويتردد على الرهبان ، ولعله لهذا السبب أرجع **المستشرقون** فكرة **المحبة الإلهية** عند صوفية البصرة فى ذلك الزمان إلى تأثير **التصوف اليهودى والمسيحى** وهذا النفر من الأصحاب هم أنفسهم الذين كانوا يترددون على رابعة ، وبعضهم كان من تلاميذ الحسن البصرى أو التقى به واستمع إليه وتأثر بأفكاره . وربما لهذا كانت حكايات رابعة مع الحسن البصرى ،فلقد كانت من دائرة ثقافته . وكان عبد الواحد بن زيد من دعاة المحبة وكان يقول . الرضا رأس المحبة ، والرضا يتقدم الصبر ، وأهل محبة الله لا يمكن أن ييأسوا من رحمته ... وكان عبد الواحد بن زيد الراوى للحديث القدسى عن الحسن البصرى قال · قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بى جعلت نعيمه ولذته فى ذِكرى ، فإذا جعلت نعيمه ولذته فى ذكرى عشقنى وعشقته ، فإذا عشقنى وعشقته رفعتُ الحجاب بينى وبينه ، وصرتُ معالم بين عينيه ، لا يسهو إذا سها الناس ، أولئك الأبطال حقًا أولئك الذين إذا أردتُ بأهل الأرض عقوبةً وعذاباً ذكرتهم فصرفت ذلك عنهم » ، وهذا الحديث كما يقول **أبو النعيم** فى **الحلية** مرسل ، ولكنه خارج من جملة الأحاديث المراسيل المقبولة عن الحسن البصرى وعبد الواحد بن زيد وما يرجعان إليه من الضعف ، والحديث كما نرى يذكر « **العشق** » باللفظ فى مجال المحبة الإلهية .

وفى السيرة لرابعة أن عبد الواحد بن زيد خطبها ، ومع علو شأنه هجرته أياماً حتى شفع له إليها إخوانه ، فلما دخل عليها قالت له . يا شهوانى ! اطلب شهوانية مثلك ! أى شىء رأيتَ فىّ من آلة الشهوة ؟ !

وربما يُحمل كلامها على أنها لم تكن جميلة كما يشاع عنها ، وربما لم يكن عبد الواحد بن زيد قد رغب فيها عن شهوة ، إلا أنها فهمت خطبته لها كذلك ، ولقد قيل إن الهاشمى أمير البصرة قد خطبها أيضاً ، ، وجاءت خطبته لها بناءً على ما أشاروا به عليه ، ولم يكن قد شاهدها ولكنه خطبها لمّا علم زهدها وتقواها ، فلماذا لا يكون عبد الواحد قد خطبها لنفس السبب ، خصوصا أنه لم يكن من المتجردين ، فقد ذكر **أبو نعيم** أنه كان له **ابن** متعبّد يقوم على أموره وحوائجه كلها ، فمات وهو بعد فتى ، فوجد عليه عبد الواحد وجداً شديداً ، وكلما

ذكره يبكى ويقول · موته نغّص علىّ حياتى ! ويستدرك ويقول : وهل الحياة إلا متنغصة ! ومن الغريب أن الرواة قد ذكروا عن عبد الواحد أنه صلى الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة ، فهل نفهم من ذلك أنه تزوج مبكراً ، أو ماتت زوجته وظل بعدها فى عزوبة ؟ وربما أنه فى هذه الفترة قد رأى أن يتأهل واختار لنفسه رابعة ؟

ومما يثير الدهشة حقاً فى سيرة عبد الواحد بن زيد ما ذكره **الفضيل بن عياض** عن عبد الواحد ، بشأن امرأة من العابدات اسمها « **ميمونة السوداء** » وكان قد سأل الله ثلاث ليال أن يريه فى المنام رفيقته فى الجنة ، وذلك أمر مستغرب أن يخطر هذا الخاطر فى باله ، فهو دليل على انشغاله الجنسى كما يقول محللو النفس . ويقول عبد الواحد أنه قيل له فى المنام أنها من الكوفة من آل فلان ، فخرج إلى الكوفة وسأل عنها ، فقيل إنها مجنونة ، أو كما نقول مصابة بهوس دينى ، وأنها ترعى غنيمات لقومها ، فذهب يبحث عنها حتى عثر عليها قائمة تصلى وبين يديها عكازة لها ، وعليها جبة مكتوب عليها لا تباع ولا تشترى . وإذ الغنم مع الذئاب لا الذئاب تأكل الغنم ولا الغنم تفزع من الذئاب . فلما رأته أوجزت فى صلاتها ثم قالت : إرجع يا ابن زيد ، ليس الموعد ههنا ، إنما الموعد ثم ، فقال لها . يرحمك الله ! وما يُعلمك أنى ابن زيد ؟ فقالت · أما علمت أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ؟ فقال لها : عِظينى ، فقالت : واعجباً لواعظ يوعظ ! يا ابن زيد ! إنك لو وضعت معاير القسط على جوارحك لخبّرتك بمكتوم مكنون ما فيها ! يا ابن زيد إنه بلغنى ما من عبد أُعطى من الدنيا شيئاً فابتغى إليه ثانياً إلا سلبه الله حب الخلوة معه ،ويبدله بَعد القرب البُعد ، وبَعد الأُنس الوحشة . ثم أنشأت تقول :

يا واعظاً قام لاحتساب — يزجر قوماً عن الذنوب
تنهى وأنت السقيم حقاً — هذا من المنكر العجيب
لو كنت أصلحت قبل هذا — غيك أو تبت من قريب
كان لما قلت يا حبيبى — موقع صدق من القلوب
تنهى عن الغى والتمادى — وأنت فى النهى كالمريب

فقلت لها : إنى أرى هذه الذئاب مع الغنم ، لا الغنم تفزع من الذئاب ، ولا الذئاب تأكل الغنم ، فكيف ذلك ؟ فقالت : إليك عنى ! فإنى أصلحت مابينى وبين سيدى ، فأصلح بين الذئاب والغنم .

والقصة من **الأدب الدينى الرمزى** كما نرى ، إلا أن لها دلالة أخرى بصدد ما نحن فيه ، فميمونة السوداء لم تتزوج ، وثوابها من الله تعالى فى الآخرة أن يزوّجها عبد الواحد بن زيد ، فهل ياتُرى يكون عبد الواحد بن زيد أعزب ، ولذلك فقد طلب من الله تعالى أن يطلعه على نتيجة صبره على العفة فى الدنيا ؟ وهل من الممكن أن يكون عبد الواحد وقد رفضته رابعة محل رفض من أخريات ، فسأل ربه أن يريه فى المنام رفيقته فى الجنة ؟ أسئلة من الصعب الإجابة عليها بشكل حاسم من كتب السيرة ، ويفرضها منهج التحليل الذى آليت على نفسى اتباعه فى هذا الكتاب . على أن مواضع العجب فى القصة أن تنسب **لإبراهيم بن أدهم** قصة مشابهة عن منام يرى فيه أن زوجته فى الجنة هى **ميمونة السوداء** . وكان إبراهيم عزباً فى حياته ، وربما لذلك قد رأى هذه الرؤيا كتعويض لحرمانه ، وربما من كرامات الأولياء كما عند ابن زيد ، إلا أن العجيب أن يكون اسم المرأتين ميمونة ، وأن تكون كل منهما سوداء ، وكانت كل منهما تصلى والشاة والذئب فى مكان واحد ، وقالتا كلاماً مشابهاً فى تبرير الألفة بين الشاه والذئب . تقول ميمونة لإبراهيم : سلّمتها (أى الشاة) إلى منشئها ، وارتفعت بينى وبين من أنا قائمة بين يديه ، فهو الذى رفع الوحشة بين الشاة والذئب . ثم ولت وأنشأت تقول :

قلوب العارفين لها عيون — ترى ما لا يراه الناظرونا
وألسنة بسِّرٍ قد تناجى — تغيب عن الكرام الكاتبينا
وأجنحة تطير بغير ريش — إلى ملكوت رب العالمينا
فتسقيها شراب الصدق صرفاً — وتشرب من كئوس العارفينا

★★★

٧ـ حيونة

★★★

هى زاهدة عابدة من حلقة الجلساء إلى رابعة ، والروايات عنها قليلة إلا أنها فيها تبدو أيضاً من أهل محبة الله ، ولها مخاطبات ومناجيات مع الله ، ولها شعر فى المحبة ومواقف مع كبار الصوفية ومع رابعة نفسها تدل على ما بلغته فى الطريق وما ارتفعت إليه من مقامات . فمن مناجياتها : يا واجدى ! تمنعنى بالليل التلاوة ثم تقطعنى عنك بك فى ضياء النهار ؟ إلهى ! وددت أن النهار ليل حتى أتمتع بقربك ! ... وصامت حتى اسودت من الصيام ، فعوتبت فى ذلك فرفعت طرفها إلى السماء وقالت . قد لامنى خلقك فى خدمتك ! فوعزتك وجلالك لأخدمنّك حتى لا يبقى لى عصب ولا قصب ! ... ولعله لهذا سميت **خادمة الله** ، وشِعرها أقل جودة من شعر رابعة ، وليست فيه على سجيتها . مثل :

يا ذا الذى وعد الرضا لحبيبه   أنت الذى ما إن سواك أريد

ونثرها أيضاً ليست فيه مطبوعة ، تقول « من أحبّ الله أَنِس ، ومن أنس طرِب ، ومن طرب اشتاق ، ومن اشتاق ولِهَ ، ومن وله خَرُمَ ، ومن خرم وصل ، ومن وصل اتصل ، ومن اتصل عرف ، ومن عرف قرُب ، ومن قرب لم يرقد وتسورت عليه بوارق الأحزان » . وما ندرى هل هذا كلام حيونة أم كلام رابعة ؟ غير أن ترتيبها مع ذلك للأحوال والمقامات فيه دراية وعقل وإعمال فكر وخبرة بالغة مما للرجال عموماً ، وليست للنساء . وهى دائماً تأخذ زمام المبادرة كالرجال ، فقد كانت لديها **ريحانة** وهى عابدة أخرى من حلقة رابعة ، فلما جنّ الليل جاء المطر والريح الشديد ، ففزعت ريحانة وضحكت حيونة من فزعها وقالت . لو علمت أن فى قلبى محبة غيره أو خوف سواه لوجأته (أى قلبها) بالسكين ! ، وفى يوم كان شديد الحرارة قالت . عند اَلمبلَغ يفرح الواردون ، وعند العَرْض تنقطع الأسباب ، وعند قوله (أى الله) تنتشر أعلام العارفين ! ـ وكلامها كما نرى مُنضّد وله ماوراءه ولا يفهمه إلا خبير .

ونأتى إلى بعض مواقفها الموحية مع رابعة ،فقيل إن حيونة كانت فى زيارة من زياراتها لرابعة فلما كان جوف الليل حمل النوم على رابعة ، فقامت إليها حيونة فركلتها برجلها وهى تقول : قومى ! قد جاء عُرْس المهتدين يا مَن زين عرائس الليل بنور التهجد !

ويقول **الدكتور بدوى** إن هذا الكلام من حيونـة نص على أكبر قدر من الخطورة ، لأنه يتحدث عن وجـود فكرة الـزواج من الله والاقتران به لـدى الصـوفيـات المسلمات حتى منذ القرن الثانى الهجرى ، أى الثامن الميلادى ، وهى الفكرة التى لعبت دوراً خطيراً فى التصوف المسيحى ، ابتداءً من **القديسة تريزا** التى عاشت فى القرن السادس عشر الميلادى ، أى بعد أولئك الصوفيات المسلمات بثمانية قـرون . وإذا كنا لا نستطيع أن نتحدث عن تأثير مباشر لهؤلاء المسلمات فى **القديسة تريزا** ، فإننا نترك هذه المسألة مفتوحة للباحثين .

والنص كما نرى منســوب لحيونة فلماذا يـربطه الدكتور بـدوى بنظرية الـزواج عند رابعة ؟ ثم إن فكـرة الزواج من اللـه فى التصوف المسيحى لها أساس عقـدى فى المسيحية ، وهو إمكان الاتـحاد بين الناسـوت واللاهوت متمثلاً فى المسيح ، وعلى هذا الأسـاس كان القول بالاتـحاد فى التصــوف المسيحى . وإذا كـان بعض فلاسفـة التصوف الإسـلامــى قد قـالوا بالاتحاد كذلك فإنما نقلوه من الفكر المسيحى دون أن يكون له أساس عقدى من الإسلام . وفكـرة الاقتران بـالله لم يقـل بها فى المسيحية إلا المتصــوفـات ، وكـانت فى مجالهن أنسب لكونهن نساء ، فهل كانت هناك دوافع أيديولوچية للقول بالاقتران بالله عند المتصوفات من المسلمات ؟ ولربما تكـون دوافع حيونة هى تزويـق الكلام باصطلحات نســائية . ويحتمل أنها بطريقتها المندفعـة والتى تتولى فيها المبادأة كشأن الرجال قـد رأت أن تؤثر على رابعة ، فجعلت كلامهــا عن الصـلاة والاستعداد لها ولقاء اللـه فيها بالنسبة لـرابعة الأنثى ، كأنما تتهيأ لعرسـهــا ، وهو أشرف عـرس ، لأنه عرس المهتـدين . وربما كذلك كـان تعبيرها ذاك إسقاطــاً لاشعـورياً عن مكنــونها النفسى ،وهى المرأة التى حرمت نفسها الـزواج ، فطرحت رغبتها المكبوتة فيها فى هذه العبـارة الموحية وكثيرة الدلالة . وعلى أى الأحوال ، ومهما كانت التفسيرات والتحليلات ، فإنــه مما لاشك فيه أن حيـونة كـانت من مدرسة رابعــة فى المحبة الإلهيــة ، وأنها كـانت لها طـريقة رابعــة فى التعبير دون أن تكـون لها أفكـارهــا ، فهى إذا استُغضبت فى اللـه كانت لها ألفــاظها الحادة كـرابعــة . ولقد سبق أن خبرنــا رابعة تقـول لسفيـان « كاذب » ، وتقـول لعبد الـواحد بن زيـد « ياشهـوانى » ، وهاهى حيـونة تفتقـد الاتساق والإخلاص فى وعظ عبد الواحد بن زيد ،فتنبرى له وتصده ولا تناديه باسمه وإنما تقول لـه « يامتكلم ! تكلم عن نفســك ! والله لو مت مــا تبعت جنازتك ! » ، وتشبّهــه بمعلم الصبية الـذى يحفّظ الأولاد بالعصى ، فإذا بهم ينســون بمجرد أن يتركوه ، وتقــول له إن

الأولى به أن يبادر هو نفسه إلى ضرب نفســه ليعلّمها الأدب ، وذلك أسلوب رابعة فى الخطاب مما يدل على أن التأثير كان من رابعة عليها ، وليس العكس كما تقول **الدكتورة سعاد** حيث تجعل حيونة هى معلمة رابعة أو بمثابة الشيخ لها .

★★★

٨ ـ شقيق البلخى

★★★

أبو على شقيق بن إبراهيم الأزدى من أهل بلخ ، التقى برابعــة فى البصرة وكان كثير السياحــة . ويحكى أنه ذهب لـزيارة رابعــة بصحبة **مالك بـن دينار والحسن البصرى** فتحدثـوا عن الإخلاص ، فقــال الحسن البصرى · ليس بصادق فى دعـواه من لم يصبر على ضرب مولاه » فقالت رابعة : هذا غـرور ! ـ وقال شقيق البلخى « ليس بصادق فى دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه » ، فقالت رابعة : هناك ما هو خير من هذا ! ـ فقال مالك بن دينار « ليس بصادق فى دعواه من لا يتلـذذ بضرب مولاه » ، فصاحت رابعة · هنـاك أفضــل مــن هذا ! ـ فقالوا لها تكلمى أنت إذن ؟ فقالت رابعة « ليس بصادق فى دعواه من لم ينس الضرب فى مشاهدة مولاه ، مثل نسوة مصر اللائى نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف ! » .

والشكر إذن هو مقام البلخى فكما يقول هو نفسه : كنت رجلاً شاعراً فرزقنى الله عز وجل التوبة ، وكنت مرابياً ولبست الصوف عشرين سنة وأنا لا أعلم ، حتى لقيت عبد العزيز بن رواد فقال · « يــاشقيق ! ليس البيان فى أكل الشعير ولا لباس الصوف والشَعـر . البيان المعرفة أولاً ، أنت تعرف الله عز وجل وتعبده ولا تشرك بــه شيئاً ! والرضا عن الله عز وجل ثانياً . والثـالثة تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى أيـدى المخلوقين » . ولقد تحقق لشقيق البلخى كل ذلك ، أفلا يكون من الشاكرين ؟ وشكرُه ترجمة فى حياته إلى عمل فكانت له ـ كما يروون عنه ـ ثـلاثمائة قرية فوهبها جميعاً للــه ، وخرج من ثلاثمائة ألف درهم ، فلما مات لم يكن له كفن يُكفّن فيه ! وقيل فى سبب تـوبته أنه كان من أبناء التجـار وخرج للتجارة إلى أرض الترك وهو حـدث ، فدخل بيتاً للأصنـام ، فرأى خادمــاً للأصنام فيه قـد حلق رأسه ولحيته ولبس ثياباً أرجوانية ، فقال شقيق البلخــى للخادم : إن لك صانعاً حياً عالماً فأعبدْه

ولا تعبدْ هذه الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ! فقال لـه الخادم : إن كان كما تقول فهو قادر على أن يرزقك ببلدك ، فَلِما تعنّيت إلى هـاهنا للتجارة ؟ فانتبه شقيق وأخذ فى طـريق الزهد ! وقيل غير ذلك من الروايات . والمهم أن شقيقاً كان همه منذ انتبـاهه وتوبته تحصيل المعرفة بالله ، يحصلهـا لنفسه ولغيره ، فكان متعلماً يقول للمشايخ علّمـونى ، وكان معلماً يدرّس علم الأحوال . واجتمع حوله الكثيرون وأبرزهم **حاتم الأصم** . وقيل إنه سافر معه فصحبه منهم ثلاثمائة مريد (يلفت انتباهنا العدد ثلاثمائة فى حكايات شقيق) . وكان شقيق أستاذًا يميل إلى التصنيف والتبـويب ، ويحب أن يرتب معـارفه وينقلهـا إلى مريديـه فى شكل أولاً وثانياً وثالثاً ، ويقول **سبعة** أبواب يسلك بها طريق الـزهاد ، ويقول **أربعة** أشياء إذا لم يعـرفها المؤمن لم ينج من النـار ، **وثلاث** خصـال منْ عَمِل بها أعطاه اللـه الجنة وهكـذا . والمعرفـة عنده كما هى عنـد رابعة هى المعـرفة باللـه، ويفصلها فيقـول . إنها أولاً بالقلب واللسان والسمع وجميع الجوارح ، ثم هى معرفة النفس ثانياً ، ومعـرفة أوامر الله ونواهيه ثالثـاً ، ومعرفة عدو اللـه والنفس رابعاً . وتفسير **معرفة الله** هو أن تعـرف بقلبك أنه لن يعطيك غيره ، ولا مانع غيره . ولا ضار غيره ، ولا نافع غيره . **ومعرفة النفس** هى أن تعرف أنك لاتنفع ، ولا تضر ، ولا تستطيع شيئـاً إلا بـإذن اللـه وتقـديـره . **ومعرفة أوامـر الله ونواهيه** هى أن تعلم أن أمر الله عليك ، وأن رزقك عليه ، وأن تكون واثقاً بالرزق مخلصاً فى العمل . أما **معرفة عدو الله** فهـو أن تعلم أن ذلك عـدو لا يقبل الله منك شيئـاً بشأنـه إلا المحاربـة . والمحاربة فى القلب هى أن تكون محاربـاً مجاهداً متعباً للعدو . وقـد توفى شقيق محارباً ومجاهداً ومتعِباً للعـدو فى معركة **كولان** من بـلاد الترك سنة ١٩٤ هـــ ، ويصف تلميذه حـاتم استشهاده أنـه كان مع شقيق فى ذلك اليوم الـذى كانت الـرؤوس تطير فيه ، والسيوف تقطع ، والـرماح تقصف ، وكـان شقيق يتنقل بين الصفوف ويسأل حـاتم كيف ترى نفسك ؟ تراها مثل ما كنت فى الليلة التى زفت إليك امرأتك ؟

والمعرفة التى يقول بها شقيق البلخى هى معرفة مستفادة بالعقل ، بينما معرفة رابعة تحصلتها بالوجدان . ومقام الشكر الذى أقام فيه شقيق أدنى بكثير من مقام المشاهدة الذى كان لـرابعة . ومعـرفتها تحصلتها من هـذا المقام ، ففى المشـاهدة تتكشف للمحب عمـوماً صفات المحبوب ، ليس جملة وإنما صفة بعد صفة ، وكلما عرف منه واحدة طلب أن يعرف الأعلى منها ، لأن تجليات المحبوب لا آخر لها . وعلى قدر كمال المعـرفة تكون لذة المشاهدة .

ويحرك الشوق المحب إلى تكميل معرفته بالمحبوب ، وشوقه لتحصيل هذا الكمال يؤلمه ولكنه الألم المبهج ، لأنه بالمشاهدة يتنعم بجمال المحبوب . وفى مقام المشاهدة يعز الكلام ويلهج اللسان مع ذلك بما يستطيع من وصف للجميل ولذة مشاهدته ، وكانت رابعة لذلك شاعرة وشعرها ينبض بالمحبة ، والمحبة مقام جامع وأصل كل المقامات والأحوال . وبلغت رابعة فى المحبة الغاية فكانت العاشقة التى تجد ، وفى العشق كان فناؤها ، ولقد فنيت فى المشاهدة التى قالت بها فلم تعد تسمع إلاّ لله ، ولا تبصر إلاّ به ، ولا تدرك إلا له ، فأين ذلك من مقام شقيق ؟

مســـاكين المحبين الحيـــارى ... تـــراهم مطلقين وهم أُســـارى
وتحسبهم صحـــاةً من مُـــدام ... وهم من خمر عِشقهم سُكـــارى
إذا ذُكِـــرَ الحمى حنّـــوا إليـــه ... بـأرواح مـــولهة حيـــارى
لقـــد سكن الهوى لهم قلـــوبـــاً ... وقـــرّبها فأعـــدمهـــا القـــرارا

★★★

٩ ـ إبراهيم بن أدهم

★★★

تقول الرواية إن إبراهيم بن أدهم قد أمضى أربعين سنة ليبلغ الكعبة ، لأنه كان فى كل خطوة يصلى ركعتين ، وكان يقول « غيرى يسلك هذا الطريق على قدميه ، أما أنا فأسلكه على رأسى » . وبعد أربعين سنة بلغها فلم يجدها فى مكانها ، فقال نائحاً : وأسفاه ! أصرت أعمى حتى لا أرىٰ الكعبة ؟ فسمع صوتاً يقول : يا إبراهيم ! لست أعمى ، لكن الكعبة قد ذهبت للقاء رابعة ! فتأثر إبراهيم ، ثم رأى الكعبة قد عادت مكانها ، وأبصر رابعة تتقدم مستندة إلى عصا : أى رابعة ! هكذا قال لها ـ « ما أجلّ عملك ! وما الضجة التى تحدثينها فى الدنيا ! الكل يقولون : ذهبت الكعبة للقاء رابعة ! » فأجابت رابعة : يا إبراهيم ! وأية ضجة تحدثها أنت فى الدنيا بأنك أمضيت أربعين عاماً حتى بلغت هذا المكان ؟ لأن الكل يقولون . إبراهيم يتوقف كل خطوة ليصلى ركعتين . فقال إبراهيم : نعم ! لقد أمضيت أربعين سنة فى اختراق

هذه الصحراء ! فأجابت رابعة يا إبراهيم ! أنت جئت بالصلاة وأنا جئت بالفقر ! ـ وبكت طويلاً ، وبعد أن زارت الكعبة عـادت إلى البصرة ، وفى وثبة من قلبها صاحت : إلهى ! وعدت بجزئين لشيئين : القيـام بالحج والصبر على الشدائد ، فإذا لم يكن حجى صحيحـاً عندك ، فما أكبرها مصيبة عندى ! لكن ما جزاء هذه المصيبة ؟

والرواية كما صاغها المؤرخون تـربط بين رابعة وإبراهيم بن أدهم ، وكلاهما قمة من قمم التصوف ، وترمز فيها الكعبة إلى الحضرة الإلهية ، وتشير إلى طريقة العبادة لبلوغ هذه الحضرة ، وهى طـريقة إبـراهيم بن أدهم ، فلكى يصل كان عليـه أن يعانى المشـاق « على رأسه » كما يقول ، بينما غيره يسلك مفازة الصحراء إليها على قدميه ، فطريقـة إبراهيم هى الأعسر ، وقد اختارها رغم ذلك واستنفدت عمره كلـه ، المرموز له بأربعين سنة من الصلاة والسير على الدرب « على رأسـه » ، أى على غير ما اعتـاد الناس . وأما رابعـة فطريقهـا هو القبول والرضا من الله عز وجل ، وهـو المحبة ، فمن أحبه الله كان بصره ويده (الحديث) . والكعبة أى الحضرة هى التى تذهب إلى رابعة ، وهذا غايـة الكرم من رب الكعبة ، وهدية الله إلى أحبائه ،وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

وكانت رابعة رأس المحبة ، وتكلم إبراهيم فى المحبة ، ومن ذلك قوله : إن العباد لو علموا حب اللـه لقل مطعمهم ومشربهم وملبسهم وحـرصهم ، وذلك أن ملائكـة اللـه أحبوا اللـه فاشتغلوا بعبادته عن غيره ، حتى أن منهم قائماً وراكعاً وساجداً منذ خلق الله تعالى الدنيا ، ما التفت إلى مَنْ عن يمينه وشماله ، اشتغالاً باللـه عز وجل ، وبخدمته ، فالمحبة عنده تعنى الاشتغال بعبـادته تعالى ، والمحبـة عند رابعة تعنـى أن تجعله فى فؤادهـا ، فإذا نطقت كان حديثها ، وإذا سكتت كان غليلها . وإبراهيم إذ يبلغ الكعبة فيفتقدها ينوح ، وهو يبحث عنها فى الكعبة البنـاء ، أى فى العبادات والطقوس ، ورابعـة لاتريـد الكعبة الحجر ، لأنها مغـايرة لطبيعتها ، فحجرية الكعبة تقابلهـا لبنية رابعة ، أى أنها من لَبِن بما يعنى إنسيتها ، ورابعة لاتريد الكعبة الحجر ، ولا ترغب فى الطقوس ، وإنما تريد أن تشاهد وجه الله ، ومن أجل ذلك تقـول فى نص آخر « لا أريـد الكعبة بل رب الكعبـة ، أما الكعبـة فماذا أفعل بها » ، وفى نص ثالث تقول عن الكعبة « إنها الصنم المعبود فى الأرض ، واللـه ماولجه إله ولا خلا منه » . ولم تشأ رابعـة أن تنظـر إلى الكعبـة من بعـد ذلك ، وعـادت إلى البصرة ، وأقـامت فى خلـوتها ، وانقطعت بكامل نفسها إلى حضرتها مع الله تعالى .

وإبراهيم بن أدهم كان شرع الرسول ﷺ ونهجه ، والروايات فى حياته أكثر من أقواله ، وحياته هى التى حيّرت فيه المستشرقين ، ووجدوا فيها شبهاً بحياة **جوتاما بوذا** صاحب البوذية ، وأنشئت حولها الكثير من القصص الأدبى كقصة الأمير الشحاذ . ويحكى إبراهيم عن أول أمره فيقول أن أباه كان من أهل بلخ وملوك خراسان ، ومن المياسر ، وحبب أولاده فى الصيد . وفى يوم خرج إبراهيم راكباً فرسه وكلبه معه ، فبينا هو كذلك إذ ثار أرنب أو ثعلب فحرك إبراهيم فرسه وراءه ، فسمع نداء من خلفه يقول . ليس لذا خُلِقْتَ ولا بذا أُمِرتَ ! فتوقف ينظر يمنة ويسرة ، فلم ير أحداً ، فقال فى نفسه لعن الله إبليس . وحرك فرسه ، فإذا بالصوت يأتيه مرة أخرى أجهر من الأولى : يا إبراهيم ! ليس لذا خلقت ولا بذا أمرت ! فتنبه وقال · أُنْبِهْتُ ! أُنْبِهْتُ ! جاءنى نذير من رب العالمين ! والله لا عصيت الله بعد يومى ذا ما عصمنى ربى ! ورجع إبراهيم إلى أهله فخلّى عن فرسه ، ثم جاء إلى أحد الرعاة لأبيه فطلب منه جبة وكساء مما يضعه الرعاة ، وألقى عنه ثيابه ، وارتحل على قدميه ، أرضٌ ترفعه وأرضٌ تضعه ، وهذا ما كان من أوائل أمره وخروجه .

وفى رواية أخرى أنه وهو على فرسه يُركضه ، إذ سمع صوتاً من فوقه . يا إبراهيم ! ما هذا العبث ؟ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ اتقِ الله ، وعليك بالزاد ليوم الفاقة . فنزل عن دابته ورفض الدنيا وأخذ فى عمل الآخرة .

وفلسفة إبراهيم تكاد تقرب من رابعة فى مواضع ، فهو يقول فى الجنة . « اللهم إنك تعلم أن الجنة لاتزن عندى جناح بعوضة ، إذا أنت آنستنى بذكرك ، ورزقتنى حبك ، وسّهلت علىّ طاعتك ، فاعطِ الجنة لمن شئت » .أو يقول «اللهم إنك تعلم أن الجنة لاتزن عندى جناح بعوضة فما دونها ،إذا أنت وهبت لى حبك ، وآنستنى بمذاكرتك ، وفرّغتنى للتفكر فى عظمتك » ، وتقول رابعة « إلهى ! إذا كنت أعبدك خوف النار فاحرقنى بنارها ، أو طمعاً فى الجنة فحرّمها علىّ ! وإذا كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك » . وقيل لها يوماً كيف شوقك إلى الجنة ؟ فقالت : الجار قبل الدار ! .

وتجمع الرواية بين إبراهيم بن أدهم ورابعة كما رأينا فيما سبق من أبواب ، وتجمعه أيضاً بمتصوفة أخرى قيل اسمها **ميمونة السوداء** . ويحكى إبراهيم أنه رأى فى المنام كأن قائلاً يقول له إن ميمونة السوداء زوجتك ، وذلك نفسه ما يحدث **لعبد الواحد بن زيد** ،

وقد سبق أن قدمنا لذلك فيما أوردناه عن ذلك الزاهد العابد ، فالمَشاهد والمعانى واحدة وإن اختلفت الألفاظ ، والقصة من الأدب الرمزى ، والبيئة التى تجرى عليها مع ابن زيد هى البصرة ، بينما هى مع إبراهيم بيئة الشام ، مع مناسبة الشعر فيهما لابن زيد أو ابن أدهم ، بحسب مقام كل منهما وباعه فى التصوف . ففى القصيدة الأولى نقرأ كلمات مثل الوعظ والزجر والمحبة وهى من مفردات أليق بابن زيد ، وفى القصيدة الثانية نعثر على ألفاظ ومصطلحات مثل قلوب العارفين وسر النجوى وشراب الصدق ، وهى الأنسب لابن أدهم . وأما أن ميمونة فى الحالتين سوداء ، وأنها فى الجنة زوجة لهذا أو لذاك من الأولياء ، فقد تكون الإشارة للظاهر والباطن أو الشريعة والتصوف ، وأما أن الخراف ترعى مع الذئاب فقد يكون المعنى مصالحة التصوف على الشريعة ، أو توافق الظاهر والباطن ، أو كما تقول ميمونة أصلحت ما بينى وبين الله فأصلح هو مابين الذئاب والغنم .

★★★

١٠ ـ ذو النون المصرى

اسمه **ثوبان بن إبراهيم** ، وأطلقوا عليه **ذا النون** ، لأنه كان كالنبى يونس سواحلياً كثير السياحة بالبحر ، وله حكايات مع أهل البحر ، ولقّبوه **بأبى الفيض** فقد كانت له مواهب فيضية وتحدّث فى الطريق وله فيه تعاليم . ويبدو أنه كما قيل أول من قعّد وأصلح مصطلحاته وبيّن معارفه . وله لسان فى المعرفة وفى المحبة ، وكلامه معظمه يدور حول الأُلفة والهوى والوله والوداد والأنس والشوق ، واللذات والذكر ، والوصال والعشق ، ولغته هى لغة القلوب والعيون والعبرات والجفون والصبابة والحب والمحبة والمُحبّين ، ولقاءاته فى أغلب ما يحكى تتم على خلفية من الطبيعة ، فيقول : كنت فى جبال الشام ، أو تيه إسرائيل ويقصد سيناء ، أو صحراء العرب ، أو بلاد النوبة ،أو برية مندرة ، أو على شط نيل مصر ، أو بين أشجار الشام ، أو فى البحر ، أو على ساحل بحر الشام ، أو فى جبال بيت المقدس ، أو على ساحل البحر عند صخرة موسى ، أو فى جبال أنطاكية ، ولقاءاته مع النساء بخاصة كثيرة جداً ، ورواياته بهذا الخصوص لاتعد ، وهن دائماً من العابدات ، وحديثهن لا يكون إلا فى المحبّة ، وتجرى هذه اللقاءات على خلفية طبيعية يصف فيها الليل والسماء والماء ،

ورهبة القفر ووحشة الجبال ، والألوان تستهويه ، ومن ذلك خضرة الشجر ، وسواد الليل وبياض النهار ، ودُكنة الجبال ، وصفرة الصحراء ، والناس عنده سود البشرة أو بيض ، والأصوات يلوّنها الحزن والشجن ، والقلوب تحرقها اللوعة ودائمة الأنين . وأحصيت له فى سيرته فى **حلية الأولياء** لقاءه بعشرة نسوة ، وحديثه كثير عن الشهوات واللذات ، وإذا تحدث فى الذنوب اختص منها بالذات ذنوب النظرة ، ومن النظرة الخَطْرة ، فإذا تداركنا الخطرة بالرجوع إلى الله ذهبت ، وإن لم ندركها امتزجت بالوساوس فتتولد منها الشهوة ، ويقول : إن هذه العمليات النفسية الجسمية تتم فى الباطن ولم تظهر بعد على الجوارح ، وما لم نتدارك الشهوة يتولد منها الطلب ، وما لم نتدارك الطلب يتولد عنه الذنب ، والصوفية دائماً ينبهون إلى أن ما نذكره كثيراً ونخوض فيه مراراً دليل انشغال أكيد به ، وكأن انشغال ذى النون إذن **بالجنس** ، ولكنه يتسامى به كما نقول فى التحليل النفسى ، فيوجه طاقاته الليبيدية إلى الحديث فى المحبة والانفعال بمطلق المحبة ، ولغته فيها لغة **العارف** ، والفرق بينه وبين رابعة فى مجال المحبة أن رابعة تحب كأنثى وتعانى فعلاً وتبلغ فى حبها الغاية وهو العشق . والمحبة ألصق بالنساء ، بينما ذو النون أستاذ ومعلم ، فهو يعرف المحبة ويبيّن علاماتها ، ويصف أهلها ، ويصنّف مراتبها ، وينعتها فى أحوالها ، ويعدّد مقاماتها .

وكان لقاء ذى النون برابعة كلقائه بغيرها من الجوارى من أهل المحبة والهوى والجوى والصبابة والعشق ، يقول تلميذه **سعد بن عثمان** : كنت مع ذى النون المصرى رحمه الله فى تيه بنى إسرائيل ، وإذا بشخص قد أقبل فقلت : يا أستاذ ! شخص قد أتى . فقال لى : أنظر من هو ، فإنه لا يضع أحد قدمه فى هذا المكان إلا صدّيق ، فنظرت فإذا هى امرأة فقلت : إنها امرأة ؟ فقال صدّيقة ورب الكعبة ! فابتدر إليها وسلّم عليها فقالت : وما للرجل ومخاطبة النساء ؟ فقال : أنا أخوك ذو النون ولست من أهل التهم ، فقالت : مرحباً ! حيّاك الله بالسلام ! فقال : ما حملَك على الدخول فى هذا الموضع ؟ فقالت : آية من كتاب الله عز وجل ـ قوله تعالى : ﴿ **ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ﴾ فكلما دخلت إلى موضع لم يهننى القرار فيه بقلب قد أبْهَلَتْهُ شدة المحبة ، وهام بالشوق إلى رؤيته . فقال لها : صفى المحبة ! فقالت : سبحان الله ! أنت عارف بها وتتكلم بلسان المعرفة ، وتسألنى عنها ؟ ! فقال لها : للسائل حق الجواب . فقالت : نعم ، والمحبة عندى لها أول وآخر فأولها لهج القلب بذكر المحبوب ، والحزن الدائم والتشوق اللازم ، فإذا صار إلى أعلاها شغله

وجدان الخلوات عن كثير من أعمال الطاعات ... ثم أخذت فى الزفير والشهيق وأنشأت تقول :

أحبك حبين : حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا
فأمّا الذى هو حب الهوى ... فذِكرٌ شُغِلت به عن سواكا
وأمّا الذى أنت أهلٌ له ... فكشفُك الحُجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولاذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وفى رواية أخرى قال ذو النون : بينما أنا أسير على ساحل البحر إذ بَصرت بجارية عليها أطمار شَعْر ، وإذا هى ناحلة ذابلة فدنوت منها لأسمع ما تقول ، فرأيتها تنظر إلى السماء ، متصلة الأحزان بالأشجان . وعصفت الرياح فاضطربت الأمواج وظهرت الحيتان ، فصرخت ، ثم سقطت إلى الأرض ، فلما أفاقت قالت تناجى الله : ياسيدى ! لك تقرّب المتقربون فى الخلوات ، ولعظمتك سبّحت الحيتان فى البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات ، أنت الذى سجد لك سواء الليل وضوء النهار ، والفلك الدّوار ، والبحر الزخّار ، والقمر النوّار ، والنجم الزهّار ، وكل شىء عندك بمقدار ، لأنك الله العلى القهّار :

يامؤنس الأبرار فى خلواتهم ... ياخير من حلّت به النُزّال
من ذاق حبك لايزال مُتيّما ... فَرِحَ الفؤاد متيماً بلبال
من ذاق حبك لا يُرى متبسماً ... من طول حزن فى الحشا إشعال

فقلت لها : زيدينا من هذا ! فقالت : إليك عنى ! ثم رفعت طرفها إلى السماء وقالت :

أحبك حبين : حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا
فأمّا الذى هو حبّ الهوى ... فذِكرٌ شُغِلت به عن سواكا
وأمّا الذى أنت أهلٌ له ... فكشفُك الحُجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولاذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ثم شهقت شهقة فإذا هى قد فارقت الدنيا ، فبقيت أتعجب مما رأيت منها ، فإذا بنسوة قد أقبلن ، عليهن مدارع الشعر ، فأحتملْنها فغيبنها عن عينى ، فغسّلنها ثم أقبلن بها فى أكفان ، فقلن لى : تقدّم فصلّ عليها ، فتقدمت وصلّيت عليها وهن خلفى ، ثم أحتملنها ومضين .

ومن رأى **الدكتور بدوى** أن هذه القصة أسطورية إن قُصِد بهذه المرأة رابعة كما هو ظاهر من شعرها ، وذلك أن ذا النون المصرى إنما ولد حوالى سنة ١٨٠ هـ ، أى فى الوقت الذى توفيت حواليه رابعة ، فهنا استحالة تاريخية إذن ، وإنما هى من تلك الأقاصيص الشائعة عند مؤرخى الصوفية للربط بين كبار الشخصيات فى التصوف ، حتى ولو لم يتفق هذا مع الإمكان التاريخى ، ومن شعروا بهذه الاستحالة التاريخية سرعان ما راحوا يزيفون فى التواريخ نفسها حتى ييسروا هذا التلاقى ، والعلّة فى هذا الحرص الشديد على الربط واللقاء ، هو تواتر السند بحيث يتصل الإسناد الحى ، لأن فى اتصاله ضماناً لصدقه ورفعاً للذاتية فيه ، كما هو شأن الروح العربية فى تصوراتها ، ففى النبوة تحرص على التسلسل الطولى بحيث يكون الأنبياء جميعاً سلسلة واحدة متصلة الحلقات ، تأخذ قوامها الحق لا عن أفراد الأنبياء تفاريق ، بل عن وحدة التسلسل فيها مجتمعين . وفى **الرواة المحدّثين** ، وفى الإجازات فى مختلف مرافق الحياة الدينية ، فهذا هو الذى يفسر لنا وجود هذه الظاهرة الفذة فى عالم الروح العربية ، **ظاهرة الحرص الشديد على الإسناد التاريخى الحى المتصل** ، أعنى أن العلة هى القضاء على **الذاتية** وتوكيد التسلسل حتى يتصل بالكلمة العليا ، ولذا نرى الإجازة الحقيقية أو الإسناد الحق لابد أن ينتهى بالنبى أو المَلَك الصادر مباشرة من الله فى خاتمة المطاف . ولعل من أوضح الشواهد وأغربها فى هذا الباب **فكرة المصافحة** وتسلسلها التاريخى حتى تنتهى بالنبى ، والرسائل عديدة فى موضوع المصافحة مما يدل على مدى الاهتمام الشديد بالفكرة عينها ، **إنما تفيد فى بيان الفكرة التى كانت لدى أولئك المؤرخين الذين ابتدعوا القصة عن نظرية الحب منسوبة إلى رابعة بوصفها أول من تحدث عنها ، ولذا كانت أجدر الناس بأن يتلقى عنها معانى المحبة ، فإذا كان فى تقدير الصوفية أن رابعة هى التى لقّنت الناس مذهب المحبة فمن يتكلم بعدها عن المحبة يجب أن يأخذ عنها حتى تكون معرفته بها كاملة ، لهذا نرى أن الذين وضعوا هذه القصة إنما أرادوا خصوصاً أن يرفعوا من شأن ذى النون بأن يجعلوه يتلقى علم المحبة عن صاحبة هذا العلم الأولى : رابعة .**

وكل ما ذكره **الدكتور بدوى** كان يمكـن أن يكون صحيحاً لـو لم تكن هناك مـراجع تزعم أن ذى النـون ولُدِ سنـة ١٥٧ هـ (**أنظر ابن الملقن طبقـات الأولياء**) فإذا كانت رابعة قد توفيت نحو سنة ١٨٠ أو ١٨٥ هـ فمعنى ذلك أن يكون ذو النون قد التقى برابعة على الحقيقة ، وخاصة إذا علمنا أن ذا النـون كان كثير التنقل ،وكان لقاؤه بغير أهل بلده من الكثرة حتى أنهم أطلقوا عليه اسم المصرى ، وأنه سـافر إلى غزة ، والشام والبصرة ، وبغداد وجدة ، ومكة ، والمدينـة ، ومدن أخرى ، ولعل تلك الأسفـار وإقباله على الالتقاء بـالصوفية أنّى وجدوا ، هو الـذى أشهره بينهم ، فلما عرفوه اطّلعوا على فكـره وتبيّن لهم فضله ، فقال فيه **الجامى** إنه هو رأس هـذه الفرقة أى الصوفيـة ، فالكل قد أخذ عنـه وانتسب إليه ، ولقد كان المشايخ قبلـه ولكنه أول من فسّر إشارات الصوفية وتكلّم فى هذا الطـريق . ويذكر **أبو المحاسن** أن ذا النون كان أول من تكلّم فى مصر فى الأحوال ومقامات أهل الولاية . ويذكر له **العطار صاحب تذكرة الأولياء** تعريفات لكلمة العارف والمعرفة تملأ نحواً من صفحتين . ومما يؤثر له أنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع . **وقال** عنه **القشيرى** أنه أول من عرّف التوحيـد بالمعنى الصوفى . **ويقول المستشرق نيكلسون** أن ذا النـون ـ وليس أبـو اليزيد البسطامى ـ كان له أكبر الأثـر فى تشكيل الفكرة الصوفية . وإذن فلربما يمكن القول أن القصـة قد لا تكـون مختلقة ، وخصـوصاً أن مـا يطعن فى زعم الـدكتور بـدوى من أن المؤرخين ابتدعوا القصـة لينسبوا مذهب المحبة لرابعة ويـرفعوا من شأن ذى النون كمتلقٍ عن رابعة ـــ أقول إن ما يطعن على هـذا الزعم أن الرواة جهّلوا المرأة ، وكـان الأجدر بهم أن يذكروا أنها رابعـة صراحة ـ وكذلك لا يطعـن فى نسبة الأبيات لرابعـة أن الراوى لم ينسبها إليها فـالأبيات لرابعة فعـلاً بشهادة كل المؤرخين ، وتفسيرنا لتجهيل المرأة فى هذه الـرواية أنها ربما لم تكن رابعة وكانت إحدى المتصوفات التى تحفظ عن رابعة وتنهج نهجها .

وفى السيرة التى يوردها **أبو النعيم** لذى النون أنه فى جبال أنطاكية ، إذا بجارية كأنها مجنـونة ، وعليـها جبة صـوف ، فسلّم عليهـا ، فردّت السـلام ، فقالت : ألسنت ذا النـون المصرى ؟ فسـألها كيف عرفتنى ؟ فقالت : فتق الحبيب بينى وبين قلبك ، فعـرفتك باتصال حب الحبيب . ثم قـالت أسألك مسألـة ؟ قلت : سلينى . قالت : أى شىء السخـاء ؟ قلت : البذل والعطاء . قالت . هذا السخاء فى الدنيا ، فما السخاء فى الدين ؟ قلت . المسارعة فى طاعة المولى . قالت : فإذا سارعت إلى طاعة المولى تحب منـه خيرًا ؟ قلت . نعم . قالت : المسارعة إلى

طاعة المولى أن يطّلع إلى قلبك وأنت تـريد منه شيئًا بشيء . ويحك يـاذا النون ! إنى أريد أن أقسم عليه فى طلب شهوة منذ عشرين سنة فأستحى منه مخافة أن أكون كأجير السوء ، إذا عمل طلب الأجر ، لكن أعمل تعظيما لهيبته وعز جلاله !

والسـؤال عن السخـاء وطلب الشهـوة التـى تعتمل فى النفس منـذ مـدة ولم تتحقق ، والاستحياء من الله ، وأجير السوء ، والعمل لعظمته وهيبتـه ، كل ذلك نصادفه فى الروايات عن رابعة مع صوفية آخرين غير ذى النون ، ولا تقتصر على ذى النون .

ويلتقى ذو النون بـامرأة فى بعض مسيراتـه تسأله من يكـون ؟ فيشكو لها الغـربة ، فتقول : وهل توجد مع الله أحزان للغربة وهو مؤنس الغرباء ومعين الضعفاء ؟ !

ثم يلتقى ذو النون بجـارية على شاطىء النيل تـدعو ربها تقول : يامن هـو عند ألْسُن الناطقين ، يامن هو عند قلوب الذاكرين ، يامن هو عند فكرة الحامدين ، يامن هو على نفوس الجبّارين والمتكبرين ، قد علمت ما كان منى يا أهل المؤملين ! ثم صرخت صرخة خرّت مغشياً عليها .

ويحكى أيضـاً ذو النـون عن امـرأة سـوداء فى سـواد نيل مصر ، ويقصـد ربما من السودان ، تنـاجى ربها بأحسن وأعذب الكلام ، ثم امـرأة خامسة وسـادسة إلخ ،، ومنهن واحدة التقى بها فى الكعبة وكانت تبث الله لواعج حبها :

ذَوّقتنى طيب الـوصـال فـزدتنى — شـوقًـا إليك مخامـر الحسرات

وتقول :

روّعت قلبى بـالفـراق فلم أجـد — شيئـاً أمـرّ من الفـراق وأوجعـا
حسب الفـراق بأن يفـرق بيننـا — وأطـال مـا قـد كنت منـه مـودعـا

وقـالت : يا ذا النـون ! أما علمت أن الشـوق يـورث السقم ، وتجديد التـذكار يـورث الأحزان ؟ وأنشأت تقول :

لم أذق طعـم وصلـك حتـى — زال عنـى محبتى لـلأنـام

وقالت :

نِعْمَ المحبُ إذا تــزايـــد وصلـــه   وعَلَت محبتـــه بعقب وصـــال

وكل هذه الروايات وغيرها عن نساء لم تُذكر أسماؤهن ، وأحسب لذلك أن المرأة التى أنشدت أبيات رابعة فإنما كانت تنشدها مما تحفظه من الشعر عن المحبة .

وذو النون نفسه شاعر ، وله القصائد والأبيات فى المحبة كأجمل ما يكون الشعر فى هذا المجال ، إلا أنها مع ذلك ليست على مستوى شعر رابعة ، حيث نستطيع أن نميز فى شعرها أنها تتحدث عن **تجربتها الحية** ، وتقبس من مشاعرها ، وتطرح نفسها فى سطور ، فتنبض الأبيات بصدق المحبة وحرارة الحب ، فأما شعر ذى النون فإنه لا يتحدث فيه عن نفسه بقدر ما يجعل من تجربته **تجربة إنسانية عامة** تصلح لكل أحد فى مثل حاله ، وفى كل عصر ومصر ، فقد كان ذو النون مشغولاً بالتعليم وأن يكون له المريدون ، فلما توفى فى جيزة مصر سنة ٢٤٥ هـ ، حُمل على قارب مخافة أن ينقطع الجسر من كثرة الناس مع جنازته ، ورأى الناس طيوراً خضراء ترفرف على جنازته حتى وصلت إلى قبره رضى الله عنه .

★★★

وبعد ... فلعل هذه السياحة فى عالم رابعة قد شارفت على غايتها، وقد أتاحها كتاب **الدكتور عبد الرحمن بدوى « رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى »** .والكتاب من الكتب المثيرة للكثير من الجدل ، والمهم أن الدكتور بدوى كان فيه رائداً ، وأفكاره فيه مبدعة وأصيلة وإن اختلفنا معه فيها .

وتظل رابعة العدوية بسيرتها وأفكارها وأقوالها نبعاً ثرّاً لبحوث مستقبلة ، وكشوف عظيمة ، نتوقعها من فلاسفة مسلمين وغير مسلمين ، ومتصوفة من كل أنحاء العالم ، فرابعة بما آمنت به ، ووهبت حياتها من أجله ، ملكٌ لكل الناس ، فى كل العصور والأمصار ، رضى الله عنها وأرضاها ....

عبد المنعم الحفنى

★★★

المراجع التى ورد ذكرها فى الكتاب

ـ رابعة العدوية · شهيدة العشق الإلهى للدكتور عبد الرحمن بدوى .
ـ الطبقات · لابن الملقن .
ـ الأعلام · الزركلى .
ـ الروض الفائق فى المواعظ والرقائق : الحريفيش .
ـ شذور العقود : لابن الجوزى .
ـ وفيات الأعيان · لابن خلكان .
ـ إتحاف السادة المتقين فى شرح إحياء علوم الدين . الزبيدى .
ـ قوت القلوب . للمكى .
ـ الرسالة . للقشيرى .
ـ التعرف . للكلاباذى .
ـ عوارف المعارف · للسهروردى .
ـ الرسائل والمسائل . لابن تيمية .
ـ صفة الصفوة : لابن الجوزى .
ـ مصارع العشاق : للسرّاج .
ـ طبقات الأولياء : للمناوى .
ـ نفحات الأنس من حضرات القدس . لعبد الرحمن جامى .
ـ شذرات الذهب . لابن العماد الحنبلى .
ـ سير السالكات المؤمنات الخيرات : لأبى بكر الحصنى .
ـ سير أعلام النبلاء : لشمس الدين الذهبى .
ـ شرح حال الأولياء · لعز الدين بن عبد السلام .
ـ شفاء السائل لتهذيب المسائل : لعبد الرحمن بن خلدون .
ـ تفسير المنار .
ـ إحياء علوم الدين . للغزالى .
ـ روض الرياحين عن مناقب الصالحين · لابن أسعد .

- روضة التعريف بالحب الشريف : لابن الخطيب .
- حلية الأولياء : للأصبهانى .
- تذكرة الأولياء : لفريد الدين العطار .
- دائرة معارف القرن العشرين .
- دائرة المعارف الحديثة .
- دائرة المعارف الإسلامية .
- البداية والنهاية . لابن كثير .
- الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى . للدكتور محمد مصطفى حلمى .
- رابعة العدوية . محمد زكى عبد الرحمن .
- رابعة العدوية · سميح عاطف الزين .
- رابعة العدوية بين الغناء والبكاء : الدكتورة سعاد على عبد الرازق
- الموسوعة الصوفية . لجون فرجسون

- The Mystic Encyclopedia, : J. Ferguson. .

- دائرة المعارف البريطانية

- Encyclopedia Britannica. vol. 9 .

- رابعة العدوية وأصحابها الصوفية : لمرجريت سميث

- M. Smith : Rabbi'a The Mystic and Her Fellow - Saints .

- رابعة العدوية : لمحمد قمر الدولة نصر .
- رابعة العدوية · لمحمد زكى عبد الرحمن .
- رابعة العدوية . طه عبد الباقى سرور .
- رابعة العدوية · ليسرى الجندى .
- المتصوفة عبيدة : لمحمد شوقى .
- كشف المحجوب · للهجويرى .
- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع : الملطى

- Simone De Beauvoir : Le Deuxieme Sexe .
- Handbook of Parapsychology : Wolman .
- Teresa De Jesus : Libro de la Vida .

الفهرس

★★★

بعض كتب الدكتور الحفنى

١ ـ الموسوعة الصوفية : أعلام الصوفية والمنكرين عليهم والمؤيدين لهم .

٢ ـ المعجم الصوفى : الشامل لمفاهيم ومصطلحات وألفاظ الصوفية .

٣ ـ الإمام الفيلسوف حجة الحق الشاعر عمر الخيام والرباعيات .

٤ ـ فرق الشيعة للنوبختى والقمى : تحقيق ودراسة .

٥ ـ موسوعة الفرق والمذاهب والجماعات الإسلامية منذ البداية حتى جماعة الإخوان المسلمين وأنصار السنة والجهاد وغيرهم .

٦ ـ موسوعة أعلام علم النفس .

٧ ـ موسوعة مدارس علم النفس .

٨ ـ البراهين العقلية على وجود الله والرد على المنكرين والطبيعيين والملحدين.

٨ ـ موسوعة الفلسفة .

١٠ ـ المعجم الفلسفى : عربى إنجليزى فرنسى ألمانى لاتينى .

١١ ـ القاموس اللاتينى للفلسفة .

١٢ ـ موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية .

١٣ ـ الفلسفة الوجودية .

١٤ ـ التعريفات للجرجانى ـ تحقيق .

١٥ ـ موسوعة علم النفس والتحليل النفسى .

١٦ ـ موسوعة : علم النفس فى حياتنا اليومية .

١٧ ـ الموسوعة النفسية الجنسية .

١٨ ـ المعجم الموسوعى للتحليل النفسى .

١٩ ـ التحليل النفسى للأحلام .

٢٠ ـ تعبير الرؤيا ـ تحقيق عن أرطميدروس .

٢١ ـ تعبير المنام لعمر الخيام تحقيق .

٢٢ ـ موسوعة الطب النفسى (مجلدان) .

٢٣ ـ تفسير الأحلام لفرويد .

٢٤ ـ موسى والتوحيد لفرويد .

٢٥ ـ الحب والحرب والموت والحضارة لفرويد .

٢٦ ـ ليوناردو دافنشى لفرويد.

٢٧ ـ ما فوق مبدأ اللذة لفرويد .

٢٨ ـ أسطورة سيسيف لكامى .

٢٩ ـ المتمرد لكامى .

٣٠ ـ الوجودية مذهب إنسانى لسارتر .

٣١ ـ الماركسية والثورة لسارتر .

٣٢ ـ عالم بلا يهود لماركس وسارتر وآخرين .

٣٣ ـ معنى الوجودية لچان ڤال .

٣٤ ـ جان بول سارتر . حياته وأدبه وفلسفته .

٣٥ ـ ألبير كامى : حياته وأدبه وفلسفته .

٣٦ ـ ثلاث مسرحيات لسارتر : سجناء ألطونا ، والشيطان والرحمن ، والممثل كين .

٣٧ ـ ثلاث مسرحيات لكامى . العادلون ، والحصاد ، وسوء تفاهم .

٣٨ ـ سيناريو فيلم الدوامة L' Engrenage لسارتر .

٣٩ ـ الأفواه اللامجدية لسيمون دى بوڤوار .

٤٠ ـ البغى الفاضلة لسارتر .

٤١ ـ ملء قبضة من المطر لجازو .

٤٢ ـ مشهد من الشارع لرايس .

٤٣ ـ جمهورية أفلاطون .

٤٤ ـ رجال وفئران لشتاينبك .

٤٥ ـ البوتقة لميلر .

★★★

هذا الكتاب

إن قصة رابعة العدوية لشئ يستحق أن نقرأه ونحيط علماً به ، وقد كثر المؤلفون لها والمترجمون لحياتها ، ولكنهم لم يتعرضوا لسيرتها بالتحليل ، ولم يمحصوا أخبارها ولعل أكبر إسهام فى التنويه بها كان كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى « رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى » ولكن هذا الكتاب من وجهة نظر الدكتور الحفنى كان أكبر إساءة لرابعة العدوية ، هذه الصوفية المتبتلة ، والناسكة الزاهدة . وقد آل الدكتور الحفنى أن يرد على الدكتور بدوى ويحلل اتهاماته لرابعة ، ويخضع حياتها للتحليل النفسى ، ويقارن بينها وبين القديسة تريزا على الحقيقة ، ويوضح الاختلافات الأساسية بين هاتين الشخصيتين المتميزتين فى تاريخ التصوف الإسلامى والمسيحى . وقد تناول الدكتور الحفنى بالنقد الشديد كتباً أخرى عن رابعة ، واعتبر قصة الفيلم التى قدمتها السينما المصرية عن هذه الصوفية إهانة بالغة تسبب فيها كتاب الدكتور بدوى السالف الذكر . وقدم معراج رابعة الروحى من أحوالها ومقاماتها ، وتحليلاً لسلوك الرجال والنساء من حولها فى علاقاتهم بها ، ومعانى الزواج والمحبة والعشق والخلة عندها ، ورأى العلم فى إمكان توبة الآثمة وأن تكون من أولياء الله ، وعرض لغة التصوف عموماً وتحليل هذه اللغة عند رابعة وتريزا ، والفرق بين محبة الله فى الإسلام والمسيحية . والمؤلف يرجو أن يكون بذلك قد قدم دراسة فلسفية موضوعية جادة لرابعة ودار الرشاد يسعدها أن تقدم هذا الكتاب كأول دراسة موضوعية فعلاً بعيداً عن الكتابات الإنشائية المعروفة فى مجال الكتابة عن التصوف عموماً ورابعة العدوية خصوصاً

الناشر

دار الرشاد
طبع . نشر . توزيع
١٤ شارع جواد حسنى القاهرة ت : ٢٩٣٤٦٠٥ - ٢٩٩٢٦١١٥